الحياة حلم والنائم اليقظان

مسرحية ... وحكاية

د. عبد الكريم اليافي

كنت في ابان صباي ــ وما زلت بحمد الله فتى في الذهن والارادة والقوة ــ كنت ، وأنا طالب بباريس ، مولعاً أشد الولع بالاختلاف الى مسارح هذه العاصمة ــ عاصمة النور ــ على الرغم من الستار الأسود الذي سدلته عليها الحرب العالمية الثانية . كنت مشغوفاً بدار الأوبرا والأوبرا كوميك ومسارح الأوديون والكوميدي فرنسيز والشانزيليزي ومسارح البولفار ومسارح الجيب (المُسَيْرحات) ، الى جانب إكبابي على دروسي الواسعة المتشعبة علمية وأدبية وفلسفية .

كانت المسارح عندي من قمم الفنون للفائدة الروحية والاجتماعية والمتعة الفنية والأداء البديع واللغة الراقية . فالمسرح فن مركب يمزج الفنون المكانية بالفنون الزمانية ــ أي الفنون البصرية بالفنون السمعية .

وعلى الرغم من الفقر الذي عاناه الطلاب في زمن الحرب كنت أقتصد في الراتب الضئيل الذي يصلني لأستفيد من أسعار المسارح الرخيصة المخصصة للطلاب .

وما تزال المسرحيات التي شهدتها إذ ذاك تغني ذاكرتي الأدبية والفنية .

من أجمل المسرحيات وأروعها وأشدها نفوذاً الى القلب والعقل وأكثرها دعماً للسلوك الانساني مسرحية « الحياة حلم » للكاتب الشاعر الاسباني الشهير

بدروكلديرون دي لابركا • شهدتهـا وأعجبت بها وبقيت آثارها تعمل في ذهني وخاطري • ثم علمت أن كلديرون متأثرالى مدى بعيد بالتراث العربي الاسلامي في شتى جوانبه وآفاقه وتعاليمه وصوره وحِكمه ، مَثَلُه مثل مواطنيـه الاسبان الذين جعلتهم تلك الحضارة طليعة الشعوب الأوربية ثقافة وعلماً وفناً • وبقيت هذه الآثار عميقة في نفوسهم بعـد أكثرمن قـرن حتى نخرت بمحـاكم التفتيش وأمراض التعصب • فأنا أقدم هذا الحديث بمناسبة مرور خمسمائة عـام على خروج العرب من الأندلس سنة ١٤٩٢ •

أتكلم أول الأمر على الكاتب الشاعر ، ثم أقدم خلاصة المسرحيـة ، ثـم أعرض حكاية « النائم اليقظان » في رواية ألف ليلة وليلة وهي التي أخذ الشاعر المسرحي الكبير هيكلها الحي وألبسه لباساً روحياً ينم فضلا عن أصالته على تأثره الفكري والروحي بالثقافة العربية •

وانما نعرض الحكاية بنصها عـن طبعة الأبصالحاني في بـيروت (١٨٨٨ ــ ١٨٩٠) الجزء الثاني تيسيراً للقارىء لأنها لا توجد في طبعة بولاق عام ١٢٥١هـ ولا في طبعة القاهرة ١٢٩٧ هـ •

بدرو كلديرون دي لابركـا

PEDRO CALDERON DE LA BARCA

(١٦٠٠ ــ ١٦٨١)

ولد هذا الكاتب العبقري الاسباني بمـدريد في مسـتهل القرن السابع عشر وشغلت حياته الأدبية نحو ثلاثة أرباع هذا القرن • كان سيد المسرح الاسباني • وقد ختم العصر الذهبي لأدب بلاده • جاء بعد شاعر اسبانيا الكبـير لوبي دي فيغا الذي جسّد عبقرية الأمة الاسبانية والذي يعد أكبر المؤلفين المسرحيين الاسبـان والذي كان نسيج وحده و « فريد عصره» كمـا دعي اذ ذاك • ان انتـاج لوبي ضخم جداً ، يشبه فيضان السيل الغزير المتدافع • وقد سار على أثره كلديرون تقريباً وعالج أكثر الموضوعـات التـي عالجها لوبي ، ورفع الأدب المسرحي الى أعلى درجة من الاتقان • ثم انطفأ الأدب مع انطفائه • ألّف مائة وعشرين ملهاة

« كوميديا » وثمانين مأساة دينية من التي تدعى بالاسبانية « أوتو » ، الى جانب بعض الأعمال الترفيهية ·

تعلم في مدرسة يسوعية ، وأحس في نفسه ميلاً قوياً الى الأدب · دخل الجيش وغدا جندياً في الجيش الاسباني بايطالية والفلاندر · ثم دخل سلك الرهبانية وهو في سن الواحدة والخمسين · وغدا بعد بضع سنين كاهن البلاط عند الملك فيليب الرابع ثم عند الملك شارل الثاني ·

ان لفظة ملهاة التي استعملناها أردنا أن تقابل لفظ Comedia الاسباني وهي هنا تعبير واسع يشمل جميع أنواع المسرحيات سواء كان موضوعها مضحكاً مسلياً أو فاجعاً مأساوياً أو كليهما معاً كما يمكن أن تكون خاتمتها سعيدة أو تعسة · فهي أعم مما يراد بلفظة كوميديا في الآداب الأجنبية عامة · وكلا اسمي لوبي دي فيغا وكلديرون دي لابركا مرتبط بهذا النوع الاسباني من المسرحيات ·

وأما الأتو فهي مسرحية دينية أوطقوسية كاثوليكية تتألف من فصل واحد تشيد بالحضور الالهي في سر القربان المقدس المسيحي · كان يعرض تمثيلها بأبهة فائقة يوم عيد القربان على مسارح نصبت في شوارع مدن أسبانيا الكبرى · ولهذا الاتجاه الديني لقب كلديرون بشاعر السماء ·

الأفكار البارزة في مسرحية « الحياة حلم » تتحكم في سائر أعمال كلديرون الفنية وأهمها أن الحياة الانسانية كالحلم الذي يراه النائم في نومه ، وليست بهذا الاعتبار الا وهماً لا يثبت الا بالمدى الذي يستغرقه السراب وتستوعبه حواسنا في اللحظات العابرة التي هي مدة العمر · حتى الأفكار ان هي الا أوهام حين تستند في نطاقها الى الحواس فقط · ذلك أن الفكر الأصيل لا يعتمد الا على العقل ، وهو إذ ذاك يقوم على الارادة الحرة ، ويتجاوز الظاهر المتبدل الى الباطن الثابت والخالد · واذا جعلنا العقل أمامنا واتبعناه واتخذناه إماماً في السلوك والمسعى كنّا بُناة ذواتنا والمتصرفين بأزمة نفوسنا وتحررنا من كل قيد وعبودية ولا سيما من أوهام التنجيم والتدجيل · كذلك ينوه الشاعر المسرحي الكبير بالشهامة والفروسية والوفاء بالعهود وبالحشمة والشرف الذي نحوط به كل من هو غال علينا كالمرأة بنتاً وأختاً وأماً وزوجة ، كما تمس المسرحية

الموازنة بين الحلم والواقع ، وبين الطالع الفلكي والارادة الطيبة ، وبين الاسار والحرية، وواجب الأبوة والبنوة ومطامع النفس الانسانية ، ونداء الدنيا والآخرة .

ولقد شاع في الاسلام أن الحياة الدنيا ليست الا متاعاً الى حين فلا يغتر العاقل بهذا المتاع الزائل . وجاء في أقوال الامام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: « الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا » . ومن الوعاظ والشعراء من جرى هذا المجرى في التشبيه . ونحسب أن أبا الطيب المتنبي كان أعمق من كلديرون حين أشار بخفاء الى الفرق بين حلم النوم وحلم الحياة حين قال :

تمتّع من سهاد أو رقاد ولا تأمل كرى تحت الرجام
فانّ لثالث الحالين معنى سوى معنى انتباهك والمنام

وقد نوه الاسلام بقيمة العقل وبيان فضله وشرفه . فقد جاء في الحديث الشريف : « ما خلق الله عز وجلّ خلقاً أكرم عليه من العقل » . وقال : « اذا تقرب الناس بأبواب البر والأعمال الصالحة فتقرب أنت بعقلك » . وقال لأبي الدرداء : « ازدد عقلا تزدد من ربك قرباً » . وشاع مثل هذا التنويه على لسان الشعراء . قال ابراهيم بن حسان :

وأفضل قسم الله للمرء عقله فليس من الأشياء شيء يقاربه
اذا أكمل الرحمن للمرء عقله فقد كملت أخلاقه ومآربه

ومن منا من لا يتمثل بقول رهين المحبسين :

كذب الظن لا امام سوى العقـ ـل مشيراً في صبحه والمساء
فاذا ما اطعته جلب الرحـ ـمة عند المسير والأرساء

ومن المشهور اتساع الفلسفة الرشدية في الغرب وتأثيرها العقلاني في الثقافة الغربية عامة ، هذا فضلا عن فرقة المعتزلة التي رفعت العقل الى شبه مرتبة الربوبية .

كذلك يعرف الدارسون كيف يعمد الفقهاء والفلاسفة وعلماء الكلام الى تقويض الثقة بالمحسوسات . فالظل نراه واقفاً وهو متحرك ، والكوكب نراه صغيراً في مقدار الدينار وهو بالأدلة الهندسية قد يكون أكبر من الأرض في المقدار ، وهلم جرا .

وقد ندد الاسلام بالتنجيم • جاء في أقوال الرسول الكريم « أن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته •» قال ذلك في يوم وفاة ابنه ابراهيم ، وظن الناس أن الشمس كسفت لذلك •وذاع بين المسلمين القدماء قول مأثور : « كذب المنجمون ولو صدقوا » ومعنى لو صدقوا أن أقوالهم قد تطابق ما يقع ولكن ليس ذلك بعلمهم وصدقهم وانما هي مصادفة عارضة. وتهكم أحد الشعراء بالمنجم فقال :

تدبر بالنجوم ولست تدري   ورب النجم يفعل ما يريد

ومن المتعارف أن الخليفة المعتصم لما أراد تحرير عمورية نصح له المنجمون أن يؤخر ذلك الى فصل الخريف ، الى زمن نضج التين والعنب على حد تعبير مادحه أبي تمام فلم يصغ اليهم • ان العقل والعزيمة وحسن التدبير هي الطالع الحقيقي للانسان وقدره والشاهد على قيمته •

ربما كان هذا الجو الروحي لا يكفي وحده لاستشفاف الأثر العربي الاسلامي ولا معه الأسلوب البياني المتأنق الذي طغى على الأدب الاسباني محتذياً مثال الأدب العربي • ولكن حوادث المسرحية الأساسية وحبكتها الفنية كما سنرى تثبت أيمّا اثبات ذلك الأثر •

كلديرون أصله من ريف قشتالة • يجعل هذا الأصل منه رجلاً حديث النعمة • وكان يحرص ألا يظهر كذلك • الا أنه يدافع عن طبقة الفلاحين ازاء الأمراء وطبقة الاقطاع • نجده في مسرحياته يعلّم النبلاء النبل والكهنوت صحة الايمان والشعب التواضع والطاعة لأولي الأمر •

أعجب الكتّاب الألمان ولا سيما غوتي وشيلر وشليغل بما في مسرحياته من مضامين انسانية • وهو معدود في مصاف شكسبير وكبار المسرحيين العالميين • وقد أفاد الرومنسيون من مسرحياته بالخروج من قواعد المسرح الاتباعي « الكلاسي » الضيقة •

وأدبه كما ألمعنا بذلك آنفاً ذو اسلوب يعتمد البريق والصناعة البلاغية ومراعاة ما بين الألفاظ من نسب وعلاقات وهو أسلوب يدعى بالباروك وكنا في كتابنا « دراسات فنية في الأدب العربي »اقترحنا ترجمته بأصله العربي وهو البرّاق •

ان عبقرية كلديرون تتجلى خاصة في مسرحيته « الحياة حلم » وهي تعد في أرفع المسرحيات العالمية حسناً ونبلاً وبلاغة ·

وهي توحي بأن السلطان والمجد والغنى والجمال والسعادة ليست سوى مظاهرة خادعة وأوهام باطلة وسراب زائل ، كما تعالج صراع ارادة الانسان مع طالع قدره الفلكي لتتغلب الارادة الطيبة على سوء هذا الطالع ، هذا مع الاحتفاظ بالايمان والقيم الأخلاقية على الرغم مما تتضمنه من نظرة تشاؤمية في حياة الانسان ·

لقد ترجمت هذه المسرحية الى أكثر لغات العالم ونقلها الى العربية المحامي اللامع نجاة قصاب حسن · وما زالت تمثل في الحين بعد الحين حتى الآن في مختلف البلدان · وها نحن أولاء نلخص هذه المسرحية الممتازة :

الحياة حلم

LA VIDA ES SUEÑO

موضوع هذه المسرحية أن ملكاً صالحاً اسمه باسيليو من ملوك بولندة كان مولعاً بعلوم الرياضيات والفلك وشديد الثقة بأحكام التنجيم · فلاح له في تنجيمه من طالعه الفلكي أن ولداً له يخلفه على العرش وهو رجل سَوْءٍ يكون على يده دمار المملكة · ولتحامي ذلك أمر بزج ولده هذا سخسمندو خفية بين جدران حصن في شعاف جبل منعزل وأعلن موته . وكانت أمه قد ماتت في مخاضها به وكانت النجوم قد ألمحت بذلك للأب في تنجيمه ، فزادت ثقة الأب بما تحكيه النجوم ·

وكان للملك شقيقتان عاشتا في روسية · أما أولاهما فولدت أميراً اسمه أستلفو وأما الأخرى فولدت حسناء اسمها إستريليا · فاستقدم الملك الأمير والفتاة عازماً أن يورثهما عرشه ·

في مستهل المسرحية نرى سخسمندو شقياً في عزلة قاسية مكبلا بالأغلال مرتدياً أسمال جلود نزّاعاً نحو التخلص والحرية · وفي تلك العزلة تمر به فتاة حسناء وهي روسورا قد تركها عشيقها أستلفو اذ مال الى ابنة أخت الملك استريليا طمعاً في العرش · فجاءت تلك الفتاة تبحث عن حبيبها الخائن لتنتقم منه ·
بيد أن الملك يتردد فينة في تصديق طالعه الفلكي ويخشى وهو الرجل الصالح

أن ينسب الى البغي والطغيان حين يحرم ولده ميراث العرش • فهو يرجو ان صدق الطالع أن يكذب ابنه هذا الطالع ويستبدل مصيراً فاضلا • لذلك يريد أن يجرب فيأمر أن يسقى الابن بنجاً وينقل الى القصر الملكي وينظر الى تصرفه في القصر • ويصحو المنوَّم من نومه فيجد نفسه بين الحظيات وموظفي القصر • وها هوذا يلتبس عليه الأمر ولا يكاد يصدق حواسه • ثم بالتدرج يرتد اليه شعوره ويعي ذاته ويرى أنه يعيش في اليقظة لا في المنام • ويخبره حارسه وهو نبيل في القصر ، مكلف حراسته في السجن أنه ابن الملك ووريث العرش • وكان قد طلب الملك الى من في القصر الانصياع لأوامر الفتى الملكية • ولكن الملك الجديد المنصَّب يشعر بالخزي فتحفزه نوازع جامحة نحو الطغيان والاجرام والاساءة حتى انه يرهب أباه • ثم يهدأ عنفه حين يرى روسورا الحسناء التي زارته في سجنه • وكأن جمالها يستدعى هذا الهدوء •

أما الملك فيزداد عندئذ بما يرى ثقة وتصديقاً بما قرأ وطالع في النجوم • لذلك يأمر فيسقى ابنه شراباً فيه بنج ويرده الى محبسه وعزلته • ويستيقظ الأمير فيجد نفسه مصفداً مكبلا ثانية بالحديد ويحسب أن ما كان به حلم غريب ولكنه مزعج. كان متيقناً مما رآه بعينيه وأحسه بيديه وما سمعه باذنيه ولكن كل ذلك قد زال وتلاشى • فكيف يستطيع أن يجزم أنه الآن صاح يقظان وأن ذلك لم يكن الا حلماً ؟ أم هو لا يزال يغط في النوم ويحسب نفسه في اليقظة ؟ ولم لا يعد حياته وواقعه الذي انتهى اليه حلماً أيضاً ؟ ان الحياة والحلم شيء واحد • هما الشيء نفسه في هذا العالم الموهوم • ان حلمه بكونه ملكاً لم يبق منه الا ذكرى• لم يبق منه الا شعوره بجمال روسورا • الحياة كلها تغدو بهذا الاعتبار رؤى محسوسة وأشباحاً ملموسة. واذا كانت الحياة نفسها التي نحياها ليست الا أشباحاً ورؤى وأوهاماً باطلة فهي نوع من الأحلام سوف نصحو منه ونستيقظ من نومنا الدنيوي فلا يبقى الا الذكرى الطيبة ، الا العمل الصالح الذي عملناه والخير الذي أنجزناه • حتى في الحلم لا يمكن أن يضيع المعروف • ويتأكد هذا الاعتقاد النبيل في فكر سخسمندو فلا يتأفف بعد ذلك من شيء ولا يغضب حين يسمع أن أباه يسمي ابن أخته أستلفو وابنة أخته الثانية إستريليا وريثي عرشه ••

ولكن الشعب حين يعلم بوجود ابن الملك يثور رغبة منه عن وريثي العرش

الأجنبيين • انه ينادي بسخسمندو ملكاً شرعياً على بولندة • ولما بلغ النداء السجين تردد في قبوله خشية أن يكون وهماً وضلالا • ولكنه يتثبت من النداء فيرأس الثائرين ويصادف بينهم روسورا التي تطلب الى الأمير أن يثأر لها من خطيبها السابق الذي خانها • لقد تذكر حديثها معه آنفاً ، وتذكر ما أوردته من شؤون في حديثها اذ ذاك • فأيقن عندئذ أن ما رآه سابقاً لم يكن حلماً • ولكن الوهم والالتباس ما زالا يرينان على بصيرته ويغشيان بصره • هل المجد الذي يصل اليه المرء والسلطان الذي يتبوؤه في حياته الا سراب زائل وخداع حائل • واذا كان الأمر كذلك فليستمتع المرء متى تيسرا له في حينهما ولا يأس على زوالهما وانقشاعهما مادامت الدنيا متاعاً لا يبقى وحلماً سرعان ما ينقضي • روسورا معي وهي جميلة • وأنا أشتاق جمالها • ولكن الحقيقة أولى وأهم وهي ابتهاج النفس بنور العقل ومكارم الأخلاق •

ويستطيع الشاب المتحرر مع ثواره أن يتغلب على جيش أبيه الملك • وبعد الانتصار يجثو الملك أمام ابنه ويطلب منه المغفرة • وهكذا يتحقق طالع النجوم • ولكن هذا التحقق تم بكون الملك قد عاش أسير هذا الطالع مذعناً له دون أن يتحلى بعاطفة الأبوة وواجبها ويقوم بهذا الواجب • أما الابن الظافر فقد تخلق بخلق جديد فهو يمسك بيد والده ويطلب اليه أن ينهض ويخاطبه : ان طالع النجوم الذي لم تستطع أن تتغلب عليه هو الذي أدى بك الى الخيبة • هيا اثأر لنفسك مني • فأنا أهب لك حياتي ، وأستسلم لغضبك وأذعن لمشيئتك •

أما الأب فقد اهتز قلبه بهذا الموقف النبيل فعانق ابنه بحنان وأعلنه ملكاً شرعياً • ولما تمكن سخسمندو من الملك وأدرك ما أحرزه من نصر شعر بضرورة نصر آخر ، بضرورة نصره على نفسه فأقام ميزان العدل وسار سيرة حميدة وأمر أستلفو بالرجوع الى روسورا وفاء بعهده لها وانقاذاً لشرفها وهي ليست أقل نبلا منه إذ ظهر عندئذ أنها ابنة كلوتلدو نبيل القصر ووزير الملك • ويتجه الى ابنة عمته استريليا ليطلب يدها للزواج ويأمر فيحبس رئيس العصاة الثائرين • ويعجب الملك الوالد لهذا التصرف الحكيم • ولكن الابن يجيب أباه بأن الحكمة تعلمها من حلم ويقظة مريرين • بل هو لا يزال يخشى أن يفيق فيجد نفسه في سجنه الضيق ، يخشى حتى الساعة أن يكون في حلم • انه تعلم أن السعادة زائلة كالحلم وحسن أن يستمتع المرء بها ولو كانت وهمية

حكايــة النائم اليقظــان

قالت : بلغني يا ملك الزمان أنه كان رجل تاجر في خلافة هارون الرشيد • وكان له ولـد اسمه أبو الفرج الخليع • فمات والده وخلّف له مـالا عظيمـاً • فقسم ماله شطرين فادّخر النصف وتصرف في النصف الآخـر • وصـار يعاشـر الأغنياء وأولاد التجار ويقبل على الأكل والشـرب حتى فني مالـه وفقـد جميع ما معه • فعندها توجه الى أصحابـه وعشرائـه وندمائـه وعرض لهم أمـره وأظهر لهم قلة ما بيده من المال • فلـم يلتفت اليه أحد منهم • فعـاد الى أمـه وقد انكسر خاطره وحكى لها ما جرى له وما قابله به أصحابه من الاساءة وقلـة المعروف • فقالت له أمه : يا أبا الفـرج أولاد هذا الزمان كذا • ان كان معـك شيء قربوك • وان لم يكن معك شيء أبعدوك • فتوجعت لـه • وجعل يتأوّه وجرت دموعه وأنشد يقول :

ان قلّ مالي فلا خلّ يصاحبنـي … او زاد مالي فكل النـاس خلاّني
كم من صديق لأجل المال صاحبني … وآخر عنـد فقد المـال خلاّني(١)

(الليلة الثالثة والخمسون بعد المائة) • ثم انه وثب الى المكان الذي ادّخـر فيه شطر المال الباقي وعاش فيه عيشـاً طيباً وحلف أنه لا يعاشر أحداً بعد ذلـك من الذين يعرفهم ولا يعاشر الا الأجنبي ولا يعاشره الا ليلة واحدة فاذا أصبـح فلا يعود يعرفه بعدها • وصار كل ليلـة يجلس على الجسر وينظر كل من يجوز به • فاذا رآه غريباً توجه هو واياه الى منزله فينادمه تلك الليلة الى الصباح ثم يصرفه ولا يرجع يسلم عليه و لايقربـه ولا يدعوه • فصار يفعل هذا مدة سنـة كاملة • (قال) فبينما هو يوماً جالس على الجسر كعادته ينتظر من يقدم عليه حتى يأخذه وينام عنده واذا بالخليفة ومسرور سيّاف نقمته متخفيان كعادتهما. فنظرهما أبو الفرج • وقام واقفاً وهو لا يعرفهما وقال لهما : هل لكما أن تذهبا معي الى موضعي فتأكلا ما حضر وتشربا ما تيسر وهو خبز مشبّق ولحـم معرّق ونبيذ مروّق • فامتنع الخليفة من ذلك • فأقسم عليه وقال له: بالله عليك يا سيدي امش معي فأنت ضيفي الليلة ولا تخيب فيـك أملي • وما زال يلح عليـه حتى أجابـه الى سؤله • ففـرح أبو الفـرج ومشى قدامه وما فتيء يحادثـه حتى أتى

وهو معه الى قاعته فدخل وأقعد غلامه على الباب • فلما جلس الخليفة أتاه أبو الفرج بشيء من الأكل فأكل وأبو الفرج يأكل معه حتى يطيب له الأكل • ثم أنه رفع السفرة وغسلا أيديهما وجلس الخليفة • فقدم أبو الفرج آنية الشراب وجلس الى جانبه وصار يملأ لضيفه ويسقيه ويحادثه • فأعجب الخليفة كرمه وحسن فعاله فقال له : يا فتى من أنت عرفني بنفسك حتى أكافئك على احسانك • فتبسم أبو الفرج وقال له : يا سيدي هيهات أن يرجع ما فات • ولن أحضر معك وقتاً غير هذا من الأوقات • فقال الخليفة : ولمَ ذلك ولما لا تعلمني بحالك • فقال أبو الفرج : اعلم يا سيدي أن حكايتي عجيبة وأن هذا الأمر له سبب • فقال الخليفة : وما هو السبب • فقال له أبو الفرج : للسبب ذنَب • فضحك الخليفة من قوله •

(الليلة الرابعة والخمسون بعد المائة) • فقال أبو الفرج : اني أبيّن لك ذلك بحكاية الحرفوش والطباخ • اعلم يا سيدي أن بعض الحرافيش أصبح يوماً من بعض الأيام لا يملك شيئاً وضاقت عليه الدنيا وعيل صبره ونام • فلم يزل نائماً حتى أحرقته الشمس وطلعت الرغوة على فمه • فقام وهو مفلس ليس معه ولا درهم واحد • فاجتاز على دكان طباخ وقد نصب ذلك الطباخ فيها قدوراً وقد راقت أدهانها وفاحت أبازيرها والطباخ واقف وراء تلك القدور وقد مسح ميزانه وغسل زباديه وكنس الدكان ورشها • فجاء اليه الحرفوش وسلم عليه ودخل الدكان وقال للطباخ : زن لي بنصف درهم لحماً وربع درهم طعاماً وربع درهم خبزاً • فوزن له الطباخ • ودخل الحرفوش فحطّ الطباخ قدامه الطعام فأكل حتى أتى على الجميع ولحس الزبدية وبقي حائراً لا يدري ما يفعل مع الطباخ في ثمن ما أكله • وصار يدور بعينيه على كل شيء في الدكان وهو يتلفت • واذا هو بمجاور مكبوب على فمه فرفعه عن الأرض فوجد تحته ذنَب فرس طريّاً ودمه ينتشر منه • فعلم أن الطباخ يخلط اللحم بلحم الخيل • فلما اطّلع على هذه الزلّة فرح بها وغسل يديه وطأطأ برأسه ثم خرج • فلما رآه الطباخ أنه ولّى من غير أن يدفع له ثمن طعامه صاح : قف يا صدام يا هجام • فوقف الحرفوش والتفت اليه وقال له : أنت تصيح عليّ وتنادي بهذا الكلام يا شيطان • فاغتاظ الطباخ ونزل من الدكان وقال : ما هو بقولك يا أكال اللحم

والطعام • والخبز والادام • كيف تخرج بسلام • كأن الشيء ما كان • ولا تدفع عليه من أثمان • فقال له الحرفوش : تكذب يا بن اللئام • فصاح الطباخ وتعلق بأطواق الحرفوش وقال : يا مسلمون هذا استفتاحي في هذا النهار • أم كيف يأكل هذا طعامي ولا يعطيني شيئاً • فاجتمعت الناس عليهما ولاموا الحرفوش وقالوا له : أعطه ثمن ما أكلته • فقال أعطيته درهماً من قبل ما أدخل الدكان • فقال الطباخ : ان كنت أعطيتني بارة جعل الله كل شيء أبيعه في هذا النهار عليَّ حراماً • والله انه ما أعطاني شيئاً بل انه أكل طعامي وخرج وراح ولم يعطني شيئاً • فقال الحرفوش : بل أعطيتك درهماً • وشتم الطباخ • فرد عليه الطباخ • فلكمه الحرفوش • فتماسكا وتقابضا وتخاصما • فلما رآهما الناس أقبلوا عليهما وقالوا لهما : ما هذا الضرب الذي أنتما فيه وما سببه • فقال الحرفوش : أي والله له سبب والسبب ذنب •••• فقال الطباخ : أي والله أعطاني درهماً • ارجع وخذ بقية درهمك • وفهم الطباخ السبب عند ذكر الذنب • وأنا يا أخي حكايتي لها سبب كما قلت لك • فضحك الخليفة عليه وقال : والله ما هذه الا حكاية لطيفة • فاحك أنت حكايتك واذكر السبب • فقال : حباً وكرامة •

(الليلة الخامسة والخمسون بعد المائة) • اعلم يا ضيفي أن اسمي أبو الفرج الخارج(٣) • وقد مات والدي وخلف لي مالاً جزيلاً فقسمته شطرين وجزأته نصفين فادخرت النصف الواحد وأقبلت بالنصف الثاني على الأصحاب • ومعاشرة الندماء والأحباب وأولاد التجار • وماخليت أحداً الا نادمته ونادمني وأنفقت جميع مالي على الأصحاب والعشرة • وماتبقى معي من ذلك المال شيء • فتوجهت الى الأصحاب والندماء الذين أفنيت مالي عليهم لعلهم يرقون لحالي • وذهبت الى جميعهم فما وجدت في أحد منهم نفعاً ولاكسر في وجهي رغيفاً • فبكيت على نفسي وأقبلت على أمي وشكوت لها حالي • فقالت لي : العشراء هكذا ان كان معك شيء قدموك وأكلوك • وان لم يكن معك شيء أبعدوك وطردوك • فعند ذلك أخرجت نصف مالي وآليت على نفسي اني ما بقيت أنادم أحداً غير ليلة واحدة ثم أنقطع عنه فلا أعود أسلم عليه ولا ألتفت اليه • وهذا ما أردت بقولي لك : هيهات أن يرجع ما فات لأني ما بقيت أجتمع بك غير هذه الليلة • فلما سمع الخليفة ذلك ضحك ضحكاً شديداً وقال : والله يا أخي انك معذور في هذا الأمر •

أما أنا فان شاء الله لا أنقطع عنك • فقال له أبو الفرج : أما قلت لـك يا نديمي هيهات أن يرجع ما فات فاني ما عدت أطيل صحبة الاخوان ولا أنـادم أحداً الا ليلة واحدة •

(الليلة السادسة والخمسون بعد المائة) • ثم وُضعت المائدة للخليفة وقدموا عليها صحن إوز محشي وكفة كماجـة وجلس أبو الفرج وقطـع ولقم الخليفـة وما زالا يأكلان حتى اكتفيا • ثم قـدم الطست والابريـق والاشنـان فغسـلا أيديهما • وبعد ذلك أوقد له ثلاث شمعات وثلاثة قناديل وفُرِشت سفرة المدام • وأُحضِر نبيـذ مصفى مـروّق معتق مطيب رائحته كالمسك الأذفر وملأ الكأس الأول وقال : يا نديمي قد رفع الاحتشام من بيننا بدستورك عبدك عندك لا بليت بفقدك • وشربه وملأ الكأس الثاني وناوله لضيفه • فأعجب الخليفة فعاله وحسن أقواله وقال في نفسه : والله لأكافئنَّـه على ذلك • ثم ان أبا الفرج ملأ القـدح وناوله للخليفة وقبله وأنشأ يقـول هذه الأبيات :

لـو علمنـا قدومكم لبذلنـا مهجة القلب أو سـواد العيون(٤)
وفرشنـا صـدورنـا للقاكـم وجعلنـا المسير فـوق الجفـون

فلما سمع الخليفة شعره قبل الكأس من يده وشربه وناوله اياه • فأخذه أبو الفرج وملأ وشرب ثم ملأ وناول الخليفة وأنشد يقول هذه الأبيات :

حضوركـم لنـا شـرفُ ونحـن بـذاك نعتـرفُ
فـان غبتـم فـلا عـوضُ لنـا عنكـم ولا خلـفُ

ولم يزالا يشربـان ويتنادمان الى نصف الليل • فقال له الخليفة : يا أخي هل في خاطرك شهوة تريد أن تقضيها أوحسرة تريد أن تمضيها • فقال : والله ما في قلبي حسـرة الا أني أتولى الأمـر والنهي حتى أعمل ما في خاطري • فقال له الخليفة : يا الله يا الله يا أخي قل لي ما في خاطرك • قال : كنت أشتهي من الله أن أنتقم من جيراني • فان بجواري محلاً فيه أربعة شيوخ • فـاذا جاءني ضيـف يتثاقلون عليَّ ويغلظون الكلام ويهددونني بأنهم يشكونني لأمير المؤمنـين وقـد جاروا عليَّ كثـيراً فاني أتمنى على الله تعالى حُكْمَ يوم واحد حتى أضرب كـل واحد منهم أربعمائة سوط وذلـك أمام محلهم وأبعث مناديـاً في مدينـة بغـداد

ينادي عليهم : هذا جزاء وأقل جزاء لمن يبغض الناس ويكدر عليهم مسراتهم • وهذا الذي أريده لا غير • فقال له الخليفة : يعطيك الله ما تطلب • هيا بنا نشرب ودعنا نقوم قرب الصباح وفي الليلة القادمة أتعشى عندك • فقال أبو الفرج : هيهات • ثم ان الخليفة ملأ قدحاً وجعل فيه قطعة بنج أقريطشي (٥) وناوله لأبي الفرج وقال له : بحياتي عليك يا أخي اشرب هذا القدح من يدي • فقال أبو الفرج : اي وحياتك أشربه من يدك • فلما أخذه وشربه وقع على الأرض مثل القتيل • فخرج الخليفة وقال لغلامه مسرور : ادخل الى هذا الصبي صاحب المنزل واحمله • واذا خرجت أغلق الباب وائتني به الى القصر • ثم مضى ودخل مسرور وحمل أبا الفرج وأغلق الباب وتبع مولاه • ولم يزل ما شيأ حتى أتى به الى القصر وقد تهور الليل وصاحت الديوك ودخل القصر وأبو الفرج على أكتافه • فوضعه بين يدي أمير المؤمنين وهو يضحك عليه • ثم أرسل فدعا جعفراً البرمكي • فلما حضر بين يديه قال له : اعرف هذا الشاب واذا رأيته غداً جالساً في منصبي وعلى سرير خلافتي متوشحاً بحلتي فقف في خدمته وأوص الأمراء والكبراء وأهل دولتي وخواص مملكتي أن يقفوا في خدمته ويمتثلوا ما يأمرهم به • أما أنت فاذا أوصاك بشيء فافعله واسمع منه ولا تخالفه ذلك اليوم الطالع • فامتثل جعفر الأمر بالسمع والطاعة وانصرف • ودخل الخليفة الى جواري القصر فأقبلن اليه • فقال لهن : هذا النائم اذا استيقظ غداً من منامه فقبّلن الأرض بين يديه واخدمنه ودرن حواليه وألبسنه حلة الملك واخدمنه خدمة الخلافة ولا تنكرن من حاله شيئاً وقلن له : أنت الخليفة • ثم أوصاهن بما يقلن له وما يفعلن معه • ودخل في مكان محجوب عنه وأرخى عليه ستراً ونام •

هذا ما كان من أمر الخليفة • وأما ما كان من أمر أبي الفرج فانه ما زال يغط في نومه الى أن طلع الصباح وقرب اشراق الشمس • فأتت اليه خادمة فقالت له : يا مولانا صلاة الصبح • فلما سمع كلام الخادمة ضحك وفتح عينيه ودار بعينيه في القصر فنظر الى قصر قد دهنت حيطانه بالذهب واللازورد وسقفه منقط بذهب أحمر ودائره بيوت مسدول على أبوابها ستائر حرير مزركش بالذهب وأواني ذهب وصيني وبلور وفرش وبسط ممدودة . وجوار وخدم . ومماليك وحشم • وغلمان ووصائف وولدان • فتحير أبو الفرج في عقله وقال والله هل

أنا في اليقظة أو أنا في المنام • أو هـذه الجنة ودار السلام • فغمض عينيه ونام• فقال الخادم : يا سيدي ما هذه عادتـك يا أمير المؤمنين • ثـم ان بقية جـواري القصر جميعاً أتينَ اليه وأقعدنـه على حيله فوجد روحه على فراش علوه مـن الأرض قدر ذراع • وكله محشوٌ بالقز • فأجلسنه عليه وأسندنه بمخدة • فنظـر الى القصر والى كبره ورأى الخدم والجواري في خدمته وفوق رأسه • فضحك على نفسه وقال : والله ما كأني في اليقظة وما أنا نائم • ثم انه قام وقعـد والجواري يضحكنَ عليه ويستترن منه • فتحير في عقله وعضَّ على اصبعه فتألم فصـرخ وتأوه • والخليفة ينظر اليه من حيث لا يراه ويضحك • فالتفت أبو الفرج الى جارية وصاح اليها فأتته • فقال لهـا : بستر الله يا جاريـة أنا أمير المؤمنـين ؟ فقالت : أي نعم وستر الله أنت في هذا الوقت أمير المؤمنين • فقال : تكذبـين : ثم نظر الى الخادم الكبير فناداه • فأتاه وقبل الأرض بين يديه وقال : نعم يا أمير المؤمنين • فقال : ومن هو أمير المؤمنين؟ فقال : أنت • قال : كذبت •

(الليلة السابعة والخمسون بعد المائة) • ثم أقبل على طواشي آخر فقال له : يا كبيري بستر الله أنا أمير المؤمنين ؟ فقـال : اي والله يا سيدي أنت في هـذا الوقت أمير المؤمنين وسلطـان العالمين • فضحك أبو الفـرج على نفسه وخُولط في عقله وتحير مما رأى وقال : البارحة كنت أبا الفرج فكيف صرت اليـوم أمير المؤمنين • فتقدم اليه الخادم الكبير وقال: يا أمير المؤمنين بسم الله حواليـك أنت أمير المؤمنين وسلطان السلاطـين • ثـم دار من حوله الجـواري والخـدم وهـو يتعجب مما جرى له فقدم له المملوك شمشكاً (٦) مطبوعاً بالابريسم والحرير الأخضر مرصعاً بالذهب الأحمر • فأخـذه أبو الفرج ووضعه في كمه • فصاح المملـوك وقال : يا الله يا الله يا سيدي هذا شمشك مداس لرجليك حتى تدخل بيت الخلاء • فخجـل أبو الفرج ورماه من كمه ولبسه في رجله • والخليفة قد مات من الضحك عليه • ومشى المملوك قدامه الى بيـت الراحة فدخـل أبو الفرج وقضى حاجته وخرج الى القصر • فقدمت له الجواري طستاً من الذهب وابريقـاً مـن الفضة وصببن على يديه الماء وتوضأ • وبسطن له سجادة ليصلي فصـار يركع ويسجـد عشرين ركعة وهـو يحسب ويقـول في نفسه : والله ما أنا الاّ أمير المؤمنـين من حق والاّ فما هذا منام والمنام ما يجري فيه هذا المجرى جميعه • ثم انه حقـق

وجزم في نفسه أنه أمير المؤمنين فسلم وفرغ من صلاته · فدارت به المماليك والجواري بالبقج الحرير والقماش · ثم ألبسوه خلعة الخلافة وأعطوه في يده النمشة(٧) وخرج الخادم الكبير قدامه والمماليك الصغار وراءه · ثم رفعوا الستارة وجلس في القصر ومجلس الحكم وسرير الخلافة ورأى الستائر والأربعين باباً والعجلي والرقاشي وعبادان وجديماً وأبا اسحق النديم · ونظر الى سيوف محدبة · وليوث محدقة · وصماصم(٨) مذهبة · وقسي موترة · وعجم وعرب · وترك وديلم · وأمراء ووزراء · وأجنادوكبراء · وأرباب الدولة · وأصحاب الصولة · وقد ظهرت له الدولة العباسية · والهيبة النبوية · فجلس على كرسي الخلافة ووضع النمشة في حجره · وأقبل الجميع يقبلون الأرض بين يديه يدعون له بطول العمر والبقاء · وتقدم جعفر البرمكي وقبل الأرض وقال : جعل الله الجنة مأواك والنار مثوى لأعداك · ولا عاداك جار · ولا خمدت لك أنوار نار · يا خليفة الأمصار · وحاكم الأقطار · فزعق عليه أبو الفرج وقال له : يا كلب بني برمك · انزل الساعة أنت ووالي المدينة الى المحل الفلاني الى الدرب الفلاني وادفع مائة دينار الى والدة أبي الفرج الخليع وأقرئها مني السلام وأمسك الأربعة المشايخ واضرب كل واحد منهم أربعمائة سوط وأركبهم على الدواب ودُر بهم المدينة جميعها وأبعدهم الى محلة غير هذه المدينة وأمر المنادي ينادي عليهم : هذا جزاء وأقل جزاء من يكثر كلامه ويشوش جيرانه وينغص عليهم لذتهم وأكلهم وشربهم ·

(الليلة الثامنة والخمسون بعد المائة) · فقبَّل جعفر الأرض بين يديه وامتثل الأمر بالطاعة · ثم انه نزل من قدام أبي الفرج الخليع الى المدينة وفعل ما أمره به · ثم ان أبا الفرج أقام في الخلافة يأخذ ويعطي ويأمر وينهي وينفذ كلامه الى آخر النهار · ثم أذن بالانصراف فانصرفت الأمراء وأرباب الدولة لاشغالهم وأتته الخدم ودعوا له بالبقاء وطول الدوام ومشوا في خدمته ورفعوا الستر ودخل الى القصر فوجد شموعاً تتوقد وقناديل تشتعل ومغنيات تضرب · فحار في عقله وقال : وأنا والله أمير المؤمنين حقاً · فلما أقبل قامت الجواري اليه وأطلعنه على الايوان وقدمن اليه مائدة عظيمة من أفخر الطعام · فأكل منها جهده وطاقته حتى اكتفى · وزعق على جارية وقال لها : ما اسمك · فقالت : اسمي

مسكة : وقال لأخرى : ما اسمك · فقالت : طرفة · وقال لأخرى : ما اسمك · قالت : اسمي تحفة · وصار يسأل عن أسامي الجواري واحدة بعد واحدة · وقام من ذلك المقام وانتقل الى مجلس الشراب فوجده كامل النظام ووجد عشرة أطباق كبار وعليها من جميع الفواكه والخيرات ومن جميع أصناف الحلاوات · فجلس وأكل منها على حسب الكفاية · ثم وجد ثلاثة آجواق من الجواري المغنيات · ثم انه جلس وجلست الجواري ووقفت الوصيفات والمماليك والخدم والغلمان والولدان · ثم غنت الجواري وصوتن بسائر الألحان · فأجابهن ذلك المكان بطيب الألحان · وزعقت المواصيل(٩) وخرجت بتلك العيدان · فتخيل في ذلك الوقت أبو الفرج أنه في الجنان وطاب قلبه وانشرح · ولعب وزاد به الفرح · وخلع على تلك الجواري ووهب · هذا كله والخليفة يتفرج عليه ويضحك · فلما انتصف الليل أمر الخليفة جارية من تلك الجواري آن ترمي قطعة بنج في القدح وتسقيه لأبي الفرج · ففعلت الجارية ما أمرها الخليفة وناولت القدح لأبي الفرج · فلما شربه سبق رأسه رجليه · فخرج الخليفة من خلف الستارة وهو يضحك · ثم صاح على الغلام الذي جاء به وقال له : ارجع هذا مكانه · فحمله الغلام الى قاعته ووضعه فيها وخرج من عنده وقفل عليه باب القاعة ورجع الغلام الى الخليفة · ونام الخليفة الى الصباح ·

(الليلة التاسعة والخمسون بعد المائة) · أما أبو الفرج فانه ما زال نائماً الى أن أصبح الله تعالى بالصباح. فاستفاق وهو يصيح: يا تفاحة يا راحة القلوب. يا مسكة يا تحفة · ولم يزل يصيح على الجواري حتى سمعته أمه يصيح على الجواري فقامت وأتت اليه وقالت له : اسم الله حواليك قم يا ولدي يا أبا الفرج أنت تحلم · ففتح عينيه فوجد عند رأسه عجوزاً فنهض وقال لها : من تكونين ؟ فقالت له: أنا أمك · فقال لها : تكذبين يا عجوز النحس أنا أمير المؤمنين · فصرخت أمه وقالت له : سلامة عقلك يا ولدي اسكت لئلا تروح أرواحنا وينهب مالك ان سمع أحد هذا الكلام وأوصله الى الخليفة · فقام من نومه ورأى أمه وهو في قاعته · فخولط في عقله وقال : والله يا أمي أنا في منامي رأيت نفسي في قصر والجواري والمماليك حولي وفي خدمتي وجلست على سرير الخلافة · والله يا أمي هذا الذي رأيته · وحقاً ما كان في المنام · ثم تفكر في نفسه ساعة من

الزمان وقال : صحيح أنــا أبو الفرج الخليع والذي رأيته انما هو في منام واني صرت خليفة وحكمت وأمرت ونهيت • ثم انه افتكر وقال : مؤكد ما هو منام وما أنا الا الخليفة وقد أعطيت وخلعت • فقالت له أمه : يا ولدي إياك أن تفسد عقلك فيأخذوك الى المارستان وتبقى شهرة • فان الذي رأيتــه انما هو من الشيطان وهو أضغــاث أحــلام • وان الشيطــان يلعب بعقــل الانسان أحيانــاً بسائر الحالات •

ثم ان أمه قالت له : يا ولدي هل كان عندك ليلة أمس أحد • فافتكــر أبو الفرج وقال : نعم كان عندي واحد نائم وأخبرتــه بحالي وحكيت لــه قصتي • ولا شك أنه كان من الشياطين • وأنا ياأمي كما صدقت أنا أبو الفرج الخليع • فقالت له أمه : يا ولدي أبشر بكل خــيرفان أمس جــاء الوزير جعفــر البرمكي وضرب المشايخ الذين في جوارنا كل واحد خمسمائة سوط وقد أخرجوهم مــن المدينة ونادوا عليهم : هذا جزاء وأقل جزاء من يريد أذيــة جيرانه وينكد عليهم معيشتهم • وأرسل إلي مائة دينار وأرســل يسلم علي • فصــاح أبو الفــرج الخليع وقال لهــا : يا عجوز النحس تكابرينني وتقولــين لي إنــي لست أمــير المؤمنين • أنا الذي أمرت جعفراً البرمكي بضرب المشايــخ وبعقابهم وأن ينــادى عليهم • وأنا الذي أرسلت اليك المائــة ديناراً وأرسلت أسلم عليك • وأنا أمير المؤمنين من حق يا عجوز النحس • وأنت كذابة قد خرفتني • ثم قــام الى أمــه وضربها بعصاً من اللوز حتى صرخت : يا مسلمين • وهو يثقل عليهــا الضــرب حتى سمعت الناس صراخها فأتوها وأبو الفرج يضربهــا ويقول لهــا : يا عجــوز النحس ما أنا أمير المؤمنين أنت سحرتني •

(الليلة الستون بعد المائة) • فلماسمع الناس كلامه قالوا : هذا مجنون ولم يشكوا في جنونه • ثم انهم دخلوا عليــه ومسكوه وكتفوه وأخذوه الى المارستان • فقال العرفشي(١٠) : ما يكون هذا الشاب ؟ فقالوا له : هذا مجنون • فقال أبو الفرج : والله يكذبون علي وما أنا مجنون انما أنا أمير المؤمنين • فقال العرفشي : ما كذب إلا أنت يا أنحس المجانين • ثم عراه من ثيابه وعمل في رقبتــه زنجيراً ثقيلا وربطه في شباك عال وصار يضربه الضرب المبرح في النهار وفي الليل • ولم يزل على هذا الحال مدة عشرة أيام • فأتت اليه أمه وقالت له : ياولدي يا أبا

الفرج ارجع الى عقلك : هذا فعل الشيطان • فقال أبو الفرج لأمه • صدقت يا أمي واشهدي عليّ إني تائب عن هذا الكلام ورجعت عن جنوني فخلصيني فاني قد أشرفت على الهلاك •فخرجت أمه الى العرفشي وخلصته وآتى الى قاعته •

(الليلة الحادية والستون بعد المائة) • فلما كان تمام الشهر اشتاق أبو الحسن الخليع الى شرب المدام وعادالى عادته في فرش قاعته وهيأ الطعام وأحضر المدام وخرج الى الجسر وجلس ينتظر أحداً ينادمه على جاري عادته • واذا بالخليفة جاز عليه • فلم يسلم عليه أبو الفرج وقال : لا أهلاً ولا سهلاً بالوافدين • ما أنتم الا شياطين • فأقبل عليه الخليفة وقال له : يا أخي أما قلت لك اني أعود اليك !؟ فقال أبو الفرج :ليس لي بك حاجة فان المثل يقول : بعدي عن حبي أجمل لي وأحسن • عين لا تنظر، قلب لا يحزن • وأنا يا أخي ليلة جئتني وتنادمت أنا واياك فكأني جاءني الشيطان ووسوسني تلك الليلة • فقال الخليفة : ومن هو الشيطان • فقال له أبو الفرج :أنت • فتبسم الخليفة وجلس عنده وتلطف معه بالكلام وقال له : يا أخي أنا لما خرجت من عندك نسيت الباب مفتوحاً فلعل الشيطان دخل عليك • فقال أبو الفرج : لا تسأل عما جرى لي • فما الذي خطر لك حتى خليت الباب مفتوحاً ودخل عليّ الشيطان وجرى لي معه كذا وكذا • وذكر أبو الفرج الخليع للخليفة جميع ما جرى له من الأول الى الآخر • وليس في الاعادة افادة • فصار الخليفة يضحك ويخفي ضحكه •

ثم ان الخليفة قال لأبي الفرج :الحمد لله الذي أزال عنك ما تكره ورأيتك بخير • فقال له أبو الفرج ما بقيت أتخذك نديمي ولا جليسي فان المثل يقول : من عثر في حجر وعاد اليه كان اللوم والعتب عليه • وأنت يا أخي ما بقيت أنادمك ولا أعمل معك مصاحبة فاني ما رأيت لك كعباً مباركاً عليّ • فقال الخليفة وقد لاطفه وأثنى عليه :اني ضيفك ولا ترد الضيف • فأخذه أبو الفرج ودخل به القاعة وقدم له الطعام وآنسه بالكلام • ثم انه حكى للخليفة جميع ما جرى له • فأخذ الخليفة يغرب في الضحك • ثم رفع سفرة الطعام وقدم سفرة المدام وملأ قدحاً واحتساه ثلاثاً ثم ملأه وأعطاه للخليفة وقال : يا نديمي عبدك عندك ولا يصعب عليك فلا تُغْبَنْ ولا تَغْبنّي وأنشد يقول :

لا زلت أشربها والليل معتكر حتى أكب الكري رأسي على قدحي
سلافة كشعاع الشمس بهجتها تنفي الهموم بأنواع من الفرح

فلما سمع الخليفة شعره وما قاله من الأبيات طرب من ذلك طرباً شديداً وأخذ القدح وشربه وما زالا يشربان ويتنادمان حتى دارت الخمرة في رؤوسهما • فقال أبو الفرج للخليفة : يا نديمي حقاً أنا حائر في أمري وكأني كنت أمير المؤمنين وحكمت وأعطيت ووهبت • صحيح يا أخي ما هو منام ؟ فقال له الخليفة : هذا أضغاث أحلام • ثم ان الخليفة دس قطعة من البنج في القدح وقال : بحياتي تشرب هذا القدح • فقال له أبو الفرج : اني أشربه من يدك •

(الليلة الثانية والستون بعد المائة). فأعجب الخليفة أفعاله وصفاته وحسن طباعه وصدقه وقال في نفسه : حقاً لأجعلن هذا نديمي وجليسي • ثم ان أبا الفرج أخذ القدح من يد الخليفة وشربه • ولما شربه واستقر في بطنه سبق رأسه رجليه • فقام الخليفة من وقته وقال للغلام : احمله وائت به الى قصر الخلافة • فحمله الغلام وجعله بين يدي الخليفة • فأمر الخليفة الجواري والمماليك أن يدوروا حواليه • وقد اختفى الخليفة في مكان لا يراه فيه أبو الفرج • فأمر الخليفة جارية من الجواري أن تأخذ العود وتضرب عند رأس أبي الفرج وتفعل كذلك سائر الجواري بالاتهن • فضرب الجميع • فاستفاق أبو الفرج آخر الليل فسمع صوت العود وضرب المواصيل وغناء الجواري • ففتح عينيه فوجد نفسه في القصر والجواري والخدم حوله • فقال أبو الفرج : لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم • حقاً أنا خائف من المارستان وما قاسيت فيه أول مرة • وما أدراك أن الشيطان جاءني مثل أول مرة • اللهم اخز الشيطان • ثم ان أبا الفرج غمض عينيه وغطى رأسه وصار يضحك قليلا • ويرفع رأسه فيجد القصر موقداً والجواري تغني. ثم ان خادماً من الخدام قعد عند رأسه وقال له : اجلس يا أمير المؤمنين وانظر الى قصرك وجواريك • فقال أبو الفرج : بستر الله أنا أمير المؤمنين بالحق أو أنتم تكذبون • فاني البارحة ما خرجت ولا حكمت بل شربت ونمت وهذا الخادم جاء يقيمني • فعند ذلك قام أبو الفرج وجلس • ثم انه افتكر في جميع ما جرى له مع أمه وكيف ضربها وكيف دخل الى المارستان ورأى آثار الضرب الذي ضربه إياه العرفشي صاحب المارستان فتحير في

أمـره وتفكر في نفسـه وقـال : والله ما أعرف كيف حالي وما الذي جرى لي ومن أتى بي الى هذا المكان ·

(الليلة الثالثة والستون بعد المائة) · ثم انه التفت الى جارية من الجواري وقال لها : من هو أنا ؟ فقالت : أمير المؤمنين · فقال لها : تكذبين يا نكبة · فان كنت أمير المؤمنين عضي اصبعي · فجاءت اليه الجارية وعضت اصبعه عضاً قوياً · فقال لها : يكفي ثم انه قال للخادم الكبير · من أنا ؟ قال : أنت أمـير المؤمنـين · فتركه أبو الفرج وقد خولط في عقلـه وحار في أمره · ثم أقبـل على مملـوك صغير وقال له : عضني في أذني · وطأطأ له وحط أذنـه في فم المملوك · وكـان المملوك صغيراً لايعقل فطبق بأسنانه على أذن أبي الفرج حتى كان يقطعها· وكان المملوك لا يعرف العربية فبقي كلما يقول له يكفي يعتقد المملوك أنه يقول له : قرّط فيقوي عضته ويكزّ بأسنانه على أذنه · فأما الخليفة فانه أغمي عليه من كثرة الضحك · ثم أفاق الخليفة وخرج وقال له : ويلك يا أبا الفرج قتلتني من الضحك · فالتفت اليه فعرفه فقال : والله أنت قتلتني وقتلت أمي وقتلت المشايخ الذين في جوارنا · فقرّبه الخليفة وأنعم عليه وزوجه وأمسكه عنـده في القصـر وجعله من خواص ندمائه وقدمه الخليفة على العشرة الندماء وهم: العجلي والرقاشي وعبدان وحسن والفـرزدق واللـوز والسكر وعمر الترتيس وأبو نواس وأبو اسحق النديم وأبو الفرج الخليع · ولكل واحد منهم حكايـة تذكـر في غير هذا الكتـاب ·

* * *

تعليـــق

كم بين الحكاية والواقع من تباين ! بل من تناقض ! يستقي واضع الحكاية مما يمده خياله به صدقاً أو وهماً كي يرضي فنه ويمتع سامعه أو قارئه · وهو لا يهمـه البحث عـن الحقيقة بل يهمه اجتذاب القارىء أو السامع· تنسب حكاية «النائم اليقظان» الى الخليفة العباسي هارون الرشيد أموراً هو بعيد منها كل البعد · لا شك أن الخليفة كان يتعـرف حاجات الشعب ويهتم بشؤونه ولا يرضى أن يقع بين أفراده حيف أو ظلم ما وسعه ذلك · ولكنه كان يتجنب اللهو وشرب الخمر ويحدّ شاربها اذا تحقق ذلك ·

وقد نبّه المؤرخ المدقق عبدالرحمن بن خلدون على مغالط المؤرخين وأوهامهم فكيف بواضعي السير الشعبية ومخترعيها . كتب يقول : « وأما ما تموه به الحكاية من معاقرة الرشيد الخمر واقتران سكره بسكر الندمان فحاش لله ما علمنا عليه من سوء . وأين هذا من حال الرشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة وما كان عليه من صحابة العلماء والأولياء ومحاوراته للفضيل بن عياض وابن السمّاك والعمري ومكاتبته سفيان الثوري وبكائه من مواعظهم ودعائه بمكة في طوافه وما كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات الصلوات وشهود الصبح لأول وقتها . حكى الطبري وغيره أنه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة نافلة ، وكان يغزو عاماً ويحج عاماً ... وقد كانت حالة الأشراف من العرب الجاهلية في اجتناب الخمر معلومة . ولم يكن الكرْم شجرتهم ، وكان شربها مذمة عند الكثير منهم . والرشيد وآباؤه كانوا على ثَبَج من اجتناب المذمومات في دينهم ودنياهم ، والتخلق بالمحامد وأوصاف الكمال ونزعات العرب »(١١) .

وقد شرحنا في بعض بحوثنا السالفة كيف أن الفن كثيراً ما يكون بعيداً عن الحياة الواقعية .

هذا واستبدلنا باسم بطل القصة أبي الحسن كنية أبي الفرج تمشياً مع احترام التراث .

* * *

□ الحواشي :

١ ـ في الأصل المطبوع عاداني صححناه لان اصحابه قد خلوه ولم يعادوه . وفي هذا التصحيح تجنيس للقافية وهو ما يناسب ذلك العصر ونظن أن هذا التصحيح هو الأصل.

٢ ـ الحرفوش : هو المتشرد الذي لا يملك شيئاً .

٣ ـ في أول القصة اسمه أبو الحسن الخليع .

٤ ـ في الأصل : لو فهمنا قدومكم لشربنا

مهجة القلب أم سواد العيون

٥ ـ نسبة الى اقرطيش اي جزيرة كريت .

٦ ـ الشمشك والجمشك : نوع من القباقيب .

٧ ـ النمشة والنمجة : خنجر طرفه معقوف .

٨ ـ سيوف .

٩ ـ جمع موصول وهي آلات موسيقية احسبها من صنع اسحاق الموصلي وكانها اقرب ماتكون من القيثارة ويقال انه تحريف ماشور الفارسية بمعنى أنبوب أو عود أجوف.

١٠ـ حارس المارستان .

١١ـ المقدمة تحقيق د. عبدالواحد وافي ج١ ، ص ٢٣٢ـ٢٣٤ .

قوله : حاش لله مقتبس من سورة يوسف ، الآية (٥١) .

* * *

أهمّية الفهرسة الوصفيّة (البيبليوغرافيا) الوطنيّة والسّبيل إلى وضعها

د. عدنان درويش*

عرّف نفر من علماء الغرب المعنيين بعلم البيبليوغرافيا هذا العلم بقولهم:

ـ البيبليوغرافيا: حقل من حقول (علم الكتاب) تدرس أوعية المعارف الانسانية،

ـ ولنسمها اختصاراً: (المكتوبات) ـ وتصفها، وترتبها وفق قواعد مخصوصة، وتتغيّى من ذلك أهدافاً علمية وعملية، فهي بذلك تعنى باحصاء المكتوبات وتصنيفها ووصفها.

وقال آخرون:

ـ البيبليوغرافيا: ثبت بأسماء الكتب المحصية، يستقيم إعداده وفق قواعد محددة معلومة، وله وظيفة إعلامية محددة.

ويذهب غيرهم الى أنها:

ـ مهارة إحصاء الكتب ووصفها ومعرفة أسمائها وموضوعاتها وإعداد أثبات لها.

هذه التعريفات لعلم البيبليوغرافيا وان بدت مختلفة في الصيغة والأداء فانها اتفقت في الغاية والهدف، وهو إيعاب المكتوبات التي هي وسائل تأدية النشاط الانساني في الأعمال المعرفية، وبيان منازل مبدعيها وواضعيها، ثم تصنيفها

(*) باحث ومحقق في الدراسات التراثية .. ويعمل مديراً للمخطوطات في وزارة الثقافة والارشاد القومي بسورية.

ووصفها للافادة منها في استكمال أسباب التدرج في التطور المعرفي لأجيال الأمة التي أبدع أبناؤها تلك المعارف •

والبيبليوغرافيا بهذا المعنى ليست اختصاصاً مساعداً للعلوم الأخرى بل هي علم قائم برأسه ، وحقل معرفي متكامل له مسائله ومشكلاته العلمية ، وله تاريخه المتطور ، ومنهجه المرسوم ، وأهدافه العلمية الخاصة به •

ولما كانت المكتوبات أهم أوعية حفظ الأعمال المعرفية وأيسرها انتقالا وأوسعها انتشاراً وشيوعاً فقد اتخذ العلماء منها أصلاً لاصطلاح جعلوه عَلَماً على هذا الفن ، وهو كلمة (البيبليوغرافيا) وأصل هذا الاسم كلمتان إغريقيتان •

أولاهما : بيبلوس Biblos ومعناها كتاب •

وثانيهما : جرافين Graphien ، وتعني الرسم أو فن الكتابة أو النقش أو نحو ذلك •

فصاغ العلماء اللاتين من هاتين الكلمتين تركيباً مزجياً ابتغوا منه بادىء ذي بدء أن يكون علماً على من يتولى نساخة الكتب أو صناعتها •

وجرى علماء هذا الفن على هذا المصطلح بدلالته هذه حتى نهاية القرن الثالث للميلاد ، ثم توسعوا في الدلالة ليكون أكثر مطاوعة في الاستعمال ، فشملت بذلك العالم بالكتب وأسمائها ووصفها وموضوعاتها •

ثم ينمو فن الكتابة والكتاب ويتطور وتتعدد مذاهبه بتنوع شعب المعارف المدونة المكتوبة ، فاكتسبت كلمة البيبليوغرافيا دلالة جديدة بنيت على أصول دلالتها القديمة ، وذلك حين جاء العالم المكتبي والبيبليوغرافي الفرنسي غابريل نوده Gabriel Naudé في القرن الثامن عشر فجعل الكلمة علماً على ثَبَت الكتب في كتابه Bibliographia Politica فنسخ بذلك المصطلح الذي كان يتخذ قبله لتسمية هذا النوع من الأعمال Bibliotheca للدلالة على الثَّبَتِ أو القائمة التي فيها كتب موصوفة ، مثال ذلك كتاب كونراد جسنر Bibliotheca universales المطبوع في زوريخ بين عامي ١٥٤٥ ــ ١٥٥٥ م وبذلك استقام لهذا الفن

عنوانه (البيبليوغرافيا) الذي ما يزال عَلَماً عليه حتى يوم الناس هذا على ما طرأ عليه من تقدم وتطور ودقة في وسائله وتقنياته ، ورؤية أكثر وضوحاً لوظائفه وغاياته •

البيبليوغرافيا عند المسلمين :

منذ نحو من مئة وألف عام عرف العلماء النابتون في مغاني الحضارة الاسلامية العربية المزهرة أهمية الكتاب وعاءً لاحتواء المعارف الانسانية ، ووسيلةً لنقلها بين الناس والأجيال ، وأدركوا قيمته وجلال فائدته ، فرأوا أنه لا بد من ابتداع الوسيلة التي تيسر للناس معرفته وتداوله والانتفاع به ، فقامت ظاهرة التأليف المكتبي البيبليوغرافي عندهم ، وفي أوائل القرن الرابع للهجرة تنبه أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي المتوفى سنة ٣٣٩ هـ = ٩٥٠ م أكبر فلاسفة المسلمين والمعروف بالمعلم الثاني ، تنبه الى حاجة شداة العلم الى معرفة العلوم وفروعها وأغراضها ، فبادر الى وضع كتابه الصغير الجرم والحجم العظيم القيمة والنفع (إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها) ويعد هذا الكتاب مفتاحاً مهماً لمداخل فن البيبليوغرافيا •

عرفت الأوساط العلمية في عصر الفارابي قيمة هذا العمل وفائدته فنهد أبو عبد الله الخوارزمي محمد بن أحمد بن يوسف المتوفى عام ٣٨٧ هـ = ٩٩٧م الى أن ينسُج على منوال الفارابي ووضع كتابه الحفيل (مفاتيح العلوم) الذي يعد من أقدم ما صنفه المسلمون على الطريقة الموسوعية ، وهو أيضاً من أهم مداخل علم البيبليوغرافيا •

وفي أواخر القرن الرابع للهجرة وريِّق القرن الخامس منها أي منذ لواذ ألف عام تستقيم قواعد فن البيبليوغرافيا عند العرب وتُستكملَ أسبابه ويطلع علينا الوراق النديم أو ابن النديم محمد بن إسحاق البغدادي المتوفى سنة ٤٣٨ هـ = ١٠٤٨ م على أرجح الأقوال بكتابه (فهرس العلوم) أول كتاب ــ على ما نعلم ــ من كتب الأمم الموجود منها بالعربية في أصناف العلوم وأخبار المصنفين فيها ، وطبقات مؤلفيها ، وأنسابهم ، وتواريخ مواليدهم ، ومبالغ أعمارهم ، وأوقات وفياتهم ، وأماكن بلدانهم ، وأسامي ما وضعوه من كتب منذ

ابتداء كل علم اخترع الى حين وضع المؤلف كتابه في شبابه سنة ٣٧٧ للهجرة ثم نقحه وزاد عليه في سنة ٤١٢ للهجرة على الأرجح ووسم النديم كتابه هذا (بفهرس العلوم) قال فيه : « هذا فهرس كتب العلوم القديمة وتصانيف اليونان والفرس والهند الموجود متنها بلغة العرب وقلمها وأخبار مصنفيها » وهذا العنوان الذي اختاره لكتابه يحمل مضمون الكتاب ، ويفي بالمصطلح الفني للبيبليوغرافيا الذي اعتمده فيما بعد علماؤها في الغرب ، قال ابن منظور في لسان العرب : « الفهرس : الكتاب الذي تجمع فيه الكتب ، قال الأزهري : وليس بعربي محض ولكنه معرب » اهـ ٠

وتابعه على ذلك الفيروز آبادي اللغوي المشهور في قاموسه فقال :«الفهرس بالكسر الكتاب الذي تجمع فيه الكتب ،معرب فهرست » ٠

وجاء في هامش كشف الظنون : ١٣٠٣/٢ ما يلي : « وفي التهذيب : الفِهرس : هو الكتاب الذي يجمع فيه أسامي الكتب ٠ وفي بحر الغرائب : هو القانون والضابطة الاجمالية التي تكتب في أوائل الكتب حتى يُعْلَم فيها أنها كم باباً ، وقد يطلق على أول الكتاب ٠ وفي ديوان الأدب : الفِهرس مِقْسَم الماء على وزن فِعِلل يونانية فعربوه واستعملوه في مجمع الأبواب ، والتاء فيه غلط فاحش » ٠

انتهى كلام المحشي على الكشف ٠

ولعل هذه التسمية التي سبق اليهاواختارها النديم أو ابن النديم ثم جرى على سَنَن محتواها علماء الغرب تجعلنانطمئن حين نعرب كلمة البيبليوغرافيا بالفهرسة ٠ واذا أردنا توخي الدقة في نقل دلالة هذا المصطلح الى العربية يمكننا أن نضيف كلمة (الوصفية) الى الفهرسة ، فيصبح عنوان هذا العلم بالعربية (الفهرسة الوصفية) ٠

أخذ هذا الفن يتطور عند المسلمين اتساعاً وشمولاواحاطة بدقائق مضمونة، ونهد عدد من العلماء المسلمين الى التأليف فيه ، وأخرجوا الى الناس فهارس حفيلة ، نذكر من هؤلاء العلماء الفخر الرازي محمد بن عمر بن الحسن المتوفى سنة ٦٠٦ هـ = ١٢١٠م الذي وضع كتابه (حدائق الأنوار في حقائق الأسرار)

أورد فيه موضوعات /٦٠/ ستين علماً ، وألفه للسلطان علاء الدين تكش الخوارزمي .

وتلاه القطب الشيرازي محمود بن مسعود المتوفى سنة ٧١٠ هـ = ١٣١١ م وصنف كتابه (درة التاج لعزة الدّباج) .

وبعده ابن ساعد أو صاعد الأكفاني شمس الدين محمد بن ابراهيم السنجاري المتوفى سنة ٧٤٩ هـ = ١٣٤٨ م ألّف كتابه (ارشاد القاصد الى أسنى المقاصد) جمع فيه وصفاً لـ /٦٠/ ستين علماً وهذا الكتاب الجامع ـ على صغر حجمه ـ يعتبر مأخذ طاشكبري زاده وعمدته في كتابه (مفتاح السعادة ومصباح السيادة).

وتلاه البسطامي عبد الرحمن بن محمد الحنفي المتوفى سنة ٨٥٨ هـ = ١٤٥٤ م وصنف كتابه (درة فنون الكتّاب وقرة عيون الحُسّاب) في موضوعات العلوم .

ثم بعده لطف الله أو ملا لطفي بن حسن التوقاتي المقتول سنة ٩٠٤ هـ = ١٤٩٨ م وألّف كتابه (المطالب الالهية) الذي خدم به خزانة بايزيد الثاني العثماني واستوفى في كتابه هذا ذكر نحو من /١٠٠/ مئة علم .

ووضع الجلال عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ = ١٥٠٥ م كتابه (نقاية العلوم ومسائلها) ثم وضع عليه شرحاً وسمه بـ (اتمام الدراية في شرح النقاية) .

واهتم بالنقاية بعض ذوي الفضل فنظموه وزادوا عليه، قال صاحب الكشف (٢/١٩٧٠) « النقاية مختصر في أربعة عشر علماً مع زبدة مسائلها... ثم شرحه وسماه (إتمام الدراية) فرغ من تأليفه سنة ٨٧٣ هـ ثلاث وسبعين وثمانمئة . وقد نظم الشيخ عبد الرؤوف الزمزمي المكي المتوفى سنة ٩٦٣ هـ ثلاث وستين وتسعمئة فن التفسير في بحر الرجز ، وعلى النظم شرح للمنصور سبط الطبلاوي سماه (منهج التيسير الى علم التفسير) ... أتمه في شوال سنة ٩٨٩ هـ تسع وثمانين وتسعمئة ، ونظمه شهاب الدين أحمد بن أحمد بن عبد الحق السنباطي المصري المتوفى سنة ٩٩٠ هـ تسعين وتسعمئة ، وزاد أربعة علوم فصار ثمانية عشر علماً ... سماه (روضة الفهوم بنظم نقاية العلوم) ، ثم شرحه متتبعاً

لشرح الأصل وسماه (فتح الحي القيوم بشرح روضة الفهوم) ، وزياداته هي : « الحساب ، والعروض ، والقوافي ، والمنطق ، في ألف وخمسمئة بيت تقريباً ، وقد فرغ من بياض الشرح سنة ٩٨٢ هـ إثنين وثمانين وتسعمئة » ٠ انتهى كلام صاحب الكشف ٠

وفي القرن العاشر للهجرة صنف طاشكبري زاده عصام الدين أحمد بن مصطفى بن خليل المتوفى سنة ٩٦٨ هـ = ١٥٦١ م كتابه الزاخر الحافل (مفتاح السعادة ومصباح السيادة) ذلك الكتاب الذي جهد مؤلفه بحسن تنظيمه وسعة شموله فأصبح من أعظم كتب الفهرسة الوصفية (الببيليوغرافيا) عند المسلمين حين استوفى العصام فيه إحصاء العلوم، وتعدادها ، وترتيبها أحسن استيفاء ، وذكر في كل علم مشهور كتبه وأئمة المؤلفين فيه ، مع الدقة الفائقة والترتيب المنطقي الجميل والاحصاء الوافي الصحيح، فغدا هذا الكتاب مظنة هذا الفن للباحثين والعلماء ٠

وجاء الشرواني محمد أمين بن صدرالدين المتوفى سنة ١٠٣٦ هـ = ١٦٢٧م وصنف كتابه (الفوائد الخاقانية الأحمدخانية) واشتمل هذا الكتاب على وصف ل / ٥٣ / ثلاثة وخمسين علماً ٠

وفي القرن الحادي عشر للهجرة أيضاً وضع حاجي خليفة مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي المتوفى سنة ١٠٦٧ = ١٦٥٧ م كتابه الشهير الذي أصبح فيما بعد عُدة الباحثين وعمدة المؤلفين وهو (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون) حاول فيه حاجي خليفة أن يوعب فيه ما قبله ، فاستقصى أسماء كل ما أُلّفَ عند الأمم الاسلامية من كتب ماوسعه الى ذلك سبيلاً ، ثم رتب أساميها على حروف المعجم ، فجاء أغنى كتب الفهرسة حفولاً الى زمنه وأكثرها فائدة ويسراً لتهدي الباحث الى طِلبته ٠

اهتم بهذا الكتاب العظيم كثير ممن عاصر حاجي خليفة أو جاء بعده من العلماء المهتمين بهذا الفن فوضعوا ذيولاً عليه ، من هؤلاء العلماء :

محمد عزتي أفندي المعروف بوشنه زاده المتوفى سنة ١٠٩٢ هـ = ١٦٨٦ م٠
والشيخ ابراهيم أفندي المتوفى سنة ١١٨٩ هـ = ١٧٧٥ م ٠

وأحمد طاهر بن ابراهيم بن مصطفى القسطنطيني الرومي الحنفي المعروف بحنيف زاده المتوفى سنة ١٢١٧ هـ = ١٨٠٢ م .

وأحمد عارف حكمة بن ابراهيم بن عصمت المتوفى سنة ١٢٧٥هـ = ١٨٥٨م

وتلاه البابانى البغدادي اسماعيل بن محمد أمين المتوفى سنة ١٣٣٩ هـ = ١٩٢٠ م ووضع عليه الذيل الوافي الذي أسماه (ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون) .

وممن ذيل عليه أيضاً الشيخ اسماعيل صائب سنجر الذي كان حياً سنة ١٣٦٠ للهجرة . انتهت ذيول الكشف .

وفي القرن الثاني عشر للهجرة نجد كتابين أحدهما موسوعي ضخم مهم وهو (كشاف اصطلاحات الفنون) الذي ألفه التهانوي محمد بن علي الهندي المتوفى بعد سنة ١١٥٨ هـ = ١٧٤٥ م .

وكتاب آخر في معنى كشف الظنون في الفهرسة وهو (خلاصة تحقيق الظنون في أسماء الشروح والمتون) وضعه كمال الدين أبو الفتوح محمد بن مصطفى البكري الدمشقي المتوفى سنة ١١٩٦ هـ = ١٧٨٢ م .

وتلاه محمد صديق خان بن حسن بن علي القنَّوجي المتوفى سنة ١٣٠٧ هـ = ١٨٩٠ م وألف كتابه (أبجد العلوم) ، وهو من أجلّ الكتب في هذا المعنى وأعمها نفعاً .

ووضع البابانى البغدادي الذي ذيل على (كشف الظنون) كتاباً آخر في هذا الصدد أفرده للمؤلفين وأسماء مؤلفاتهم عنوانه (هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين) .

وفي النصف الأول من القرن العشرين للميلاد هذا الذي نعيش فيه وضعت كتب أخرى ردافى لما سبق أهمها :

(تاريخ آداب اللغة العربية) لكارل بروكلمان الألماني .
و (تاريخ آداب العربية) لجورجي زيدان .
و (معجم المطبوعات) ليوسف اليان سركيس .

ثم يتلو هذه الكتب فهرس أكثر من سابقيه حفولا وقيمة هو الذي وضعه صديقنا العلامة فؤاد سزكين ـ متّعنا الله بحياته ـ وأسماه ب (تاريخ التراث العربي) ٠

هذه الكتب التي ذكرناها وأمثالها والتي تعد أهم المظان للوقوف على ذخائر المكتبة العربية كثير منها غلب عليه سمة التأليف الموسوعي ، وقليل منها ما كان خالصاً لفن الفهرسة الوصفية (الببليوغرافيا) العربية ، كفهرس النديم ، (ومفتاح السعادة ومصباح السيادة) لطاشكبري زاده ، و (كشف الظنون) لحاجي خليفة وذيوله ٠

واختلفت طرائق مؤلفي كتب الفهارس هذه ومناهجها في التأليف ، فمنهم من اتخذ سبيكه التصنيف على الفنون ، ومنهم من انتهج ترتيب أسامي الكتب على حروف المعجم ، وآخرون اعتمدوا طريقة التأليف على أسماء المؤلفين مرتبة على الحروف ثم ذكر مصنفاتهم دون وصف على الحروف أيضاً ٠ الا أن أحداً منهم لم يلتفت الى نَسَبِ الكتاب العربي الى اقليم أو انتمائه الى قوم، ولم يدُر بأخلادهم هذا المعنى ، فقد كانوا يعيشون في سرادق حضارة واحدة امتد فاكتنف شعوباً وقبائل تعارفوا وبنوا حضارة اسلامية محكمة النسيج متناغمة الألوان ، فان كان للمصنف المكتوب بالعربية من نسب فانما نسبه وانماؤه الى شعبة معرفية من منجزات الحضارة الاسلامية مكتوبة باللغة العربية ٠ وبذلك صفرت رفاف المكتبة العربية الموروثة من كتب فن الفهرسة الوصفية (الببليوغرافيا) الوطنية ، حتى كان العصر الحديث نهدت محاولات نافعة في بعض الأقطار الاسلامية الى وضع الفهارس الوصفية الوطنية ؛ رأينا منها كتاب : (النبوغ المغربي في الأدب العربي) لعبد الله كنون الحسني ؛ و (الحركة الأدبية والفكرية في تونس) لمحمد الفاضل بن عاشور ؛ و (الفهرس التاريخي للمؤلفات التونسية) لحمادي صمود وجان فنتان ؛ و (حركة التأليف بالعربية في الاقليم الشمالي للهند) للدكتور جميل أحمد ، و (التراث اليمني في المتحف البريطاني) لصديقنا الدكتور حسين عبدالله العمري ؛ و (الحركة الفكرية العربية في سمرقند) ٠ الا أن هذه المحاولات ـ على قيمتها وأهميتها وفائدتها ـ لا تزال قاصرة عن ادراك ايفاء الفهرسة الوصفية الوطنية

مستلزماتها من الاحاطة بمكتوبات الشُعب المعرفية في المنجزات الابداعية للحضارة الاسلامية ، ولا نزال مفتقرين الى اغناء المكتبة العربية بهذا الفن الضروري للباحثين والعلماء، اذ للفهرسة الوصفية الوطنية أهميتها البالغة في هذا الصدد ، فأصبحت لذلك علماً قائماً برأسه له مقوماته ، وموضوعه ، ومنهجه ، وغرضه ، ووظيفته ، وفائدته .

وقد أرسى علماء هذا الفن للفهرسة الوصفية الوطنية ثلاث ركائز مقومات :

أولاها : المكان : وهو الرقعة الجغرافية التي قامت عليها الأفانين المدونة لحضارة القوم الذين يعيشون على هذه الرقعة .

ثانيتها : المبدع : وهو الأمة التي فيها من شارك في صنع حضارتها من أبنائها .

ثالثتها : اللغة واللهجات التي دونت بها تلك المنجزات المكتوبة من حضارة القوم .

هذه المقومات الثلاثة التي ترتكز عليها الفهرسة الوصفية الوطنية تقدم ـ الى جانب الضروب المعرفية المشتركة بين الشعوب ـ خصوصية الحضارة المحلية التي قامت في هذه الرقعة الجغرافية أو تلك ، ووضعها هذا القوم أو ذاك ، وندّت الى لغتها التي كتبت بها مفردات محلية ذات خصوصية بيانية دقيقة تغني الألوان المعرفية التي نشأت عند ذلك القوم .

وهناك عامل شكلي في الفهرسة الوصفية الوطنية هو : (المدى الزمني) الذي توفيه أو تغطيه الفهرسة الوصفية الوطنية ، هل هذا المدى مغلق مقتصر على فترة زمنية محددة ، أو هو مفتوح جار مستمر ، وتقسم الفهرسة الوصفية الوطنية بموجب هذا العامل الى قسمين :**الفهرسة الوصفية الوطنية الراجعة ، والفهرسة الوصفية الوطنية الجارية .**

أما الفهرسة الوصفية الوطنية الراجعة : فهي التي تحصي وتصف مكتوبات أمة من الأمم منذ أن أخذ انسانها يرقم على الطين ، أو ينقش في الحجر ، أو يكتب على الأقتاب ، واللّخاف ، والسعف، والجلود ، ثم البردي والرّق والكاغد ،

وهكذا انحداراً حتى رأس مئة سنة قبل تاريخ كَتْب الفهرسة الوصفية ، وهذه المئة من السنين هي الزمن الذي حددته واصطلحت عليه نخبة من علماء التراث العربي في حلقتهم التي عقدت في بغداد لحماية المخطوطات عام ١٩٧٥ حين حددوا معالم هوية الكتاب التراثي • وبذلك تورثنا تلك الوسائل من رقم ، ومخربشات (جرافيك) ، ولخاف ، وبردي ، ورق ، ونحوها معارف الانسان من تشريعات ، وأخبار ، وأدب ، وشعر ، وعلم ، وفن وغيرها منذ أن عرف كيف يسجلها الى ذلك التاريخ المحدد •

وأما الفهرسة الوصفية الوطنية الجارية : فهي التي تحصي وتصف مكتوبات أمة في فترة معاصرة محددة مصطلح على طولها ، وقد اجتمعت كلمة علماء هذا الفن على أن تحدد بمضي مئة سنة على ساعة الشروع بكَتْب الفهرسة الوصفية ، مع امكانية استمرار صدور هذه الفهرسة بآتي الزمن في خطة منهجية ترسم لها •

تأسيساً على ما تقدم تعد الفهرسة الوصفية الوطنية أهم القوائم الفهرسية الوصفية (البيبليوغرافية) على الاطلاق ، لأنها تحتوي على الانتاج الحضاري المكتوب من معارف أهل البلد الذي تصدر فيه ، وتقوم بتوثيق الانتاج الأدبي والعلمي له • وهي المصدر الأساسي الذي لا يقوم مقامه شيء لتقويم هذا الانتاج ، وتشتق منها فهرسات وصفية أخرى على الصعيدين المحلي والدولي ، وهي أساس لتطور الدراسات بمختلف أنواعها •

ومن ناحية أخرى فان أهم سمة للفهرسة الوصفية الوطنية هي نزوعها الى الكمال والدقة والمتابعة في وصف المخطوطات والمطبوعات للمعارف المكتوبة بأشكالها كافة ، فهي تصف أنواع المكتوبات على اختلافها ، وتباين ما تحتويه من موضوعات المعرفة ، ولا تغادر شيئاً من المكتوبات والمرسومات المعرفية من مجلات ، وخرائط ، ورقم (نوتات) موسيقية ، ومخربشات (جرافيك) ونحو ذلك ، تجد ذلك كله في فهرسة وصفية وطنية واحدة غير متناثرة الأجزاء ، وذلك كما صنع في إيطاليا ، وسويسرا ، أو نجده في ملاحق خاصة تُضَمُّ الى الفهرسة الوصفية الوطنية التي تصف المكتوبات كما في فرنسا ، أو تُصدَر فهرسات وصفية خاصة لكل شكل من أشكال المطبوعات ، فللدوريات فهرسة وصفية وطنية خاصة

بها ، وللخرائط فهرسة وصفية وطنية خاصة بها ، وللكتب كذلك ، هذا لمن يريد أن يعدد في أشكال إصدار الفهرسات الوصفية كما كان الوضع في الاتحاد السوفييتي •

ان ظهور الفهرسات الوصفية الوطنية الكبيرة يعود الى القرن التاسع عشر للميلاد ، ولقد أصابت هذه الفهرسات في هذا القرن وبعده حظاً وافراً من الازدهار ، كان ذلك بسبب أن القرن التاسع عشر شهد ظهور القوميات وقيام الدول القومية ، ونمو حركة الصناعة ،وتضخم الانتاج المطبوع ، ونزوع شعوب أوربة الى إحياء تراثها ، فظهرت الفهرسات الوصفية الوطنية الراجعة لأكثر شعوب أوربة ، وكانت على الأغلب من صنع أفراد حرصوا على وصف ما نشر من تراث أمتهم ، فسجلوه وصنفوه ووثقوه • ونجد في ذلك أمثلة كثيرة منها الفهرسة الوصفية الوطنية البولونية ،وأختها الفرنسية التي استمر اصدارها من عام ١٨٦٧ حتى عام ١٩٤٥ وهي التي أسسها العالم الفرنسي أوتو لورنز OTTO LORNS وتعرف باسمه :

Catalogue générale de la librairie française, T. 1-34, Paris : 1867 - 1945.

ونحو ذلك •

وتأسِّياً بهذه الانجازات العلمية النافعة فاننا نطمع في أن ينهد كل قطر من الأقطار التي تتفيأ ظلال الحضارة الاسلامية ، وتتخذ من العربية لغة لماتورثه من أفانين المعارف الانسانية ، أن ينهد الى صنع الفهرس الوصفي الخاص به فيحقق بذلك أمرين :

أولهما : بناؤه ركناً من صرح الفهرسة الوصفية الاسلامية الموحدة •

ثانيهما : إحكامه النسيج الحضاري الاسلامي بابرازه ألوانه المتناغمة أكثر وضوحاً وبياناً حين يسجل في فهرسه الوصفي الوطني معالم خصوصياته الحضارية المحلية •

وبتحقيق ذلك لا ينهض تعارض بين دعوتنا الى وضع الفهرس الوصفي الوطني وبين ما سبق من كلامنا منذ قليل على إعجابنا بالمفهرسين العرب والمسلمين الذين حافظوا على الوحدة والشمولية في تسجيل المنجزات المكتوبة لحضارات الشعوب التي يكتنفها سرادق الحضارة الاسلامية •

السبيل الى وضع الفهرسة الوصفية الوطنيـة :

يمتلك كل إقليم من أقاليم العالمين العربي والاسلامي ثروات كبيرة من الموروثات الحضارية المكتوبة ، منها التالد الذي يبلغ في قدمه قدم حضارة الانسان ، وبخاصة التراث المدون في المخربشات (الجرافيك) والرقم واللخاف والكاغد والرق ونحو ذلك من الوسائل المتخذة للكتابة قديماً وفي عصور التدوين، ومنها الطارف الذي تبدعه وتدونه بالعربية الأجيال المتعاقبة من النابغين في الأمم والشعوب التي تسكن في تلك الأقاليم • وبذلك كان لكل إقليم دوره وسهمه في تزويد المكتبة العربية بعشرات الآلاف من المصنفات ونحوها التي ما انفكت تتوافد الى هذه المكتبة في الآماد المتطاولة منذ بدء حركة التدوين عند الكاتبين بالعربية حتى يوم الناس هذا •

ففي بلاد الشام ـ على سبيل المثال أُرِثْنا مكتبةً زخارة غنية بأوعية المعارف الانسانية وضعها وصنفها أهل هذا الاقليم وتجمعت منذ عرفت الرقم والمخربشات حتى يومنا ـ رقم إيبلا، رأس شمره وغيرهما ، ثم في أيام حركة التدوين وما تلاها من عصور ـ ورثنا من العلوم والمعارف أفانين صنعتها قرائح علماء هذا الاقليم ونابغوه وصبتها في صفحات نضدت أسفاراً ورصت على رفاف المكتبة العربية ، فكتب خالد بن يزيد بن معاوية ، وحبيب بن أوس أبي تمام الطائي ، وأبي عبادة البحتري ، وأبي العلاء المعري ، والحافظ ابن عساكر صاحب تاريخ مدينة دمشق ، وأبي شامة المقدسي ، والامام النووي ، والحافظ الذهبي ، والصلاح الصفدي، والعماد ابن كثير صاحب البداية والنهاية ، وهكذا حتى أيامنا ، كتب هؤلاء العلماء والأدباء والمبدعين أمثلة زهر من جمهرة عريضة كانت الزاد الغني الذي رفد المكتبة العربية وأغناها ، وهنالك أزواد أخرى ترفد المكتبة وتغنيها من مصر والمغرب والعراق والهند وبلاد فارس ومن كل إقليم من الأقاليم التي يتخذ أهلها من العربية وسيلتهم في تسجيل معارفهم وعلومهم وآدابهم ومنجزاتهم الحضارية المكتوبة •

حركة التأليف والتدوين بالعربية في هذه الأقاليم لم تفتر خلال تتابع العصور، فما زالت فيها مواكب نابغين تقتدي بمواكب حتى يوم الناس هذا ، فقهاء ،

أدباء ، شعراء ، مؤرخين ، نابهين في العلوم التطبيقية ، مبدعين في الفنون الجميلة ، كل هؤلاء في نشاط دائب لاغناء المكتبة العربية بمصنفاتهم وأبحاثهم ، ومقالاتهم ٠

ولا تزال المكتوبات في كل اقليم من هذه الأقاليم سواء منها المخربشات أو الكتب أو الرسائل ونحوها مبثوثة دون احصاء وعلى غير نظام في بطون سجلات المحفوظات الأثرية ٠ وكتب الفهارس العربية ، كفهرس النديم وحاجي خليفة وأمثالهما ، وفي كتب التراجم على اختلاف أنواعها ٠ وكتب التاريخ التي تعنى بالجمع بين الحوادث والوفيات ، وكتب الفقه ، وكتب الاختبارات الأدبية وما الى ذلك ٠

ثم في فهارس دور حفظ المخطوطات العربية ، ونشرات دور النشر ونحوها ٠ ولم ينهد حتى اليوم من يحاول في قطر من الأقطار تتبع مكتوباته في مظانها ، ويحصيها ، ويجمعها ، ويصنفها ، ويصفها في فهرس وصفي (بيبليوغرافيا) مخصوص يكون معيناً يرده وينهل منه دارسو التراث العربي والمتبعون لتطور حركة التاليف والابداع في قطر من الأقطار التي تدون معارفها الحضارية بالعربية منذ قيامها حتى الوقت الحاضر ، فيرفدون المحصول المعرفي الانساني بزاد من جوانب النشاط المعرفي الذي ينهض به الانسان الذي ينتمي الى ذلك القطر ٠

واليوم وبعد أن قامت مؤسسات في عدد من الأقطار العربية والاسلامية بوضع (الموسوعات) عرفنا منها بالعربية الموسوعة اليمنية التي أصدرتها مؤسسة العفيف الثقافية ، والموسوعة الفلسطينية ، ومشروع الموسوعة العربية في القطر العربي السوري ، وغير ذلك مما لم يبلغنا علمه ، هذه الموسوعات تضم الى جانب ما تزخر به من معلومات ومعارف عن الأقاليم التي وضعت فيها جوانب معرفية لا بأس بها في حقل الفهرسة الوصفية ؛ ولا شك في أن ذلك يعتبر ارهاصات وبدايات للشروع في وضع فهرس وصفي وطني خاص بالاقليم ، وينبغي له أن يواكب أمثاله مما وضعته الأمم المتقدمة التي طورت وسائلها (البيبليوغرافية) تطوراً رائعاً في التقنية والافادة في عالم اليوم ، ويأخذ مكانه في المكتبة العربية الذي لا يزال ينتظر من يشغله به ٠ ويلبي حاجات

العلماء والباحثين ، ويكون بالتالي لبنة وركناً في بناء صرح فهرسة وصفية (بيبليوغرافيا) عربية اسلامية ٠

لقد بلغ فن صنع الفهارس الوصفية الوطنية في هذا الزمان شأواً من التقدم يتيح للانسان الانتفاع بها والافادة منها بأيسر السبل بسبب تقدم الوسائل التنظيمية والتقنية المعينة على ذلك ،وتعددت وجوه اخراج الفهارس وطرائقها ولعل خير الطرائق في وضع الفهارس الوصفية الوطنية نفعاً وأكثرها دقة ، وأيسرها في الكشف عن طلب الباحثين الطريقة التالية :

أولاً : يحدد واضعو الفهرس الوصفي الوطني في الاقليم المراد وضع الفهرس له من هو المؤلف صاحب الأثر المكتوب المنتمي الى ذلك الاقليم ، ولادة ، أو منشأ ، أو اقامة أو نحو ذلك مما يحدد طبيعة انتمائه الحضاري الى القوم الذي يعيش على هذه الرقعة من الأرض ،وحمله موارثيه ، ومعايشته ألوان حياته وضروبها ، فقد عرّف المؤلف وواضع الأثر أنه ذلك الذي أوتي أمرين :

آ ـ القدرة على تمثل قدر مما يفرزه عصره وأطره الاجتماعية والحياتية الواسعة منها والضيقة من المعطيات الحضارية ومنجزاتها في مختلف فروع المعارف الانسانية وشعبها من تجارب ، وألوان حياتية ، وثقافات ، وعلوم ، وفنون ، وعلاقات انسانية ونحو ذلك ، ثم ما انحدر الى ذلك العصر من المواريث المعرفية الانسانية من العصور الخالية ٠

ب ـ القدرة على أن يؤلف ويبدع ويخرج في شعبة أو أكثر من تلك المعارف والمواريث انتاجاً معرفياً ملوناً بخصوصية قومه ومجتمعه وأطره الحياتية من ناحية وبخصوصيته هو باعتباره انساناً مبدعاً من ناحية أخر ؛ ويقدم ذلك الى أناسيّ عصره ، ثم يرثه بعده من سيخلفه من الأجيال ٠

تأسيساً على ذلك تتحدد معالم هوية الأمة أو الجماعة وملامحها من خلال ماصنعته لنفسها من فهرسة وصفية تلملم جوانب انتاجاتها المعرفية والثقافية ٠

ثانياً : يتتبع واضعو الفهرس الوصفي الوطني في قطر بعينه المكتوبات المنسوبة الى مؤلفين ومبدعين منتمين الى ذلك القطر ويستقصونها منذ أول رقيم

رقمت عليه يد انسان من هذا القطر الى آخر كتاب أو رسالة أو مقالة أو بحث أو حديث أو غير ذلك مما يُخْرَج قبل زمان وضع الفهرس •

ثالثاً : الجمع بل دمج الفهرسة الوصفية الراجعة بالفهرسة الوصفية الجارية في سفر واحد ، للابقاء على الصورة الحضارية للجماعة المتوضعة على هذا المكان من الأرض مؤتلفة موحدة ، ولا حاجة للتقسيم ووضع فهرسين وصفيين وطنيين أحدهما راجع والآخر جار •

رابعاً : يعزز محصول ما تم جمعه من المكتوبات زمراً وفق موضوعاتها وفنونها ، كزمرة مكتوبات علوم القرآن ـ على سبيل التمثيل ـ وزمرة مكتوبات التشريع والفقه ، وزمرة مكتوبات الحديث وعلومه ، وزمرة مكتوبات اصول الدين ، وزمرة المكتوبات في الأدب ، وزمرة المكتوبات في العلوم التطبيقية ، كالرياضيات ، والطب ، والهندسة ، ونحوها ؛ وزمرة المكتوبات في الفنون الجميلة ••• وهكذا • ويفرد لكل زمرة تنضوي تحت فن من هذه الفنون جزء قائم برأسه ، ويمكن أن يتهدى في تحديد عناوين هذه الفنون التي توضع للتقسيمات والتجزئة وتسميتها ب (فهرس النديم) ، و (مفتاح السعادة) ، و (كشاف اصطلاحات الفنون) ، و (أبجد العلوم) ، و (التصنيف العشري) الذي وصفه ديوي في تقسيمه لأنواع العلوم •

ولا يميز بين المكتوبات التراثية التي تدخل في اطار الفهرسة الوصفية الوطنية الراجعة من المكتوبات المعاصرة التي تدخل في اطار الفهرسة الوصفية الوطنية الجارية ، لأن المميز لكل منهما هو تاريخ وفاة مؤلف الأثر المكتوب •

خامساً : بعد أن تفرز المكتوبات على موضوعاتها وفنونها التي اتخذ لها العنوانات الكبيرة الرئيسة يجري فرزها مرة ثانية على موضوعات فرعية تتشقق من العنوان الرئيس للفن ، فمثلاً في فن الآداب الذي أفرد له جزء مستقل برأسه تتشقق منه فروع ، كالشعر وأنواعه ، الترسل وأنواعه ، النقد ، تاريخ الأدب ، الرواية ، القصة ، فن المقامة ، المسرح ، ••• وهكذا ، وتجعل عنوانات الموضوعات الفرعية مداخل يدرج تحتها أسماء من ألف فيها ثم يثبت بين يدي كل مؤلف الفهرس الوصفي لأعماله ، ويستعان بالفهارس المذكورة في الفقرة السابقة في تحديد أسماء عنوانات المداخل الفرعية •

سادساً : تؤخذ الزمرة التي يضمها عنوان فن من الفنون الفرعية ويجري عليها فرز جديد وفق أسماء مؤلفي المكتوبات ، ويرتب في هذا الفرز أسماء المؤلفين على حروف المعجم سواء منهم مؤلفو المكتوبات التراثية والمؤلفون المعاصرون يميز بين القديم منهم والحديث المعاصر تواريخ الولادات والوفيات .

سابعاً : بعد اثبات اسم المؤلف في موضعه من الترتيب المعجمي يترجم له ترجمة وافية مركزة مكثفة غاية في الاختصار ، يذكر فيها اسمه واسم أبيه وجده وأبي جده إن توفر ذلك ، ولقبه وكنيته ، ونسبته ، وتاريخ مولده إن أمكن ، ووفاته ، ثم دراسته وشيوخه ورحلاته في العلم ونحو ذلك ، وطبقته بين العلماء ، وأهم الأحداث التي تتعلق به ولها أثر في تكوينه العلمي واتجاهاته الابداعية ونحو ذلك .

وحين يرد اسم المؤلف مرة ثانية في وضعه كتاباً في فن آخر يُكْتَفى بذكر اسمه وشهرته هناك ويحال الى حيث ترجم أول مرة في الفن الذي سبق .

ثامناً : بعد الفراغ من ترجمة المؤلف تثبت تحته فهرسة وصفية لمكتوباته على الترتيب التالي :

- مؤلفاته الأصلية .
- ما وضعه شرحاً على كتاب آخر .
- ما اختصر به مصنفاً آخر أو ما يشبه ذلك من نظم كتاب أو نحو ذلك .
- النشرات التي تتضمن اختيارات من أعماله .
- رسائله الشخصية .
- أسماء كتب ترجمها من لغات أجنبية الى اللغة العربية .
- أعمال أدبية تصرف فيها المؤلف (مسرحية ، أو رواية ، على سبيل المثال) .
- مرسوماته الفنية في الفنون التشكيلية ونحوها إن كان من المبدعين في هذه الفنون ، وتثبت عناوينها إن كان لها عناوين .
- مواد أخرى للفهرسة الوصفية لمكتوبات المؤلف لا تدخل تحت مادة من المواد المذكورة .

ترتب عنوانات المكتوبات أو غيرهـا التي تضمها زمرة من الزمر الفرعية على حروف المعجم إن كانت هذه المكتوبات كتباً ، أو رسائل ، أو أبحاثاً ، أو مقالات تحمل عناوين • ويصطنع ترتيب مناسب إن كانت المكتوبات غير ذلك مثل الرسائل ، والمقالات ، والأحاديث ، والرسوم ، والخرائط ، أو ما شابه ذلك مما لم يثبت له عنوان •

يثبت بين يدي كل مادة مفهرسة كتاباً كانت أو غيره وجازة مركزة غاية في الاختصار في التعريف بها ووصفها موضوعاً وشكلاً •

تذكر المظان التي ورد للمؤلف أو أعماله فيها ذكر •

يذكر بين يدي كل كتاب أو مادة أخرى للمؤلف ما اذا كان ذلك مخطوطاً لم يتح له نشر بعد ، ويذكر مظنة وجوده من مكتبة أو مكان حفظ أو بيت خاص أو نحو ذلك •

اذا كانت المكتوبة أو المادة المفهرسة قد أتيح لها نشر فيذكر مكان النشر والطبع وزمانه ، وعدد الطبعات والنسخ من كل طبعة إن أمكن •

تاسعاً : تتضمن الفهرسة الوصفية للمؤلف أسماء ترجمات كتبه وأعماله الى اللغات الأخرى ، وتذكر أسماء الأشخاص والجهات الذين تولوا الترجمة والنشر ويعرف بهم إن أمكن ، وترتب الترجمات حسب اللغات أو البلدان التي أخرجت فيها هذه الترجمات •

عاشراً : تضم الفهرسة الوصفية للمؤلف التي تدرج تحت اسمه ذكر ماله صلة بأعماله ومكتوباته : (أبحاث عامة عن المؤلف واتجاهاته ، وخصائصه ، وسيرته ، وعلاقاته • أبحاث تخص مؤلفات له من تقريظات وردود على آرائه وكتبه وما الى ذلك) تذكر عناوين هذه الكتب ومؤلفيها ونشراتها ، ويراعى في اثبات هذه المواد الترتيب الزمني لنشرها •

الحادي عشر : ذكر عناوين الصحف ، أو المجلات ، أو الدوريات ، أو الزوايا الاذاعية المسموعة والمرئية ، أو المسرح ، أو السينما ، مما يؤلف مشاركة في الكتابة فيه ، وتذكر أيضاً عناوين المقالات والأبحاث والمشاركات الاذاعية التي نشرت في كل من هذه الوسائل •

الثاني عشر : تلحق بكل مدخل من مداخل الفهرس تصاوير تناسبه إن توفرت ، كصور للأعلام المؤلفين ، وصور للرقم والمخربشات (الجرافيك) ، وصور لخطوط العلماء والكتاب وصور لرواميز من الكتب المخطوطة ، وصور للنفائس من الخطوط ، وصور للوحات الرسامين، وصور للاعلانات والملصقات ، وغير ذلك مما يدخل في هذا المعنى ويغني الفهرس ايضاحاً ونفعاً ٠

الثالث عشر : يخصص في آخر الجزء المفرد لفن من الفنون مدخل للمكتوبات التي لم يُعرف مؤلفوها وتندرج في إطار ذلك الفن ، ويصطنع لها ترتيب يتناسب مع عنواناتها إن كانت معنونة ، أو مع طبيعة موضوعاتها ان لم يكن لها عناوين٠

ومدخل للخرائط ، والاعلانات ، والملصقات ، كاعلانات المسارح ، أو السينما ، أو غير ذلك مما وضعه مبدعون معروفون في القطر أو غير معروفين ٠

ومدخل للمصنفات الأجنبية التي تتعلق بالمكتوبات المنتمية الى القطر في الفن الذي أفرد له ذلك الجزء ، وترتب عناوين الكتب على حروف المعجم، وتذكر لغاتها ويعرف إن أمكن بمؤلفيها والجهات التي أصدرتها وتواريخ صدورها ٠

مدخل للمجلات ، والدوريات والنشرات ، والمقالات ، والأحاديث الأجنبية الهامة ، وأبواب أو فصول أو فقر من كتب أجنبية لها صلة بالموضوع الاقليمي الذي خصص له ذلك الجزء من الفهرس الوصفي ، ويختار لهذه المواد ترتيب يتناسب مع عناوين المنشورات أو طبيعة المكتوبات الأجنبية ٠

الرابع عشر : يذيل الجزء الخاص بفن من الفنون من الفهرس الوصفي بفهارس لتيسير الكشف عن محتوياته ، وتضم :

١ ــ فهرس مداخل الفنون والموضوعات الفرعية التي اشتمل عليها الجزء.
٢ ــ فهرس أسماء واضعي المكتوبات ٠
٣ ــ فهرس عنوانات المكتوبات والمرسومات وما في بابها ٠
٤ ــ فهرس المظان التي ورد للمكتوبات ومؤلفيها فيها ذكر ٠
٥ ــ فهرس أسماء الجهات والدور التي نشرت المكتوبات ٠
٦ ــ فهرس أسماء الأماكن التي هي مظان وجود المخطوطات للمكتوبات المنتمية الى القطر ٠

الخامس عشر : يعتبر اخراج الفهرس الوصفي عملا جارياً مستمراً بالتذييل عليه كلما دعت الحاجة الى ذلك ، ويحددزمن للتذييل وفقاً لمقدار ما قد يُكتشف أو يتجدد من مواد ومعطيات تستأهل أن يذيل بها على الفهرس .

وحين تتوفر معطيات تفوق طبيعة التذييل وتتكرر التذييلات أكثر من مرة تصدر طبعة جديدة للفهرس حين يرى القائمون على اصداره ضرورة لذلك .

* * *

هذا ما نراه سبيلا لاخراج فهرس وطني ، ولعلنا فيه قد استوفينا كل الجوانب والأبعاد التي تستقيم بها الدقة والوضوح وتيسير الوصول .

وثمة طرائق أخرى لوضع الفهرسة الوصفية الوطنية تبدو لنا أنها لا ترقى الى ما تصورناه وذهبنا اليه في طريقتنا السابقة حسن تنظيم ودقة ترتيب وتيسير انتفاع .

فمن تلك الطرائق :

١ ـ طريقة قريبة من السبيل الذي اخترناه لوضع الفهرس الوصفي الوطني ، الا أنها تختلف عنه بأن تجعل فيها الفهرسة قسمين :

أولهما : فهرسة وصفية وطنية راجعة : يُدرج فيها انحداراً منذ عرفت الكتابة حتى المعاصرة وقد تعتمد فيها مداخل على العصور .

ثانيهما : فهرسة وصفية وطنية جارية . وقد تقدم الكلام على هذين الضربين . وينتهج في كل منهما السبيل نفسه الذي اتبع في الفهرسة الوصفية الوطنية الموحدة من حيث عرض المواد ،واختيار المداخل .

وتأتي هذه الطريقة في المرتبة الثانية أهمية من حيث الدقة والافادة ..

٢ ـ طريقة أخرى : تعتمد في تنظيمها أسماء المؤلفين مرتبة على الحروف ثم يثبت بين يدي كل مؤلف فهرسة وصفية لمكتوباته دون نظر الى فرز المكتوبات ومؤلفيها وفق فنونها وموضوعاتها ويترجم فيها للمؤلفين ، وتوصف المكتوبات أيضاً .

٣ ـ وثالثة في الطرائق : يعتمد فيها جعل الفهرسة سرداً أو ثبتاً بأسماء المكتوبات الوطنية وعناوينها وترتب على الحروف ، ثم توصف بايجاز وتعزى كل مكتوبة الى واضعها ومؤلفها ويعرف به بايجاز شديد أيضاً •

وهاتان الطريقتان الثانية والثالثة أيسر مأخذاً وأقل عناء في الوضع والتنظيم والاخراج الا أنهما تقصران قصوراً شديداً عن المرتجى من شمول الاحاطة ودقة التنظيم ، وبالتالي من تيسير وصول الدارسين والباحثين الى طلبتهم من النفع والفائدة •

* * *

ولعل هذا المنهاج الذي اخترناه وحاولنا فيه احكام التنظيم وايضاح السبيل يستقيم به اخراج فهرس وصفي وطني يلملم ما تشعث من التراث المعرفي المكتوب ، وما أنتجته قرائح المبدعين والمفكرين والعلماء من أهل الاقليم الذي وضع له ذلك الفهرس منذ علم الله الانسان بالقلم ما لم يعلم الى يوم الناس هذا • يقدم ذلك للعلماء والباحثين في شؤون حضارة الانسان مادة منظومة في سلك قويم يقيمون بها نافع الدراسات من ناحية ، ويكون الفهرس الوصفي الوطني من ناحية أخرى ركنا في صرح الفهرسة الوصفية القومية والاسلامية حين بنائه ان شاء الله •

د• عدنان درويش

* * *

من أعلام التراث

ابن رواحة الحموي
حياته وشعره

محمد عدنان قيطاز*

ربما كان ابن رواحة الحموي أبرز شعراء القرن السادس الهجري لما في شعره من قيمة تاريخية • ومن المؤكد أنه رصد في شعره حركة الحروب الصليبية من خلال أماديحه لنور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي. ولئن ورث عن جده الثامن عبدالله بن رواحة شاعر الرسول ﷺ شرف البيان وكرامة الايمان ، فقد ورث عنه أيضا نعمة الشهادة وهي مجادة في الدنيا وسعادة في الآخرة ، فالجد قضى شهيدا يوم مؤته على أيدي الروم ، والحفيد قضى يوم مرج عكا على أيدي الصليبيين• فمن هو ابن رواحة الحموي •• ؟

☐ التعريف بالشاعر :

يذكر ابن واصل الحموي في تاريخه (مفرج الكروب) أن اسمه : الحسين بن عبدالله بن الحسين بن رواحة بن ابراهيم بن عبدالله بن رواحة بن عبيد بن محمد بن عبدالله بن رواحة الأنصاري الخزرجي ، وهذه النسبة نقلها ابن واصل من نسخة بخط ابن رواحة الذي نحن بصدد الحديث عنه(١) ، بينما اقتصر مؤرخون آخرون على نسبة مختصرة(٢)، وقد آثرت تسجيل النسب الكامل مرفوعاً الى جده الثامن شاعر الرسول عليه السلام تحقيقاً لمقولة العماد الأصبهاني عن شاعر حماة بأنه : في الشهادة والشعر معرق ، فطرفه الأعلى يوم مؤتة مع جعفر الطيار ، وطرفه الأقرب يوم عكا في لقاء الكفار(٣) • وقد أجمع على ذلك عدد من المؤرخين •

غير أن أبا شامة في تاريخه يشكك في صحة هذه النسبة ، ويرى أن ابن رواحة الحموي ليس من أولاد ابن رواحة الصحابي لأنه لم يعقب ، وانما في أجداده من اسمه

(*) باحث واديب من سورية •

رواحة(٤) ٠ وسواء أكان هذا الزعم صحيحاً أم غير صحيح فانه لا يقدح من قيمة الشاعر ، والاعتداد بالأنساب ليس منقبة يحمد عليها أصحابها في كل حال ٠

□ ولادته ونشاته العلمية :

ولد أبو علي الحسين بن رواحة سنة ٥١٥ هـ(٥) في بيت عماده العلم وقوامه الفضل ، فقد نشأ في كنف أبيه الشيخ أبي محمد عبدالله، وكان رجلا صالحاً متفقهاً في الدين ، وله خطابة الجامع في حماة ، لذلك كان شاعرحماة يعرف بابن خطيب حماة(٦) فأخذ ابن رواحة عن أبيه حب العلم وأهله ، وتلقى على يديه كلمات هي أفضل ما ينحلها والد لولده .

ولما شب ابن رواحة عن الطوق رحل الى دمشق طلباً للعلم ، فاقام بها مدة طمعاً في لقاء أئمة العصر في الحديث والفقه الشافعي ،واجتمع بالحافظ أبي القاسم المشهور بابن عساكر صاحب تاريخ دمشق ، فسمع منه ومن عمه(٧) ، كما سمع بها من أبي المظفر الفلكي وأبي الحسن علي بن سليمان المرادي والصائن هبة الله ٠٠ وآخرين غيرهم من أرباب العلم والأدب(٨) ثم عاد الى حماة وأقام بها للاحتساب واقراء فقه الشافعي والآداب(٩) ٠

□ اقباله على نور الدين زنكي :

كانت حماة في الثلث الثاني من القرن السادس الهجري تحت حكم عماد الدين زنكي بعد أن استخلصها من اسماعيل بن بوري صاحب دمشق ، وبقيت في أيدي الزنكيين حتى سنة ٥٧٠ هـ حيث ملكها صلاح الدين الأيوبي ٠ ولذلك تسنى لابن رواحة أن يعاصر جملة من الأحداث الهامة في العهد الزنكي كان من أبرزها قتال نور الدين زنكي للصليبيين ٠

ويبدو أن ابن رواحة كان معجباً بشخصية نور الدين وأعماله الاصلاحية ومواقفه في الدفاع عن الدين والعرين ، وهذا ما دفعه الى كثرة التردد على نور الدين بعد أن عرفه في حماة ، فكان يزوره كل عام ويمدحه بقصائده التي رصد فيها كثيراً من وقائع نور الدين مع الصليبيين ٠ ومن المؤكد أن نور الدين كان يطرب لشعر ابن رواحة ويقبل عليه ، وقد جعل له ما جعل لغيره من العطايا والهبات انعاماً متصلا(١٠) ٠

□ اتصاله بالفاطمية وأسره من قبل الفرنج:

لم يقتصر ابن رواحة في مدحه على نور الدين ، وانما قصد مصر سنة ٥٥٥ هـ واتصل بالخليفة العاضد ووزيره الصالح بن رزيك ومدحهما ، فأحسنا اليه احساناً كثيراً(١١) ٠

وقد اهتبل ابن رواحة فرصة وجوده في مصر ، فاقبل على العلم ينهل نهلا من مصادره الثقات على أيدي طائفة من أئمة العصر في مصر والاسكندرية ، فجمع في هذه الرحلة بين فضيلة العلم وفضيلة الأدب ٠

ولما حانت ساعة العودة الى حماة ركب سفينة متجهة الى ساحل بلاد الشام ، ولكن السفينة تعرضت للأسر من قبل فرنج صقلية ، وبقي ابن رواحة أسيراً عندهم مدة غير معلومة ، حتى « توصل بسحر الشعراء الى حل عقدته ونشط عقلته » على حد تعبير

العماد الأصبهاني(١٢) وعاد ابن رواحة الى حماة واستقر فيها ثانية · غير أن كتب الأدب والتراجم لم تحفظ لنا شيئاً من أشعاره إبان تلك الفترة الا النذر اليسير ، ولعل ذلك يعود الى أن شهرة ابن رواحة لم تذع الا في عهد صلاح الدين الأيوبي ·

☐ صحبته للناصر صلاح الدين واستشهاده :

ولما آلت بلاد الشام الى الحكم الأيوبي بعد انقراض العهد الزنكي على يد صلاح الدين سنة ٥٧٠ هـ اجتذبت شخصية البطل الجديد شاعر حماة وأعجب ببسالته ونبالته ، وكان مرور صلاح الدين من حماة باعثاً له على الانطلاق والتغني بأمجاد الأيوبيين وانتصاراتهم على الصليبيين ، فرحل ابن رواحة الى مصر ، ومَثَل بين يدي صلاح الدين الذي طرب لأماديحه كما طرب الشاعر لأعطياته ، وكلاهما كان خليقاً أن يعطي ما استودع وما طُبع عليه · وقد بلغ اعجاب ابن رواحة بصاحبه مبلغاً كبيراً دفعه الى مرافقة الناصر صلاح الدين ومصاحبة الجند في معاركهم متمنياً على الله الشهادة ، ويؤكد ذلك ما قاله ابن رواحة عندما زار قبر النبي عليه السلام في رحلة الحج :

يا خاتم الرسل سل الله لي خاتمةً محمودة العاقبة
ولا تردنّ يدي بعد ما مددتها مستشفعاً خائبه

ويذكر ابن واصل في تاريخه أن ابن رواحة عندما نام رأى النبي عليه السلام وهو يقول : قبلت يا بن رواحة(١٧) · فقبل الله شفاعة رسوله فيه ، وقبضه اليه شهيداً بمرج عكا سنة ٥٨٥ هـ وذلك عندما قام الفرنج صلاح الدين لنجدة أهلها ، وكان على ميمنته بحصار مدينة عكا ، فهب السلطان الناصر تقي الدين عمر صاحب حماة مع رجاله الأشاوس من أبناء حماة الذين شاركوا في تحرير القدس من ربقة الصليبيين ·

ولعل ابن رواحة كان يطمح الى موقع القيادة كما كان جده الثامن في موقعة مؤتة ، ولكن ·· اذا حرم القيادة فلن يحرم الشهادة وهي غايته ومناه ، ويشاء الله أن تكتب له الشهادة كما كتبت لجده شاعر الرسول عليه السلام ، فقط على أرض المعركة وهو ابن سبعين بعد أن دفع ضريبة الدم من أجل تحرير الأرض المقدسة من غاصبيها ·

☐ أغراضه الشعرية :

ترك ابن رواحة مجموعة من الأشعار لم تنتظم في ديوان ، فضاع العديد من قصائده ، ولم يسلم منها سوى قدر ضئيل تضمنته كتب الأدب والتاريخ والتراجم ، ومعظمها في المدح والرثاء والغزل · وربما كانت الأماديح تشكل القسم الأعظم من شعره · فقد مدح على التوالي : نور الدين زنكي والخليفة الفاطمي العاضد ووزيره الصالح بن رزيّك ، ثم وقف شعره على الناصر صلاح الدين بطل حطين ومحرر القدس من الصليبيين ، ولكن أصدق شعره عاطفة وأروعه بياناً ما كان في مدح الرسول الكريم ، من ذلك قوله في رحلة الحج وزيارة النبي عليه السلام :

دع العيس في طيّ الفلا تبلغ المدى — فقد ألهمت أن المسير على هدى
لقد غَنيَت بالقصد عن جاذب السرى — كما شغفت بالشوق عن سائق الحدا
سرت فرأت طيب المعرّس في السرى — وعدّت ظما التأويب في الخمس موردا
أعدّ لها في قبضها بأناملي — يداً ٠٠ كلما ألقت الى يثرب يدا
ولم أر في الأيام يوماً مباركاً — عليّ كيوم زرت فيه محمدا(١٤)

والقصيدة طويلة كما يقول صاحب مفرج الكروب ، وتذكرنا بقصيدة الأعشى عندما همّ بالوفادة على الرسول الكريم والتي يقول فيها :

فآليت لا أرثي لها من كلالة — ولا من وجى حتى تلاقي محمدا(١٥)

وربما كانت قصيدة ابن رواحة معارضة لقصيدة الأعشى ، بل اني أرجح ذلك ، والموازنة بين القصيدتين لا مكان لها في هذه العجالة ٠

واذا كان شعر المدح عند ابن رواحة أقل جودة وفنية من شعر ابن التعاويذي(١٦) وهو معاصر له ، فان لشعر ابن رواحة قيمة تاريخية ذات بال عند المهتمين بأحداث التاريخ ، فقد أفلح ابن رواحة في تصوير حال الفرنج من خلال قصائده التي سجل فيها انتصارات نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي على الصليبيين ، كما استطاع أن يقدم وصفاً لما كانت عليه أوضاعهم السياسية والاجتماعية والدينية والعسكرية ٠ ولعل قصيدة ابن رواحة في مدح صلاح الدين من القصائد التي أضفت على الوقائع التاريخية روعة وجلالا ، من ذلك قوله :

لقد خبر التجارب منه عزمٌ — وقلب دهره ظهراً لبطن
فكف الكفر أن يطغى بمكر — يحير كل ذي فكر وذهن
فساق الى الفرنج الخيل براً — وأدركهم على بحر بسفن(١٧)

ومنها قوله يصف السبي بعد وصول صلاح الدين الى دمياط والاسكندرية :

لقد جلب الجواري بالجواري — يمدّنَ بكل قدّ مرجحنّ
زهتْ إسكندرية يوم سيقوا — ودمياطٌ الى المينا بغبن(١٨)

كما يصف خوف الفرنج من صلاح الدين، وما يصاحب ذلك الخوف من جزع في الليل وهلع في النهار ، حتى كانت أقصى أمانيهم بلوغ الأمان حباً بالعافية :

يرون خياله كالطيف يسري — فلو هجعوا أتاهم بعد وهن
أبادهمُ تخوفه فامسى — مناهم لو يبيتهم بامن(١٩)

ويشير ابن رواحة في تلك القصيدة الى طائفة من الفرنج هي « الداوية » وكان أتباعها من عتاة الصليبيين المحاربين الذين أخضعوا أنفسهم لقانون الرهبان البندكتيين(٢٠) فزهدوا في الحياة الدنيا ،وانصرفوا الى معابدهم وعباداتهم،وأعرضوا عن مقاربة النساء ، وقصروا حياتهم على الحرب والعبادة ، ولذلك كان يطلق عليهم اسم « فرسان المعبد » أو « فرسان هيكل سليمان » • وهذه الاشارة في شعر ابن رواحة جاءت في قوله :

أرى داوية الكفار خافت ... بـه داء يضعف كل متن
أبوا نسلاً مخافة نسل بنت ... تفارق دينهم أو قتلة ابن
فقد عقموا بـه من غير عقم ... كما جبنوا بـه من غير جبن(٢١)

أما شعر الرثاء فقد كان مقتصراً على من كان يعرفه من أهل العلم والفضل ، وربما كانت قصيدته في رثاء استاذه عالم دمشق ومؤرخها ابن عساكر من مطولات ابن رواحة، فقد حرص أن يذكر فيها فضائل ومآثر ابن عساكر ، وخدماته الجلى في سبيل اعلاء كلمة الدين • ويعد ابن رواحة أن المصاب بابن عساكر هو مصاب الاسلام والمسلمين ، وقد ذكر منها ياقوت الحموي في معجمه ثلاثة وأربعين بيتاً(٢٢) وأوردها كاملة صاحب تهذيب ابن عساكر(٢٣) • ويرى بعض النقاد أن القصيدة كلام قد رص رصاً على أنه رص أميل الى السقوط منه الى البقاء • غير أني أرى أن القصيدة تمثل أنموذجاً من أدب الفقهاء لا أدب الشعراء ، والقصيدة لا تخلو من تكلف وصنعة ، وأروع ما جاء فيها قوله :

خلت سنة المختار من ذبّ ناصر ... فايسر ما لاقيت بدعة جاهل
وكم قد أبان الحق في كل محفل ... فاروى بما يروي ظلماء المحافل
وسد من التجسيم باب ضلالة ... وردّ من التشبيه شبهة باطل
وان يك قد أودى فكم من أسنة ... مركّبة من قوله في عوامل
أرى الأجر في نوحي عليه ولا أرى ... سوى الاثم في نوح البواكي الثواكل
وليس الذي يبكي اماماً لدينه ... كباك لدنياه على فقد راحل(٢٤)

ويبدو أن ابن رواحة في غزلياته • • تشبيباً ونسيباً • • أرق عاطفة وأرقى ديباجة، وأقرب الى شعر الطبع منه الى شعر الصنعة ،ولكنه لا يفلت من الأثر الفقهي الذي طبع عليه الشاعر الفقيه ، وهذا الأثر كثيراً ما يكبح خيال الشاعر الجامح ، ويكتم في ضلوعه صوت الشعر • من ذلك قوله :

ان كان يحلو لديك قتلي ... فزد من الهجر في عذابي
عسى يطيل الوقوف بيني ... وبينك الله في الحساب(٢٥)

وابن رواحة كغيره من الشعراء يرى الحب طريقاً الى السعادة في حال التواصل ، وطريقاً الى الشهادة في حال الحرمان من لذاذات الاتصال . وربما كان ابن رواحة ـ وهو الشاعر الفقيه ـ متأثر بما حفظ لنا من أدب النبوة « من أحب فعف فمات ، مات شهيداً » وذلك حين يقول :

لاموا عليك وما دروا ... أن الهوى سبب السعادة

ان كان وصل .. فالمنى ... أو كان هجر .. فالشهادة(٢٦)

ولكن الشاعر بما طبع عليه من زهد سرعان ما ينصرف عن الحب ، ويرى أن في الهجر والوصل اضاعة للدنيا والآخرة معاً ، وفي ذلك الضلال المبين . أسمعه وهو يخاطب قلبه :

يا قلب دع عنك الهوى قسرا ... ما أنت منه حامد أمرا

أضعت دنياك بهجرانه ... ان نلت وصلا ضاعت الأخرى(٢٧)

وقد يروق له الضلال ، فينهج في شعره نهجاً نواسياً حتى لتتحد غزليات النسوية بالغلامية .. من ذلك قوله :

مالي على السلوان عنك معول ... فالام يتعب في هواك العذل

يزداد حبك كل يوم جدة ... وكأن آخره بقلبي أول

أصبحت ناراً للمحب وجنة ... خداك جمر غضا وريقك سلسل

لك لين أغصان النقا لو لنت لي ... ولك اعتدال قوامه لو تعدل(٢٨)

ويبقى هذا اللون من الغزل الغلامي دليلا على صدق الصورة التي تنعكس في مرآة الشعر عن الحياة اليومية ونزعات أهل الأهواء ونزغاتهم الشيطانية ، وان بدا لوناً غير شهي على مائدة الأدب العربي .

□ مذهبه الشعري :

جرى ابن رواحة في قصائده مجرى الشعراء القدماء غير مخالف أو مجانف لما عرفه العرب في القصيدة العمودية ، فهو يبدأ عادة بالغزل ثم ينتقل بعد ذلك الى الغرض من نظم الشعر سواء أكان مدحاً أم غيره من ضروب الشعر .

ويبدو أن ابن رواحة كان مولعاً في شعره باستخدام الصور البيانية والزخارف البديعية والمحسنات اللفظية والمعنوية ، شأنه في ذلك شأن الكثيرين من الشعراء الذين أخذتهم بهارج الصنعة البديعية فظلوا عليها عاكفين . وكان من آثار هذه البهارج اللفظية انتشار الألغاز والمعميات في الشعر العربي ، ولعل ابن رواحة كان من جيل الرواد في الأحاجي الشعرية ، وقد أورد له العماد الأصبهاني عدداً من المقطعات الحسان(٢٩) .

وجدير بالذكر أن الأثر الديني أوالفقهي يبدو واضحاً في شعر ابن رواحة ، ولعل الشواهد التي ذكرناها آنفاً تغني عن ذكر المزيد ·

وقد أوجز العماد الأصبهاني القول في شعر ابن رواحة مقرظاً لا ناقداً ، وبين التقريظ والنقد شوط بعيد ، وفي مقولة العماد الأصبهاني نلمح عين الرضى ، اذ جاء في الخريدة قوله : شعر ابن رواحة روح الشعر وروح السر ، وريحان أهل الأدب ، وراحة ذوي التعب · معنى لائق ، ورويّ شائق ، وكلام فائق ، وأسلوب موافق · سمح الغريزة ، سهل النحيزة ··· لا يتكلف صنعة ، ولا يتعسف صيغة ، ولا يركب الا الذلول الذي يسلف العقول · ان أقصد بلغ المقصد ، وان أقطع أحسن المطلع والمقطع ، وان نسب أهبّ نسيم النسيب ومتأرج الريا ، وان تغزّل شبّه بالغزالة والغزال الحبيب المتبلج المحيّا(٣٠) ·

·· وبعد : فهل أحسن ابن رواحة في صيده الشعري عندما طار محلقاً في سماء ملكوت الشعر ، أم أنه لم يكن ذلك البازي الذي أراده بقوله :

وللزنبور والبازي جميعاً لدى الطيران أجنحة وخفق
ولكن بين ما يصطاد باز وما يصطاده الزنبور فرق(٣١)

ان لم يكن كذلك ·· فحسب ابن رواحة شرفاً مدح النبي عليه السلام ، ومجد الشهادة على بطاح فلسطين ·

* * *

حواشي البحث :

١ ـ مفرج الكروب ٢ : ٣٠٠ ·
٢ ـ معجم الأدباء ١٠ : ٤٦ ، تهذيب ابن عساكر ٤ : ٣٠٢ ، فوات الوفيات ١ : ٢٧٥ ·
٣ ـ الفتح القسي : ٣١٨ ·
٤ ـ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ٢ : ١٤٧ ·
٥ ـ الوافي بالوفيات ـ الجزء الحادي عشر ـ مصورات مجمع اللغة العربية رقم ٨٧ ·
٦ ـ المرجع السابق ·
٧ ـ معجم الأدباء ١٠ : ٤٦ ·
٨ ـ الوافي بالوفيات ـ الجزء الحادي عشر ـ مصورات مجمع اللغة العربية رقم ٨٧ ·
٩ ـ خريدة القصر ١ : ٤٨٢ ·
١٠ ـ المرجع السابق ·
١١ ـ مفرج الكروب ٢ : ٣٠١ ·
١٢ ـ خريدة القصر ١ : ٤٨٢ ، مفرج الكروب ٢ : ٣٠١ ·
١٣ ـ مفرج الكروب ٢ : ٣٠١ ـ ٣٠٢ ·
١٤ ـ المرجع السابق ·
١٥ ـ شرح ديوان الأعشى : ٤٧ ـ ٤٨ ·
١٦ ـ هو أبو الفتح محمد بن عبدالله ، شاعر مشهور تقدم على شعراء العراق ، نسب الى التعاويذي جده لأمه نشأ في حجره ، توفي سنة ٥٨٤ هـ (شذرات الذهب ٤ : ٢٨١) ·
١٧ ـ خريدة القصر ١ : ٤٩٢ ·
١٨ ـ المرجع السابق ·
١٩ ـ المرجع السابق ·
٢٠ ـ لمزيد من التفصيل حول قاعدة القديس بندكت يمكن الرجوع الى ما كتبه وعربه الدكتور نور الدين حاطوم في كتابه القيم « تاريخ العصر الوسيط : ١٤١ وما تلاها » ·
٢١ ـ خريدة القصر ١ : ٤٩٥ ·

٢٢ ـ معجم الأدباء ١٠ : ٤٨ ـ ٥٤ ٠
٢٣ ـ تهذيب ابن عساكر ٤ : ٣٠٢ ٠
٢٤ ـ معجم الأدباء ١٠ : ٥١ ـ ٥٢ ٠
٢٥ ـ فوات الوفيات ١ : ٢٧٦ ، معجم الأدباء ١٠ : ٥٥ ، خريدة القصر ١ : ٤٨٣ ٠
٢٦ ـ معجم الأدباء ١٠ : ٥٥ ، فوات الوفيات ١ : ٢٧٥ وفيه :
ان كان وصلا فالمنى او كان هجرا فالشهادة
٢٧ ـ المرجعان السابقان ، وفي فوات الوفيات تغيير طفيف في رواية البيتين ٠
٢٨ ـ خريدة القصر ١ : ٤٨٤ ٠
٢٩ ـ المرجع السابق ١ : ٤٨٨ ـ ٤٨٩ ٠
٣٠ ـ المرجع السابق ١ : ٤٨٢ ٠
٣١ ـ معجم الأدباء ١٠ : ٥٦ ٠

* * *

مصادر البحث :

١ ـ الاعلام (ج ٢) : خير الدين الزركلي ـ مطبعة كوستاتوماس بمصر ١٩٥٤ ٠

٢ ـ تهذيب ابن عساكر (ج ٤) تصحيح عبد القادر بدران ـ مطبعة روضة الشام ١٣٣٢ هـ ٠

٣ ـ خريدة القصر وجريدة العصر (ج ١) عماد الدين الأصفهاني (٥٩٧) هـ ـ تحقيق الدكتور شكري فيصل ـ مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٥٥ ٠

٤ ـ شذرات الذهب في اخبار من ذهب (ج ٤) : ابن العماد الحنبلي (١٠٨٩) هـ ـ الطبعة الثانية ـ بيروت ١٩٧٩ ٠

٥ ـ الفتح القسي في الفتح القدسي : العماد الأصفهاني (٥٩٧) هـ ـ تحقيق محمد محمود صبح ـ طبعة الدارالقومية للطباعة والنشر ـ مصر ١٩٦٥ ٠

٦ ـ فوات الوفيات (ج ١) : ابن شاكر الكتبي (٧٦٤)هـ ـ تحقيق محي الدين عبدالحميد ـ مطبعة السعادة ـ القاهرة ١٩٥١ ٠

٧ ـ كتاب الروضتين في اخبار الدولتين (ج ٢) : عبدالرحمن بن اسماعيل المقدسي الملقب بأبي شامة (٦٦٥) هـ ـ القاهرة ١٢٨٧ هـ ٠

٨ ـ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (ج ٢) : ابن واصل الحموي (٦٩٧) هـ ـ تحقيق جمال الدين الشيال ـ القاهرة ١٩٥٣ ٠

٩ ـ معجم الأدباء (ج ١٠) : ياقوت الحموي (٦٢٦) هـ ـ طبعة دار المامون ـ مصر ١٩٣٧ ٠

١٠ ـ الوافي بالوفيات : صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي (٧٦٤) هـ ـ الجزء الحادي عشر مصورات مجمع اللغة العربية بدمشق رقم ٨٧ ٠

* * *

عمرو بن أحمر الباهلي

الشاعر المخضرم

محمد محيي الدين مينو*

إن لابن أحمر مكانة مهمة في لغة العرب وديوانهم ، اذ كان شاعراً فصيحا مُقدما على غيره من الشعراء المخضرمين في فنون الشعر وغريبه ، فاستُشهد على اللغة بشعره كثيراً ، حتى لا يكاد مصدر من مصادرها يخلو من بيت له ، وجعله غير واحد من النقاد القدامى فوق طبقته ، ومع هذا غفل عنه مؤرخو الأدب ودارسوه ، فلم يحظ باهتمام علمي ، يليق بمكانته لدى القدماء ، فمن ابن أحمر ؟•

١ ـ نسبه وأسرته :

ان شاعرنا هو عمرو بن أحمر الباهلي من بني معن بن مالك بن أعصُر(١) ، ولا خلاف في ذلك ، ولكن الخلاف نجده في نسب ابن أحمر الذي يصل بينه وبين «معن بن مالك أعصر » • فأبو زيد القرشي في جمهرة أشعار العرب ، والمرزباني في معجم الشعراء أوردا نسبه على هذا النحو : « عمرو بن أحمر بن العمرَّد بن عامر بن عبد شمس بن عبد بن فرَّاص بن معن بن مالك بن أعصر »(٢) ،وأورد نسبه ابن سلام في طبقات فحول الشعراء(٣) ، وأبو الفرج في الأغاني(٤) ،والآمدي في المؤتلف والمختلف(٥) ، والمرزباني مرة أخرى في معجم الشعراء(٦) ، وابن حجر في الاصابة(٧) ، والزبيدي في التاج(٨) ، ولكن ثمة شيئاً من الاختلاف بين هذه المصادر،فقد ورد عند ابن سلام والمرزباني وابن حجر(٩) : « العمرَّد بن تميم بن ربيعة ابن حرام بن فرَّاص » ، وعند أبي الفرج : « عبد شمس بن فرَّاص » ، وعند الآمدي :« عبد بن قدام بن قرَّاص » بالقاف ، وهو تصحيف ، ونقل الآمدي عن ابن الكلبي ما أورده في جمهرة النسب ، فقال : « عامر بن عمرو بن عبيد بن قرَّاص » ، وورد عند الزبيدي : « العمرَّد بن عمرو بن فرَّاص » •

واختصر نسبه ابن قتيبة في الشعر والشعراء(١٠) ، والبكري في سمط اللآلىء(١١)، والبطليوسي في الاقتضاب(١٢) ، وقالوا : « عمرو بن أحمر بن فرّاص بن معن » ، وقال ابن الجراح : « عمرو بن أحمر بن العمرّد الباهلي من بني فرّاص »(١٣) .

وتتفق هذه المصادر كلها على أن ابن أحمر من بني فراص بن معن ، ولكن الخلاف الغريب انما يطالعنا فيما أورده ابن الشجري في أماليه ، اذ قال : « هو عمرو بن أحمر بن العمرّد بن عامر بن عبد شمس بن معن بن مالك بن أعصر بن سعد بن قيس عيلان بن مضر »(١٤) . وهذا النسب غريب ، تفرد به ابن الشجري في أماليه ، ثم نقله عنه البغدادي في خزانة الأدب(١٥) ، ولم نقف على أثر له في غير الأمالي والخزانة، فابن الشجري يجعل « عبد شمس بن معن » ، فيختصر حلقة بارزة من حلقات نسب ابن أحمد ، وهي فيما أورده القرشي والمرزباني : (عبد بن فراص »(١٦) ، اذ ليس في أولاد معن بن مالك من سمي عبد شمس(١٧) .

والمهم أن ابن أحمر من بني فراص بن معن بن مالك بن أعصر ، وأما كنيته ، فلم نجد له سوى كنية واحدة ، اذ كان « يكنى أبا الخطاب »(١٨) ، ولكنه لم يكن يعرف بكنيته أو بلقبه ، وانما يذكر باسمه ، فيقال : ابن أحمر ، فيميز بينه وبين من سمي باسمه من الشعراء ، ولهذا يراه الطيالسي ممن « عرف باسمه دون لقبه »(١٩)، ويؤكد ذلك ابن الأثير في المرصع ، فيذكره في الأبناء من معجمه ،ويقول : «ابن أحمر : هو عمرو بن أحمر الباهلي ، شاعر معروف ، يستشهد على اللغة بشعره كثيراً ، فيقال : ابن أحمر ، ولا يذكر له اسم »(٢٠) .

واذا سألنا صاحب المؤتلف والمختلف عمن عرف باسم « ابن أحمر » في ديوان العرب ، فسنظفر بثلاثة شعراء ، يعرفون به غير ابن أحمر الباهلي ، وأحدهم : « ابن أحمر البَجلي ثم العَتكي ، أحد بني العَتيك بن الرَّبعة بن مالك بن سعد بن زيد بن قَسر بن عَبقر بن أنمار ابن إراش بن عمرو بن الغَوث بن الفزر بن نَبت بن زيد بن كهلان بن سبأ . وابن أحمر هذا إسلامي قديم ،وشاعر مجيد ، وصاف للحيات ، وعلى قوله احتذت الشعراء ، وهو القائل :

قد كاد يأكلني أصمّ مرقّش... « القصيدة »(٢١) .

والآخر : « ابن أحمر الكِناني ، وهو هُنَي بن أحمر من بني الحارث بن مُرّة بن عبد مناة ابن كِنانة بن خُزيمة ، جاهلي ،وهو القائل :

[يا] ضَمْر أخبرني ولست بمخبري ... (القصيدة) »(٢٢) .

والثالث : « ابن أحمر الايادي ، ولم يقع الي من شعره كبير شيء ،ووجدت له في كتاب إياد بيتاً واحداً ، وهو :

هل يَنْهيَنَّكَ عن نُوك وعن حمق مَن بالجزيرة من بُرد ودُعْمي»(٢٣)

وتتبعت سائر من يقال له : « ابن أحمر» في ديوان شعرنا العربي (٢٤) ، فوجدت المرزباني في معجم الشعراء يذكر اثنين منهم، وأحدهم : « عوف بن عبد الله بن الأحمر الأزدي : شهد مع علي ــ عليه السلام ــ صفين، وله قصيدة طويلة ، رثى فيها الحسين ، عليه السلام ، وحض الشيعة على الطلب بدمه، وكانت هذه المرثية تخبأ أيام بني أمية ، انما خرجت بعد ذلك ، قاله ابن الكلبي ، فيها :

ونحن سمونا لابن هند بجَحْفل ٠٠٠٠ (القصيدة) »(٢٥) ٠

والأخر : « عطاء بن أحمر المديني : أحد ظرفاء المدينة المعدودين ، يسير الشعر ضعيفه ، له قصيدة يذم فيها جواري القيان ، أولها :

لا تعتبن على القيان ولا تَرِد ود؟ القيان فانهن تِجار »(٢٦) ٠

ولعل ابن أحمر هذا هو الشاعر نفسه الذي روى له الوشّاء في الموشّى(٢٧) قصيدة رائية ، يذم فيها القيان ، ويصف ظرفه معهن، ولعله الظريف نفسه الذي عناه الجاحظ بقوله: « ولو أن رجلا ألزق نادرة بأبي الحارث جمّين والهيثم بن مطهر وبمزبّد وابن أحمر، ثم كانت باردة لجرت على أحسن ما يكون»(٢٨) ٠ ويبدو أن هذا الشاعر الظريف قد حظي بكبير اهتمام ، فجمع بعضهم أخباره ونوادره في كتابين ، يذكر ابن النديم في الفهرست(٢٩) أحدهما ــ وهو « كتاب ابن أحمر » ــ في (أحاديث البطالين لا يعرف من صنفها) ، والأخر ــ وهو « نوادر ابن أحمر » ــ في (أسماء قوم من المغفلين ألف في نوادرهم الكتب) ، فلا يساورنا أدنى شك في اضطراب بين هذا الشاعر المغفل وشاعرنا ابن أحمر الباهلي ٠

واذا أردنا البحث عن أسرة ابن أحمر لم يكن ذلك بالأمر الميسور ، اذ اننا لا نجد حديثاً واضحاً عن أسرته في مصادرنا القديمة ، وكل ما نعرفه أشتات بسيطة ، لا تكاد تبرز جوانب صورة بيت شاعرنا بوضوح ٠

والظاهر أن ابن أحمر عاش في بيت متواضع ، لا يمتاز بشيء من صيت أو شهرة، شأنه في ذلك شأن قبيلته باهلة ، والرواة لا يذكرون شيئاً من أخبار أجداده غير ما حدثنا اليزيدي عنه ، فقال : « كان العَمَرَّد جد عمرو بن أحمر الباهلي ، فطعن رجل يزيد بن الصَّعِق ، فعرجت في وقعة كانت بينهم »(٣٠) ، ثم أنشد اليزيدي في تلك الوقعة رجزاً، يُروى لابن أحمر وعمه تميم بن العمرد معاً، فقال(٣١) :

أبي الذي أَخْنَبَ رجل ابن الصَّعِق
اذ كانت الخيل كعِلباء العُنُق
ولم يكن يرده الجِبْس الحَمِق

وسواء أصح هذا الرجز لتميم بن العمرد أم لم يصح ، فان الطيّالسي أنشد له شعراً في أعشى بني بَيْبَة ، فقال(٣٢) :

فمن مُبلغ أعشى بني بَيْب أنني   وان ضَجَّ مني بالذي خاف واقـع
لك الويل ما يدريك علَّ اجتماعنا   لظهركَ في يوم الحفيظة مانع(٣٣)

والرواة ما كانوا لينسبوا شيئاً اليه لولم يدركوا له شعراً قليلاكان أم كثيراً،فالأرجح أن عمه كان شاعراً ، ولعل والد ابن أحمركان يرتجز كأخيه تميم ، فقد روى أبو عمرو الشيباني هذا الرجز لأبي العمود(٣٤) :

تشكو الى الأدنَيْن والأقارب
من أسد في الرَّحْل غير كاسب
ليث على ما جمَّعت قُراضِب(٥٣)

فاذا صح لدينا أنه اختص بهذه الكنية دون سائر اخوته ، فاننا نؤكد أنه كان يرتجز حقاً ، ولكن المصادر لا تسعفنا بالخبر اليقين ،فيبقى الأمر مجرد ظن بحت .

وروى ابن بري شعراً مضطرباً بين ابن أحمر والأزرق بن طرفة بن العمرد بن الفَرَّاصي(٣٦) ، فلعل الأزرق ابن عمه كان شاعراً أيضاً ، وابن السيرافي يحدثنا عنه ، فيقول : « تنازع ناس من بني باهلة مع بني فَرَّاص وناس من بني قُرَّة بن حبيرة بن سَلَمة بن قُشير ، حتى صاروا الى السلطان، فقال بعض القشيريين للسلطان : إن الأزرق بن طرفة ــ وهو من بني باهلة ــ لص بن لص، ليُغروه به ، فقال قصيدة ، فيها :

رماني بأمر كنت منه ووالدي   بريئاً ومن أجل الطَّوِي رماني
دعانيَ لصاً من لصوص وما دعا   بها والدي فيما مضى رجلان »(٣٧)

وأما والد ابن أحمر واخوته ، فلم نعثر على شيء من أخبارهم غير ما أورده ابن رشيق في العمدة والد ابن أحمر واخوته ، فلم نعثر على شيء من أخبارهم غير ما أورده ابن رشيق في العمدة ، فسمى أخوين له في مَن لم يُعرق في الشعر ، فقال : « عمرو بن أحمر ، وأخواه: سنان وسيَّار »(٣٨) ، وفي كلام ابن رشيق ما يدل على أن بيت ابن أحمر لم يكن مُعْرقاً في الشعر ، فليس في أيدينا من الدلائل ما يشير الى أن والده وجده كانا شاعرين ، أو أن هذا الأمر قد تكرر في أولاده وأحفاده .

واذا دلفنا الى بيت ابن أحمر نفسه ،فان المصادر القديمة لا تسعفنا بشيء من الأخبار حول زوجه وأبنائه ، ولكننا نعرف أنه كان متزوجاً ، وأن العلاقة بينه وبين زوجه كانت غير ودية ، وذلك مما أنشده الأنباري ،فقال : « قال ابن أحمر يذكر امرأته :

رمتني بهَوْرات الذنوب وباعدت   فراشي فيا للناس ماذا يُليقها »(٣٩)

ويبدو أن هذه العلاقة قد انتهت بالطلاق، فهو يذكر أنها كانت ترجو في الطوائف زوجاً آخر سواه ، فتتركه منبوذاً وحيداً :

أمست تَخَيَّر في الأشياع أيهمُ   ترضىوأمسيتُ بوأ نائياً جَسَدا(٤٠)

ولهذا نراه يرغب بها عن كل مسترخ مستكين ، ويرغّب اليها كل أريحي شجاع ، و « يقول لامرأته »(٤١) :

فـلا تصلـي بمطـروق اذا مـا ... سـرى في الرّكب أصبح مُستكينا
مطيـع لا يُطـاع ولا يُبـالـي ... أغَثّـاً كـان حالـكِ أم سَمينـا
يظـل أمـام بيتـك مُجرعِبًـا ... كمـا ألقيـت بالمَتـن الوضينـا
اذا شـرب المُرضّـة قـال أوكي ... على مـا في سِقائـك قـد روينا
اذا اشتـد الزمـان أكَبّ لَغْيـا ... فـلا قِدْحـا يـدر ولا لَبـونـا
وكـونـي ان هلكـت لأريحـي ... مـن الفتيـان لا يضحي بطينـا
كـأن الصقـر يقلب مقلتيـه ... اذا نفض العيـوب وقـد خفينـا
كـأن الليـل لا يأتـي عليـه ... اذا زجـر السـبنداة الأمـونـا
يصيـب مغـارمـا في القوم قصدا ... وهـن لغـيـره لا يبتغينـا
فمـا كلفتـك القـدر المغبـى ... ولا الطـير الذي لا تعبرينـا(٤٢)

ونقع على رواية أخرى للأبيات ، تنشدها بعض المصادر ، وتقول : « فبلي يا غني بأريحي »(٤٣) ، فنعرف أن هذه الزوج كانت تدعى غنية ، ولكن ابن أحمر رخمها ، فقال : غني ، ومما يؤكد ذلك أن هذه التسمية قـدذكرها غير مرة في شعر آخر له ، فقال :

زعمـت غنيـة أن أكثـر لمتـي ... شـيب وهـان بذاك ما لـم تزدد
لمـا رأت غـريـا هجائن وسطها ... مرحتوجالت فيالصراح الأبعد(٤٤)

وقال :

ومـا بيضـاء في نضـد تداعـى ... ببـرق في عـوارض قـد شـرينا
يضـيء صبيـرهـا في ذي حبـي ... جـواشـن ليلهـا بينـا فبينـا
بأحسـن من غنيّـة يـوم راحـت ... وجارتهـا ومـن أم البنينـا(٤٥)

ولعلنا نلمح في هذا الشعر سبباً مهمـاً مـن أسـباب الخـلاف بينهما ، فهـو شـيخ طاعن في السن ، يشكو ــ كما سنرى ــ عوراً في عينـه وسقياً في بطنه ، وهي امرأة شابة ، تمـرح بنشاطها وحيويتهـا ، فتتمـادى فيمواجهته والاستخفاف به ٠

وابن أحمر يذكر في شعره نساء أخريات ، هن : ليلى والحارثية ومي وخنساء وكنانية وجدوى ، ولا ندري من أمرهن شيئاً غير هذهالأسماء التي قد تكون لامرأة واحدة ، يكني بها عن اسمها الحقيقي الذي يريده ٠

٢ ـ نشاته وصلاته :

اذا كانت المصادر القديمة قد ضنت علينا بأخبار أهل بيته وأحوالهم ، فحياته لم تكن بأوفر حظاً من ذلك ، فقد شغلت هذه المصادر بما أتى به من حروف الغريب والفصيح واللغة ، وأغفلت أخبار نشاته ومراحل حياته ، فلا نكاد نجد شيئاً من سيرته الأولى .

ولهذا فنحن لا ندري متى ولد ، وكيف شب وتدرج ، ومع ذلك كله لا بد لنا أن نلتمس شيئاً عن نشاته من خلال ما عثرنا عليه من أخبار يسيرة في أضعاف تلك المصادر ، وما نجده في قصائد ابن أحمر نفسه .

وأقدم ما نجده من اشارات الى نشاته الأولى ما رواه ابن قتيبة عن أبي عمرو بن العلاء (١٥٤ هـ) ، فقال : « قال أبو عمرو بن العلاء : كان ابن أحمر في أفصح بقعة من الأرض أهلا ، يذبل والقعاقع ، يعني مولده قبل أن ينزل الجزيرة ونواحيها »(٤٦) ، فنشأ هذا الطفل الأعرابي في أحضان بادية نجد ، وتهيات له سبل الفصاحة ، حتى أمكن له أن يكون « صحيح الكلام كثير الغريب »(٤٧) ، ثم يكون « الشاعر الفصيح » الذي يتقدم شعراء أهل زمانه(٤٨) . وان كان أبو عمرو بن العلاء قد حدد مولده بنجد ، فليس من مصدر آخر يحدد بوضوح الزمن الذي ولد فيه ابن أحمر ، ولكن ثمة اتفاقاً بين العلماء على أنه « من شعراء الجاهلية »(٤٩) ، فمما لا شك فيه أنه عاش طفولته وشطراً من شبابه قبل الاسلام ، حتى كان شاعراً « من شعراء الجاهلية المعدودين »(٥٠) ، قال فيها قصائد كثيرة ، ولعل معنى ذلك أنه كان في نحو العشرين من عمره على أقل تقدير ، واذا كان ابن أحمر قد أدرك العقد الأول من ولاية عبد الملك بن مروان (٧٣ ـ ٨٦ هـ)(٥١) حين شكا ظلم السعاة الى يحيى بن الحكم بن أبي العاص ، واليه على المدينة سنة خمس وسبعين للهجرة(٥٢) ، فهذا يعني أنه قد عمّر نحو خمس وتسعين ، ويؤكد هذا أيضاً أنه قد ولد قبل الهجرة بنحو عشرين سنة .

ويكاد هذا الشطر من حياته يكون غامضاً أشد الغموض ، وذلك لأننا لا نعرف خبراً واحداً ، يضيء لنا جانباً ما من جوانب هذه الفترة التي قضاها في الجاهلية ، ولهذا نضطر الى أن نستقرىء شعره ، فنراه في أغلب قصائده يتحسر على أيام شبابه ، ويندب ما يلاقيه من صروف الدهر ، وفي هذا ما يدل على أن تلك القصائد لم تنظم الا في فترة متأخرة من حياته ، واذا ما بحثنا في شعره عن ذكريات الشباب ، فاننا لا نجد سوى ذكرى مجلس لهو وشراب ، لا يدانيه في سموه غير مجالس الملوك ، وهو يصطخب بغناء القيان وموسيقى العود والصنج ، ويعبق بريح الكؤوس والقدور :

ولقد غدوت وما يفزّعني   خوف أحاذره ولا ذعر
رؤد الشباب كأنني غصن   بحرام مكة ناعم نضر
كشراب قيل عن مطيته   ولكل أمر واقع قدر

مـد النهـار لـه وطـال عليـه الليـل واستنعت به الغمـر
ومسـقـة دهمـاء داجنـة ركـدت وأسبل دونهـا الستر
وجـرادتـان تغنيـانهـم وتـلألأ المـرجـان والشـذر
ومجلجـل دان زبـرجـده حـدب كمـا يتحـدب الدبـر
وتـّـان حنـّـانان بينهمـا وتـر أجـش غنـاؤه زمر(٥٣)

ولما خمدت نشوة الذكرى ، وأحس ابن أحمر أن الشباب قد ولى ، بدا للشاعر الحكيم أن طريق اللهو بطل وضلالة :

خلوا طـريق الديدبـون فقـد ولى الصبا وتفاوت النجر(٥٤)

ويبدو من خلال قوله : « كأنني غصـن بحرام مكة ناعم نضر » أن هذا الفتى النجدي كان يرتحل الى الحجاز ، ولكننا لا نقـوى على تحديد ذلك بوضوح ودقة ، وذلك لأننا لا نجد من أخبار تلك الرحلات الا مثل هـذه الاشارة الى بعض بلاد الحجاز •

وهذا المجلس الوحيد في شعره ينم عـن شباب فتى ، لم يكن ماجناً ، اذا ما قورن بما نراه من طرفة بن العبد وامرىء القيس مثلا ، أو بما يعرفه ابن أحمـر نفسـه عن الملـك الضليل ولهوه بهند وهر وفرتني •

وأما قصائد الشـباب ، أو ما قالـه في الجاهلية ، فقد كان كثيراً ، حتى ان الأصفهاني قال : « قال في الجاهليـة والاسـلام شـعراً كثيرا »(٥٥) ، ولكنه لم يصل الينا منه سـوى أبيات يسيرة ، ترتبط بأحداث جاهلية معينة ، لا نجد بين أيدينا وسيلة الى تحديد زمنهـا بدقة ، ولعل أوضح مثال نسوقه هنا ما أنشده ابن أحمر في سلّى ، وهو يوم لباهلة على بني ضبـة ، فقال :

منى لك أن تلقى ابن هنـد منيـة وفـارس ميـاس اذا مـا تلببـا
وجحلا أبا عمرو وقرة ذا النـدى وزهـراً وغـلاّقاً ويا لك مقنبـا
عرانـين من عبد بن غنـم أبوهـم هجـان فسامى في الهجـان وأنجبا
فوارس سلّى يـوم سلى وسـاجر اذا هرّت الخيل الحـديد المذرّبا
لدن غـدوة حتـى كـرون عشـية وقـربـن حتى ما يجـدن مقرّبا
تداركن حيـا من نمير بن عامـر أسـارى تسـام الذل قتلا ومحربا
فلـم أر يومـا كان أكثـر غـارة وشمسا أبت أطنابها أن تقضبا(٥٦)

وأمام تلك الأشتات التي نلملمها مـن أضعاف كتب اللغة والأدب لا نكون مغالين اذا ما قلنا : ان طائفة مهمة مما قاله ابن أحمر في الجاهلية قد فقدت ، شأنه في ذلك شأن كثير من شعراء الجاهلية الذين أغفل ذلك الجانب المهم حياتهم •

وقد حاول الدكتور حسين عطوان أن يقول شيئاً في هذا الأمر ، فزعم « أن ما بقي من شعره لا ينبىء بأنه قال شعراً كثيراً أو قليلاً في الجهلية ، وقد تكون بعض أشعاره التي نظمها في الجاهلية قد ضاعت ، ولم تصل الينا »(٥٧)، الا أن الدكتور عطوان في مناقشته هذا الأمر كان حازماً جازماً ، فقال الكلمة الأخيرة في أشتات ، لايملك أمامها الباحث غير أن يتريث ، حتى يقف على نسخة من ديوان ابن أحمر ، نرجو أن يجود بها الزمان ٠

واذا ما نظرنا الى علاقة ابن أحمر بقومه ، وهو في مطلع شبابه ، لم نجدها ودية ، وربما أوشكت أن تصل الى حد خلعه وهدردمه ، ويذكر ذلك على لسان زوجه ، فيقول :

تقول حليلتي بَشَراءَ إنا ... نأينا أن نزور وان نُزارا
عليكَ الجانب الوحشي اني ... سمعت لقومنا حَلِفا حَرارا
لئن ورد السُّمار لنقتلنه ... فلا وأبيكَ لا أرد السمارا
أخاف بَوائقا تسري إلينا ... من الأشياء سراً أو جَهارا(٥٨)

والمصادر القديمة لا تسعفنا بالأسباب ، ولكن القصيدة ذاتها تشير الى طرف خفي من هذا الخلاف ، اذ بدا أن قريباً له نال من عرضه قدحاً وذماً ، فهجاه ابن أحمر ، وقال :

أرانا لا يزال لنا حميمٌ ... كداء البطن سِلاً أو صُفارا
يعالج عاقراً أعيت عليه ... ليُلقحَها فينتجها حُوارا
يدنس عرضه لينال عرضي ... أبا دَغْفاءَ ولَّدْها فقارا
ويزعم انه ناز علينا ... بِشرّته فتاركْنا تَبارا(٥٩)

ويظهر أن ابن أحمر لم يسلم في غمرة هذا الخلاف من بوائق قومه ، ويذكر الرواة أن مَخْشِيّاً - ولعله أحد رجالهم - رماه بسهم، ففقأ عينه(٦٠) ، ففرح لئام قومه بما أصابه :

تُسائل بابن أحمرَ من رآه ... أعارت عينه أم لم تَعارا
فان يفرح بما لاقيتُ قومي ... لئامهم فلم أكثر حِوارا(٦١)

ونظن أن ذاك الخلاف اضطر ابن أحمر الى أن يودع ركابه رجلا من بني سعد، ويذكر ابن دريد هذا ، ويقول : « كان ابن أحمر أودع إبله وراعيها رجلا من بني سعد ، فأغار عليها قوم منهم ، فأخذوها ، ولم يسع الخفير فيها »(٦٢) ، فهجاهم ، وقال :

لا صابَ جارهمُ الربيع ولا ... زادت حُمولته على عَشْر
طرق الخَناسِرةَ اللئام فلم ... يسع الخفير بناقة القَسْر

لو كنتُ ذا علم علمتُ وكيف لي ... بالعلم بعد تدبُّر الأمر
لو بي تحمّست الركاب إذا ... ما خانني حَسَبي ولا وَفْري(٦٣)

ثم تهددهم بداهية عظيمة ، تأتيهم ، فتصمهم ، ان لم يردوا عليه إبله ، وقال :

فردّوا ما لديكم من ركابي ... ولما تأتكم صَمّي صَمامِ(٦٤)

ويبدو أن ابن أحمر كان صاحب رعي وركاب ، يخرج وراعيه القَسْر(٦٥) بها الى المرعى ، كما يقول :

انكَ لو رأيتني والقَسْرا ... مُجَشّرِيْنَ قد رعينا شهرا
لم تر في الناس رِعاءً جَشْرا ... أتمَّ منا قَصَبا وسيرا(٦٦)

ويذكر اسم راع آخر له ، هو كنّاز(٦٧)، ويدعو عليه بالهلاك ، فيقول :

أقول لكنّاز تدكّلْ فانه ... أبا لا أظن الضأنَ منه نَواجيا
فمالك من أروى تعاديْت بالعمى ... ولاقيت كَلاّبا مُطِلاً وراميا(٦٨)

ثم أستبدل بالرعي حين نزل الجزيرةحياةً حضرية ، لم تعجب هذا البدوي :

تبدلتَ إصطبلاً وتلاً وجرة ... وديكا اذا ما آنس الفجرَ فَرْفَرا
وبستانَ ذي ثورين لا لينَ عنده ... اذا ماطغى ناطوره وتغَشْمرا(٦٩)

وأما في كهولة ابن أحمر ، فالذي يبدوأنه كان ضعيف الصلة بأكثر الأحداث في عصره وبأكثر الأمراء والخلفاء الذين عاصرهم ،فاذاكنا قد وجدنا أبياتاً معدودة ، يمدح فيها ابن أحمر خليفة ، أو يثني على أمير ، فليس ثمةما يشير الى أنه قد اتصل حقيقة بهؤلاء . والمصادر القديمة لا تنكر لابن أحمر صلاتـه ببعض رجال عصره وأحداثه ، وهي صلات تكاد تكون غير وثيقة ، أو أن أخبارها قد انقطعت ، فلم يصلنا منها غير القليل القليل .

ففي فهد النبوة لا نعرف البتة لابن أحمر مشاركة في الدعوة الاسلامية ، ولا نعلم متى أسلم ، وكيف كان اسلامه ، واذاسألنا ابن حجر عن اسلامه وصحبته وجدناه في الاصابة يجعله في قسم المخضرمين من الصحابة وينقل عن المرزباني قوله : « هو مخضرم ، أدرك الجاهلية والاسلام ، فأسلم »(٧٠) .

ولابن أحمر في الاسلام فضل كبير ، فقدكان أحد الفرسان المجاهدين في الفتوح الاسلامية ، ويذكر ابن الجرّاح أنه « أسلم ،وغزا مغازي الروم،وأصيب بعينه هناك»(٧١) ويرى المرزباني هذا فيقول : « غزا مغازي الروم ، وأصيبت احدى عينيه هناك »(٧٢) ويروي أبو الفرج أنه « كان في خيل خالد بن الوليد حين وجه أبوبكر خالداً الى الشام»(٧٣) وينشد في خالد ، رضي الله عنه ، قوله :

اذا قال سيف الله كروا عليهم ... كررتُ بقلب رابط الجأش صارم(٧٤)

ونظن أن ابن أحمر نزل الشام(٧٥) في هذه الفترة من الفتوح ، اذ ليس من وسيلة الى تحديد زمن نزوله مع عشيرته جزيرة الشام وانتقالهم من البداوة والرعي الى نمط جديد من الحياة ، لم يكن ابن أحمر راضياً عنه .

وأما علاقته بالخلفاء الراشدين ، فقد ذكر الأصفهاني أنه « لم يأت أبا بكر »(٧٦) ، والمصادر لا تروي له شيئاً في مدحه والثناء عليه .

ويبدو أنه لم يأت أيضاً عمر بن الخطاب، رضي الله عنه ، ولكنه أثنى عليه وعلى قومه بقصيدة طويلة ، ينشد أبو الفرج بعض مابقي من أبياتها ، فيقول : « قال في عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، قصيدة له طويلة جيدة :

أدركت آل أبي حَفص وأسرته ... وقبل ذاك ودهراً بعده كَلِبا
قد ترتمي بقواف بيننا دول ... بين الهَنَاتَيْن لا جداً ولا لعبا
الله يعلم ما قولي وقولهم ... إذ يركبون جَنَاناً مُسْهِباً وربا»(٧٧)

ونجد صاحب الأغاني ينشد له في عثمان، فيقول : « وقال في عثمان بن عفان ، رضي الله عنه :

حُنْتَي فليس الى عثمان مُرتَجَع ... إلا العَداءُ والا مَكْنَعٌ ضَرِرُ
إخالها سمعت عزفاً فتحسبه ... إهابةَ القَسْر ليلاً حين تنتشر»(٧٨)

فكأن أبا الفرج يظن أن ابن أحمر قد قال هذا الشعر في مدح عثمان بن عفان ، ولو نظرنا نظرة شاملة الى مشوبة ابن أحمر التي أوردها القرشي في الجمهرة(٧٩) والى موضع هذين البيتين منها ، لعرفنا أن القصيدة ليست في ابن عفان بالذات ، وانما في يحيى بن الحكم بن أبي العاص ، ولعل المقصود بعثمان هنا أحد عمال الصدقات الذين يشكو ابن أحمر الى ابن أبي العاص ظلمهم وعَسْفهم .

واذا كانت المصادر لم ترو له شيئاً في مدح عثمان بن عفان ، فالظاهر أنه كان عثماني الهوى ، انحاز الى المطالبين بدمه والمعادين لعلي بن أبي طالب ، ويدل على ذلك أمران ، أحدهما أنه استشفع لنفسه عند أبي الحسن برسالة ، لم يبق منها غير بيت واحد ، يرويه صاحب الأغاني ، فيقول : « قال في علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه :

من مبلغ مالكاً عني أبا حسن ... فارتح لخصم هداك الله مظلوم(٨٠)

والآخر أنه كان مقرباً من النعمان بن بشير الأنصاري(٨١) ، أحد أشهر من مالوا الى معاوية بن أبي سفيان ضد علي بن أبي طالب(٨٢) ، ومدحه ابن أحمر بقصيدة من غرر قصائده(٨٣) .

والمصادر تضن بأخبار ابن أحمر خلال اضطراب الأحوال السياسية في تلك الفترة الحاسمة من تاريخنا العربي الاسلامي ، فكأنه لاذ بالصمت حتى خلافة يزيد بن معاوية (٦٠ ـ ٦٤)(٨٤) ، إذ رأينا صلته بهذا الخليفة غير ودية ، فابن أحمر وقومه ربما لم يسعوا بالولاء ليزيد حين توفي معاوية ، وبويع له قسراً ، شأنهم في ذلك شأن أهل الحجاز الذين أخذوا البيعة بالخلافة لعبدالله بن الزبير بمكة سنة أربع وستين للهجرة(٨٥) ، وربما وقفوا منه موقف عداء ، فاستخف ابن أحمر به ، وشق عصا الطاعة ، فقال :

أبا خالد هدّ خميلك لن ترى	بعينيك وفداً آخر الدهر جائيا
ولا طاعة حتى تشاجر بالقنا	قنا ورجالا عاقدين النواصيا
فلا يأتنا منكم كتاب بروعة	فلن تعدموا من سائر الناس راعيا(٨٦)

ولما اتصل بيزيد عن ابن أحمر أنه هجاه طلبه ، فلم يجد شاعرنا سبيلا غير الاعتذار اليه والفرار من سطوته وعقابه ، وهو يتبرأ من هجاء جرب ، نسب اليه ، وناله شره ، ثم ينكر حكم هذا القضاء الجائر ، ويقول :

وان قال غاو من تنوخ قصيدة	بها جرب عدت علي بزوبرا
وينطقها غيري وأكلف حملها	فهذا قضاء حقه أن يغيرا(٨٧)

وتتفق المصادر على أن ابن أحمر قد فر من يزيد بن معاوية ، ولعل أقدم اشارة الى هذا ما ذكره التبريزي في تعليقه على البيتين السابقين ، فقال : « كان ابن أحمر ادعي عليه أنه هجا يزيد بن معاوية ، فطلبه ابن حاطب ، فأخذه ، وقيده ثم أفلت »(٨٨) ، وقال التبريزي ثانية في تعليقه على أبيات أخرى من القصيدة نفسها : « قال هذا في هربه من أمير ، كان طلبه ، ليحمل الى يزيد بن معاوية ، وكان يزيد بلغه أن ابن أحمر هجاه ، فطلبه ابن حاطب ، ليحمله الى يزيد ، فهرب منه »(٨٩) . ولما شعر ابن أحمر أن يزيد يجد في طلبه ، ويسعى الى محاربة معارضيه في الحجاز ، لم يجد من الرحيل عن الشام بداً ، ورأى أن يعود الى قومه ، لينتصر بهم ، فأتى البصرة في طريقه الى الأبلة(٩٠) ، وقال :

أخبر من لاقيت أني مبصّر	وكائن ترى قبلي من الناس بصّرا
صددت صدوداً عن جبابر حاطب	صدود ابن كسرى عن صدود ابن قيصرا
وقلت له لما قضى جلّ ما قضى	وطار خباء فوقنا فتجوّرا
جزى الله قومي بالأبلّة نصرة	وبدواً لهم حول الفراض وحضّرا
هم خلطوني بالنفوس وأشفقوا	علي ورددوا البختري المؤمّرا(٩١)

وهناك أحس ابن أحمر بالطمأنينة والأمان ، فيزيد لن ينال منه ، ولن يقدر عليه ، والبغدادي في خزانة الأدب يرى أن يزيد « أراد أن يأخذه ، ففر منه ، ولم يقدر عليه »(٩٢) ، فكأنه استقرأ ذلك مما قاله ابن أحمر نفسه :

اذا ما جعلت السر بيني وبينه فليس على قتلي يزيد بقادر(٩٣)

وهكذا يلوذ ابن أحمر بقومه ، وولاية يزيد توشك أن تنتهي بموته عام (٦٤هـ)(٩٤)، وتنقطع أخباره طوال فترة الصراع بين الزبيريين ، فلعله لم يكن يقوى على المشاركة في الأحداث السياسية ، وقد بلغ به العمر ما بلغ، وأصاب منه المرض ما أصاب .

ويظهر أن الأيام لم تصلح ما فسد بينه وبين بني أمية ، فلا نعرف له صلة بهم ، الا أن صاحب الأغاني يذكر أن ابن أحمر أدرك خلافة عبدالملك بن مروان (٧٣-٨٦ هـ)(٩٥)، وأنشد شعراً فيه ، ويقول أبو الفرج : « قال في الجاهلية والاسلام شعراً كثيراً وفي الخلفاء الذين أدركهم : عمر بن الخطاب فمن دونه الى عبدالملك بن مروان »(٩٦) ، ولكننا لم نجد له شعراً في خلافة عبدالملك غير قصيدة ، قالها في يحيى بن الحكم بن أبي العاص ، والي المدينة لعبد الملك بن مروان ، وهي المشوبة التي اختارها من شعره أبو زيد القرشي في جمهرة أشعار العرب(٩٧) ، فصانها من يد الحدثان ، وهذه القصيدة تعد آخر ما نجد له من شعر سياسي ، يرجع الى أيام كهولته التي قضاها في قومه ، فكان لا بد أن تظهر فيها بعض معالم شيخوخته ، فهو « شيخ شموس »(٩٨) في « الثماني من التسعين »(٩٩)، يستغيث من جور السعاة على قومه وظلمهم بابن أبي العاص ، فلا يبدو من خلال شكواه الا سيداً من سادات قومه ولساناً معبراً عن حالهم ، فيخاطب يحيى بكل حكمة وكل جرأة قائلا :

يا يحيى يا بن امام الناس أهلكنا	**ضرب الجلود وعسر المال والعسر**
ان قمت يا بن أبي العاصي بحاجتنا	**فما لحاجتنا ورد ولا صدر**
اني أعوذ بما عاذ النبي به	**وبالخليفة أن لا تقبل العذر**
من مترفيكم وأصحاب لنا معهم	**لا يعدلون ولا نأبى فننتصر**
فان تقر علينا جور مظلمة	**لم تبن بيتاً على أمثالها مضر**
لا تنس يوم أبي الدرداء مشهدنا	**وقبل ذلك أيام لنا أخر(١٠٠)**

وبذلك نجد أن ابن أحمر قد نشأ أعرابياً في نجد ، وارتحل فاتحاً الى الشام ، ونزل الجزيرة، وامتدت به الحياة الى الشطر الأكبر من القرن الهجري الأول ، ولكنه يكاد يكون ضعيف الصلة بأحداث عصره ورجاله .

٣ ـ عوره ووفاته :

جعل أبو العلاء المعري ابن القارح يطوف في نعيم « رسالة الغفران » ، فيلقى ابن أحمر في قوم عور ، فقال : « بينا هو يطوف في رياض الجنة لقيه خمسة نفر على خمس

أينق ، فيقول : ما رأيت أحسن من عيونكم في أهل الجنان ! فمن أنتم ، خلد عليكم النعيم؟ فيقولون : نحن عوران قيس : تميم بن مقبل العجلاني ، وعمرو بن أحمر الباهلي[١]، والشماخ معقل بن ضرار ، أحد بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان ، وراعي الابل عبيد بن الحصين النميري ، وحميد بن ثور الهلالي »(١٠١) .

وتتفق كلمة العلماء على ذلك الوصف فنراهم يذكرون ابن أحمر في عوران قيس(١٠٢) ، الا أن ابن قتيبة في المعارف(١٠٣) يورده في الصحابة العور ، وأن ابن سيده في المخصص يورده في عوران العرب ، ويقول :« عوران العرب خمسة : تميم بن أبي بن مقبل ، والراعي ، والشماخ بن ضرار ، وابن أحمر ، وحميد بن ثور الهلالي »(١٠٤) ، فاذا لم يكن ثمة تحريف أصاب عبارة ابن سيده فلاشك أنه يقصد هنا عوران قيس ، لأن عوران العرب كثر(١٠٥) ، وابن سيده نفسه في المحكم(١٠٦) يتفق والعلماء الآخرين في أن عوران قيس خمسة شعراء عور ، ولكنه يستبدل الراعي النميري بالأعور الشني .

وأما عور ابن أحمر ، فليس خلقيا ، واذا ما سألنا المصادر عن أسبابه فاننا نقف على خبرين متباينين ، أحدهما رواه ابن الجراح في من سمي من الشعراء عمراً ، والمرزباني في معجم الشعراء ، وأما الأول ، فقد قال :« أسلم ، وغزا مغازي الروم ، وأصيب بعينه هناك »(١٠٧) ، وأما الآخر ، فقد قال :« غزا مغازي الروم ، وأصيبت احدى عينيه هناك »(١٠٨) ، والخبر الآخر يرويه ابن قتيبة في الشعر والشعراء ، ويقول : كان أعور ، رماه رجل ، يقال له : مخشي ، بسهم ، فذهبت عينه »(١٠٩) ، ويرويه البطليوسي في الاقتضاب ، ويقول : « كان رماه رجل ، يقال له : مخشي ، بسهم ، ففقأ عينه »(١١٠) .

ويبدو أن الرأي الأول يبعد كثيرا ، اذليس له ما يؤيده في شعر ابن أحمر ، وأما الرأي الآخر ، فهو نتيجة استقراء واضحة فيما يقوله ابن أحمر نفسه :

شلت أنامل مخشي فلا جبرت ... ولا استعان بضاحي كفه أبدا
أصارني سهمه أعشى وغادره ... سيف ابن أحمر يشكو الرأس والكبدا
أهوى لها مشقصا حشرا فشبرقها ... وكنت أدعو قذاها الاثمد القودا
أعشو بعين وأخرى قد أضر بها ... ريب الزمان فامسى ضوؤها خمدا(١١١)

ويظهر أن مخشيا هذا أصاب ابن أحمر بعينه في غمرة خلافه مع قومه اصابة حقد وضغينة ، فرح بها لئامهم :

تسائل بابن أحمر من رآه ... أعارت عينه أم لم تعارا
فان يفرح بما لاقيت قومي ... لئامهم فلم أكثر حوارا(١١٢)

وكان لهذه العلة أثر جارح في نفسه ،فقد كانت رمية نافذة ، أصابت كبرياءه ، وملأت فؤاده حسرة وأسى :

ولا تقولن زهواً ما تخبرني لم يترك الشيب لي زهواً ولا العور(١١٣)

وهذا الاحساس بالعور تفرد به ابن أحمر ، ولم نقف على أثر له في غير شعره ، فاذا عوران قيس كانوا خمسة شعراء ، فان أصحابه الأربعة لم يكونوا البتة يشعرون بالعور شعور ابن أحمر ذاته ، وربما يرجع ذلك الى أن هذه العلة كانت خلقية فيهم ، بينما نجدها طارئة على ابن أحمر ، لا نملك وسيلة الى تحديد زمانها بدقة ووضوح ، ونظن أنها كانت في مطلع شبابه ، وهو في غمرة خلافه مع قومه ٠

وعلة شاعرنا لم تكن العور فحسب ، وانما يذكر ابن أحمر نفسه أن الماء الأصفر أصابه في شيخوخته ، فعالجه بالكي والشكاعى(١١٤) ، فلم يبرأ وتحت وطأة المرض وشدته يتوسل ابن أحمر الى الله منهكاً ، يرجو البرء أو الموت :

اليك اله الحق أرفع رغبتي عياذاً وخوفاً أن تطيل ضمانيا
فان كان برءاً فاجعل البرء نعمة وان كان فيضاً فاقض ماأنت قاضيا
لقاؤك خير من ضمان وفتنة وقد عشت أياماً وعشت لياليا
أرجي شباباً مطرهماً وصحة وكيف رجاء المرء ما ليس لاقيا
وكيف وقد جربت تسعين حجة وضم فؤادي نوطة هي ماهيا
وفي كل عام يدعوان أطبة الي وما يجدون الا الهواهيا
فان تحسما عرقاً من الداء تتركا الى جنبه عرقاً من الداء ساقيا
فلا تحرقا جلدي سواء عليكما أداويتما العصرين أم لا تداويا
شربت الشكاعى والتددت ألدة وأقبلت أفواه العروق المكاويا
لأنساً في عمري قليلا وما أرى لدائي ان لم يشفه الله شافيا
شربنا وداوينا وما كان ضرنا اذا الله حم القدر ألا تداويا(١٥١)

والرواة ينشدون هذا الشعر ، ويقولون: كان ابن أحمر قد سُقي بطنه(١١٦) ، فلا يضيفون الى ما قاله شيئاً ، ولكن ابن قتيبة يجعل هذا السَّقي سبباً لوفاته ، فيقول ، « سُقي بطنه ، فمات »(١١٧) ٠

وهكذا كان السقي مرضه الذي مات فيه بعد أن بلغ عمراً طويلا ، فقد جرب ــ على حد تعبيره ــ تسعين حجة ، وبلى أعمامه وأخواله ، فابن أحمر كان معمراً مخضرماً ، جاوز التسعين من العمر قبل أن توافيه المنية٠

والرواة لم يتفقوا على العهد الذي أدركه ابن أحمر ، بل نجدهم يسكتون عن سنة وفاته ، والزركلي من المحدثين أول من يذهب الى أنه توفي نحو ٦٥ هـ ــ ٦٨٥م(١١٨)، فيجعل وفاته عام بايع أهل الشام عبد الملك بن مروان ، ولعل خبراً في الأغاني ، أوحى اليه بهذا الزعم ، وهو ما يتفرد الأصبهاني بروايته ، فيقول : « أدرك الاسلام ، وأسلم، وقال في الجاهلية والاسلام شعراً كثيراً ومن الذين أدركهم : عمر بن الخطاب فمن دونه

الى عهد عبد الملك بن مروان »(١١٩) ، وكان الزركلي لم يقف على ذاك الشعر الذي لم يقله ابن أحمر في ابن مروان بالذات ، وانما قاله في يحيى بن الحكم بن أبي العاص ، واليه على المدينة سنة خمس وسبعون للهجرة(١٢٠)، ليعرف أن حياة ابن أحمر امتدت الى ما بعد السنة الخامسة والستين للهجرة بعشر سنوات على أقل تقدير ٠

ثم نرى الأستاذ الدكتور رضوان محمدحسين النجار يذهب الى أنه « توفي سنة ٧٥ للهجرة تقريباً »(١٢١) ، فيجعل وفاة ابن أحمر على أعقاب شكواه الى ابن أبي العاص ، ويكون أقرب الى الصواب ٠

واذا كان الأصبهاني يجعل ابن أحمر يدرك ابن مروان ، فاننا نجد رأياً آخر ، يتفرد به ابن الجراح ، فيقول : « توفي على عهد رسول الله ﷺ »(١٢٢) ، ثم نجد رأياً ثالثاً يتفرد به أيضاً المرزباني ، فيقول : «توفي على عهد عثمان ، رضي الله عنه ، بعد أن بلغ سناً عالية »(١٢٣) ٠

ورأى ابن الجراح والمرزباني غريب ، يطيح للوهلة الأولى بجملة حقائق ، يراها الباحث في حياة ابن أحمر وشعره ، فاذا كان قد توفي على عهد النبي ، ﷺ ، أو على عهد عثمان ، رضي الله عنه ، فعثمان قُتل سنة خمس وثلاثين للهجرة(١٢٤) ، ونحن نجد لابن أحمر صلات بمن جاء بعده من الخلفاء ، فقد ذكرنا أنه قال شعراً في علي بن أبي طالب ، كرم الله وجهه ، ثم هجا يزيد بن معاوية ، وشكا ظلم السُعاة الى ابن ابي العاص ، والي ابن مروان على المدينة ٠ وهذا الشعر لا يرقى اليه شك ، بل لا نجد سبباً لاثارة أدنى شك حوله ، فالرواة يتفقون على أن ابن أحمر « ادّعي عليه أنه هجا يزيد بن معاوية ، فطلبه ابن حاطب ، فأخذه ، وقيده ، ثم أفلت »(١٢٥) ، وابن احمر نفسه في قصيدته التي اختارها أبو زيد القرشي في الجمهرة(١٢٦) يصرح أنه كان « في الثماني من التسعين »(١٢٧) حين شكا ظلم السُعاة الى ابن أبي العاص ، فاذا علمنا أن عبد الملك بن مروان قد ولى ابن أبي العاص على المدينة سنة خمس وسبعين للهجرة(١٢٨) ، فان ذلك يؤكد أن ابن أحمر كان في حوالي التسعين من العمر على الأقل ، والرواة يتفقون مرة أخرى على أنه كان شاعراً مخضرماً معمراً ، بلغ سناً عالية(١٢٩) ، ويتفرد ابن قتيبة عنهم بقوله في الشعر والشعراء : «عُمِّر تسعين سنة »(١٣٠) ، وفي المعاني الكبير : «كان بلغ تسعين »(١٣١) ، وهو في شعره ينوه بأنه « شيخ شآم » (١٣٢)، جرّب تسعين حجة»(١٣٣)، فيظل يتحسر على أيام شبابه ، ويظل يندب ما يلاقيه من هرم وضعف وتقدم مفرط في السن ٠

وفي هذا ما يشير الى أن ابن أحمر لم يُقبض في عهد النبي ﷺ ، ولا في عهد عثمان ، رضي الله عنه ، ولعل تحريفاً قديماً وتزيداً واضحاً أصاب عبارة المرزباني ، فمن اليسير أن تختلط عبارة « ابن مروان » بـ « عثمان » ، فيتداول نساخ معجمه هذا التحريف ، ويتزيدون بالرضا على عثمان ، ثم ينقل ذلك عن معجم الشعراء ابن حجر في الاصابة(١٣٤)، وعبد القادر البغدادي في خزانة الأدب(١٣٥) ، والمرتضى الزَّبيدي في تاج العروس(١٣٦) ،

الا أن ابن‌حجر والبغدادي يجدان أن ماقاله أبو الفرج يخالف قول المرزباني ، ولكنهما لم يكونا في معرض هذا البحث .

وهكذا فابن أحمر لم يُقبض في عهد النبي ﷺ ، ولا في عهد عثمان ، وانما امتدت به الحياة الى عهد عبد الملك بن مروان (٧٣ــ ٨٦ هـ)(١٣٧) ، فاذا كنا نرى ابن أحمر « شيخاً شموساً » في « الثماني من التسعين »عام ولي ابن العاص المدينة أو بعده بقليل ، ثم نراه يشكو سقياً ، قضى عليه ، و « قد جرّب تسعين حجة » ، فهذا يعني أنه توفي بعد ذلك عن عمر ، يتراوح بين (٩٠ و ٩٥) سنة على الأقل ، وان اتفقنا على ذلك ، فاننا نستطيع أن نقدر وفاته بين (٧٧ و ٨٢ هـ ــ٦٩٦ و ٧٠١ م) .

ان حياة ابن أحمر لا تكاد تخرج عن النمط المألوف الذي يحياه بهدوء شاعر قضى شطراً من حياته في الجاهلية وشطراً آخر في الاسلام ، فنحن لم نجد في جوانب تلك الحياة ما يمكن أن يميز ابن أحمر من غيره بين الشعراء المخضرمين الذين كان لهم دور بارز في الدعوة الجديدة ، أمثال حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وعبد الله بن الزِّبَعرى وسواهم ، الا أنه يشمخ بمنزلة أدبية رفيعة ، جعلته « يتقدم شعراء أهل زمانه »(١٣٨) .

٤ ــ شخصيته وثقافته :

ان شخصية ابن أحمر واضحة الجوانب ، لا تكاد تخرج في اطارها العام عن النمط المألوف عند أهل البادية الذين لم يكن للتعقيد دور مهم في مجتمعهم وأثر بارز في نفوسهم ، فقد كانوا بمنأى عن آثار الحضارة ومظاهرها ، فظلت طباعهم جلفة جافية . وابن أحمر أعرابي ، نشأ في بادية نجد ، ثم ارتحل فترة الى الجزيرة ، وتبدل بالبداوة والرعي حياة حضرية ، لم يكن راضياً عنها ، فاضطر أن يعود الى موطنه حيث « النصرة » و « الشفقة » على حد تعبيره(١٣٩) .

واذا كانت وسائلنا الى دراسة هذا الجانب من حياته شبه قاصرة بعد أن عرفنا أن ديوانه مفقود ، وأن المصادر لا تسعفنا بأكثر أخباره ، فليس لنا الا أن نعتمد في هذا البحث ما يقوله ابن أحمر عن نفسه ، وما يتراءى لنا من معالم ، تضافرت في تكوين شخصيته .

وهذا الجانب الأعرابي من شخصيته يبرز واضحاً من خلال ألفاظ غريبة ومعان جافية ، تبدو ظاهرة ، لفتت قدامى الباحثين اليها ، فيراه غير واحد منهم « كثير الغريب »(١٤٠) ، يذكر حروفاً ، لم يأت بها غيره من الشعراء ، ومنها « كأس رَنَوْنَاة » ، أي : دائمة ، وذلك في قوله :

بَنَتْ عليه المُلْكَ أطنابَها كأس رنوناة وطِرف طِمِر(١٤١)

وهذا الراعي النجدي قد يمتح من صميم الصحراء وأعماقها معاني دقيقة ، قل من يعرفها ، وأمثال هذا قوله :

تلسَّن أهلُه زمناً عليه رماثاً تحت مِقلات نَيُوب(١٤٢)

ونقل ابن ثعلب وابن منظور عن ابن السكيت شرحه ، فقال ثعلب : « هذا غريب ، والمعنى فيه أنهم أقاموا للناقة فصيلا ، ليستدر لبنها »(١٤٣) ، وقال ابن منظور : « هذا معنى غريب ، قلَّ من يعرفه »(١٤٤) ٠

وأمثال هذا لا يعرفه الا من تبدى ، أو اختلف فترة من الزمن الى البادية ، ولعل في هذا دليلا على جفاء هذا الأعرابي وارتباطه الوثيق بحياة الصحراء ٠

وهذا الأعرابي أسلم ، وحَسُن اسلامه، فتهذب بمكارم الأخلاق التي أتى بها هذا الدين الحنيف ، ليتمما بين عرب الجزيرة ، ولكن بقية من جاهلية ظلت في نفسه ، ولعل أبا زيد القرشي أول من تنبه على ذلك ، اذ رأى في شعره شيئاً من معالم الاسلام وشيئاً آخر من آثار الجاهلية في آن معاً ، فجعل ابن أحمر من أصحاب المشوبات التي اختارها في جمهرته من دواوين سبعة شعراء مخضرمين ، وقال : « أصحاب المشوبات ، وهن سبع اللائي شابهن الاسلام والكفر ، وهم : النابغة نابغة بني جعدة ، وكعب بن زهير ، والقطامي التغلبي ، والحطيئة العبسي ، والشماخ بن ضرار الغطفاني ، وعمرو بن أحمر وتميم بن مقبل »(١٤٥) ٠

ومن الطبيعي أن نلاحظ ذلك عند هؤلاء الأعراب الذين نشأوا في بوادي نجد ، وقضوا شطراً مهماً من حياتهم قبل الاسلام ٠ فابن أحمر ما انفك يذكر مَثَلا جاهلية عدة كطلب الوِتر وشرب الخمر وزجر الطير وكالعصبية القبلية بكل مظاهرها ، وهو يذكر مجلس شراب واحداً قبل أن ينهاه الحلم والدين عن ذلك الرجس ، وربما أشار الى شيء من اللهو والمجون ، ولكنه لا يصرح به ، وانما يورد ذلك من خلال لهو الملك الضليل ومجونه ، وهو يتحدث عما كان فيه من سفه الشباب، فيتراءى لنا ابن أحمر فتى عابثاً ، يستجيب لهوى نفسه ونوازعها ، فلا يلوي على شيء من القيم قبل أن يعلم « ماينفع مما يضر » :

بل ودعيني طفل إني بكر ... فقد دنا الصبح فما أنتظر
آن تغضب الكأس لما قد أنت ... إن أداة الكأس شيء نكِر
إن امرأ القيس على عهده ... في إرث ما كان أبوه حُجُر
بنَّت عله المُلك أطنابها ... كأس رنوناة وطرف طِمِر
يلهو بهندٍ فوق أنماطها ... وفَرْتَنى تعدو اليه وهِرّ
أدى الى هند تحياتها ... وقال : هذا من وداعي دُبُر
إن الفتى يُقتِر بعد الغنى ... ويغتني من بعد ما يفتقر
والحي كالميت ويبقى الفتى ... والعيش فنَّان فحلو ومر
اما على نفسي واما لها ... فعايش النفس وفيها وقَر
هل يُهلكنِّي بَسط ما في يدي ... أو يخلدنِّي منع ما أدخر
ولن ترى مثلي ذا شيبة ... أعلم ما ينفع مما يضر(١٤٦)

وابن أحمر دائم الحسرة على شبابه ، بل توشك حسرته أن تكون توطئة لأغلب أغراضه ، افذا ما شكا ظلم السعاة ، فليس ثمة تمهيد لشكواه الا أن يندب شبابه(١٤٧) ، واذا ما كان بين يدي ممدوحه ، فلن يجد مدخلا الى غايته سوى ذلك العهد الماضي(١٤٨) ، واذا ما ذكر مجلساً ، حدثنا عما فيه من سفه الصبا ، فأول ما يأسى له شبابه الذي ولى :

بان الشباب وأخلف العمر … وتنكّر الاخوان والدهر(١٤٩)

وشاعرنا يشير الى تعلقه بغير امرأة أيام شبابه ، ولكن حديثه فيهن حديث عام ، لا يصدر عن شاعر ماجن كامرىء القيس وطرفه في الجاهلية وكعمر بن أبي ربيعة في الاسلام ، واذا ما تراءى لنا شيء من المجون ، فاننا نجده غامضاً ، يتستر وراء لهو الملك الضليل وعبثه ، فكأن ابن احمر قد طبع بالمدرسة النجدية العذرية اجمل طبع وأرقه .

وابن أحمر لا يلح كثيراً على مظاهر شبابه ، ولا يصر على ما نجده في شعره من ارث الجاهلية ، فقد تهذب بمكارم الأخلاق احسن تهذيب ، وامن بالدين الجديد أعمق الايمان ، فهو رجل شهم ذو نجدة ومروءة ، لا تخونه الفعال الحسنة والوفر الواسع اذا ما استغاثت به الركاب :

لوبي تحمست الركاب اذا … ما خانني حسبي ولاوفري(١٥٠)

وديوان العرب سيظل يحفظ لهذا الشاعر موقفاً فذاً في وجه السعاة المترفين الذين أهلكت سياطهم الناس ذلا وجوراً ، فقد قام بحاجة هؤلاء المقهورين خير قيام ، وكان صوت الحق في وجه سلطان جائر ، انذره ابن أحمر بالشدائد من الايام ، وتوعده برجال شجعان، أخلصوا انفسهم لله ، وسخروها للحق :

اني أعوذ بما عاذ النبي به … وبالخليفة أن لا تقبل العذر
من مترفيكم وأصحاب لنا معهم … لا يعدلون ولا نأبى فننتصر
فان تقرّ علينا جور مظلمة … لم تبن بيتاً على أمثالها مضر
لا تنس يوم أبي الدرداء مشهدنا … وقبل ذلك أيام لنا أخر
من يمس من آل يحيى يمس مغتبطاً … في عصمة الأمر ما لم يغلب القدر
ورادة يوم بعث الموت رأيتهم … حتى يفيء اليها النصر والظفر
من أهل بيت هم لله خالصة … قد صعّدوا بزمام الأمر وانحدروا
كأنه صبح يسري القوم ليلهم … ماض من الهند وانيّات منسدر
يعلو معداً ويستسقى الغمام به … بدر تضاءل فيه الشمس والقمر(١٥١)

فيبدو أنه شيخ شموس ، عَسِر في عداوته ، شديد الخلاف على من عانده ، حتى يُقر الحق ، ويرفع الظلم ، وهو يشير الى ذلك ، فيقول :

شيخ شموس اذا ما عزّ صاحبه … شهم وأسمر محبوك له عذرا(١٥٢)

لذلك نراه يحرص على أن لا يدخل في مهاجاة ، حتى قال الأصمعي : « ابن أحمر لم يهاج أحداً »(١٥٣) ، فاذا وجدنا ابن أحمر يعرض « برجل كان يشتمه ، ويعيبه ، يقال له : سفيان »(١٥٤) ، فهذا التعريض لم يكن ليبلغ سوى حد السخرية والمهانة ، ويقول :

نبئت سفيان يلحانا ويشتمنا ... والله يدفع عنا شر سفيانا
فداك كل ضئيل الجسم مختشع ... وسط المقامة يرعى الضأن أحيانا
تهدي اليه ذراع الجدي تكرمة ... اما ذبيحاً واما كان حُلانا
عيط عطا بيل لشن الري وابتذلت ... معاطفاً سابريات وكتّانا(١٥٥)

واذا خاصم في ضجاج مضلا ، فانه يدعه ، ولا يلتفت الى مجادلته :

وخصم مضل في الضجاج تركته ... وقد كان ذا شغب فولى مواتيا(١٥٦)

فأخلاقه تأبى أن يدخل في نفرة ، قد تحط من حسبه ووفره ، وتهلك حياً ذا عدد وقدر :

تقلدت ابريقاً وعلقت جعبة ... لتهلك حياً ذا زهاء وجامل
فلا تحسبني مستعداً لنفرة ... وان كنت نطاطاً كثير المجاهل(١٥٧)

وهو ليس بجبان ، ولكنه يخشى بوائق الدهر وصروفه ، ومتى حاولت يد الحدثان أن تنال من عرضه ، فانه لا يستكين لها ، ولا يلين :

ولست بهيرع خفق حشاه ... اذا ما طيرته الريح طارا
ولست بعرنة عرك سلاحي ... عصا مثقوبة تقص الجمارا
ولا ينسيني الحدثان عرضي ... ولا ألقي من الفرح الا زارا(١٥٨)

فابن أحمر ليس رجلا هدانا ، يهاب الشدائد ، ولكنه حريص ان لا تصغر نفسه في عداوة ، لا طائل فيها • ولا شك أن ابن أحمر قد جبل على تلك السجايا الرفيعة والأخلاق الكريمة ، حتى كأنه يراها مزية ، تسمق بالشاعر ، ومن هنا ندرك معنى اختياره زهير بن أبي سلمى أشعر الناس ، فكأنه يشاكله في هذه الأخلاق ، ويقول أبو زيد القرشي: « قال ابن أحمر : زهير أشعر الناس »(١٥٩) •

وهذه الجبلة التي طبعت على الحق والخير جعلت شاعرنا يرغب عن النفاق في صلته برجال عصره ، فتصدى لسعاة والي المدينة ، وتعرض ليزيد بن معاوية الذي أخذت له البيعة بالمكر والعنف • والرواة لم ينشدواله غير مدحة واحدة في النعمان بن بشير الأنصاري ، لا نكاد نجد فيها أثراً للمداجاةأو للمصانعة التي يراها الأستاذ الدكتور عبدالحفيظ السطلي « ظاهرة طبيعية في تلك الفترة ، ذلك لأن تقلب الأحداث السياسية

بسرعة والصراع العنيف بين الطامحين الى الحكم والسلطان ولا سيما في العراق ، قد جعل أمثال العجاج يرهبون أن تدور الدائرة عليهم أو على قومهم في ظروف ، لم تكن لها سابقة في تاريخ القبائل »(١٦٠) .

ولعل ابن أحمر كان على شيء من اليسر ، وهو يذكر غير مرة أنه صاحب رعي وركاب ، فلم يكن يسعى الى جاه أو مال مثل بعض شعراء عصره .

وبذلك نرى أن شخصية ابن أحمر متعددة الجوانب ، واضحة المعالم ، مألوفة السجايا ، تضافرت في تكوينها عدة عناصر ، كان من أهمها : نشأته بنجد نشأة أعرابية في قوم ، كادوا أن يخلعوه في شبابه ، ثم كان صوتهم الأقوى في شيخوخته ، ومنها ما كان وليد العاهة والمرض ، ومنها ما كان وليد الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية التي عاصرها في الجاهلية والاسلام .

وهذه العناصر ضربت جذورها في أعماق نفسه ، فلم يستطع الواقع الجديد في الجزيرة أن يترك أثراً كبيراً في تلك النفس ، أو ان يغير شيئاً من ثقافته الأعرابية ، ولهذا نرى أن لسانه زل في التعبير عن مظهر من مظاهر تلك الحياة الجديدة التي لا تتصل بحياة الأعراب ، فقد أخذ عليه العلماء قوله في وصف امرأة :

لم تدر ما نسج اليرندج قبلها ... ودراس أعوص دارس متخدّد(١٦١)

فظن ابن أحمر أن اليرندج مما ينسج ، وانما هو جلود سود ، تعمل منها الخفاف ، وهذا الخطأ أخذه عليه عدد من النقاد ، أمثال ابن السكيت(١٦٢) ، وابن قتيبة(١٦٣) وابن عبد ربه(١٦٤) ، والجرجاني(١٦٥) ، وأبي هلال العسكري(١٦٦) ، والسيوطي(١٦٧) وغيرهم.

فثقافة ابن أحمر توشك أن تكون في الحياة الأعرابية التي عاشها في نجد ، ومنها انتقلت اليه الفصاحة قبل ان ينزل الجزيرة ، حتى قال أبو عمرو بن العلاء : « كان ابن أحمر في أفصح بقعة من الأرض أهلا ، يذبل والقعاقع »(١٦٨) ، فقد تهيأت له سبل الفصاحة ، فأمكن له أن يكون « صحيح الكلام كثير الغريب »(١٦٩) ، ثم يكون « الشاعر الفصيح » الذي « يتقدم شعراء أهل زمانه »(١٧٠) ، و « يستشهد على اللغة بشعره كثيراً »(١٧١) ، فكانت فصاحته من أبرز ما تميزت به شخصيته وثقافته ، وما ذلك الا لأن هذه الثقافة كانت أعرابية الطابع ، تستمد مظاهرها من البادية والصحراء ، فنرى ابن أحمر عالماً بحياة الأعراب ، خبر البادية بكل أفنانها ، وعرف الصحراء بكل أكنافها ، ومن ذلك قوله :

فلما غسى ليلي وأيقنت أنها ... هي الأربى جاءت بأم حبوكرا
وأفلت من أخرى تقاصر طرفها ... عشية أدعو بالستار المجبّرا
فزعت الى القصواء وهي معدّة ... لامثالها عندي اذا كنت أوجرا
كثور العداب الفرد يضربه الندى ... تعلى الندى في متنه وتحدّرا(١٧٢)

فقد شبه ما وقع من حبائل الأمور بأعظم الدواهي ، ولكنه بثقافته الأعرابية أدرك أن أقوى الصواعق ما تجعل الطير يتضاءل من شدة وقعها ، وفي ذلك قال ابن قتيبة : «الطير تقاصر من حسن الصاعقة »(١٣٧) ،ولهذا جعل نفسه تفلت « من أخرى تقاصر طيرها » ، فيفزع الى ناقته القصواء ، فيشبهها في نشاطها وقوتها وسرعتها بثور وحشي ، ولا يكتفي بذلك ، بل يجعل هذا الثور من العَداب ، أي : الرمل المستدق اللين ، لأنه يعرف أن بقر الوحش تلوذ به ، وفي ذلك يقول البطليوسي : « خصه ، لأن بقر الوحش تألفه لخصبه وخوفاً من القانص ، فاذا ما جاء القانص اعتصمت بركوب الرمل ، فلا تقدر الكلاب عليها »(١٧٤) .

واذا ما هجا بني أعيا في رواية أو بني سهم في رواية أخرى ، فانه يعيب عليهم لؤمهم، ويستمد من البيئة البدوية صورة طريفة ،تليق بهم ، فيراهم كالعنز التي ترتضع من خلفها ، ويقول :

اني وجدت بني أعيا وجاملَهُم كالعنز تعطف رَوقَيها فترتَضِع(١٧٥)

ولم يكن ابن أحمر عالماً بطباع الحيوان فحسب ، وانما كان عالماً بالأنواء والرياح في هذه الصحراء ، ويكاد يهجس بالحديث عنها، حتى انه يرى في هبوبها حنين والهة،لا مُسْكَةَ في عقلها ، ولا زَبْر للُبَّها :

خَلَد الجُبَيْب وباد حاضره الا منازل كلها قفر
ولهَت عليها كلُ مُعْصِفَة هوجاء ليس للُبّها زَبْر
عشواء رَعْبَلَة الرَّواح خَجَو جاة الغُدوّ رَواحُها شهر
خرقاء تلتهم الجبال وأجواز الفلاة وبطنُها صفر(١٧٦)

وما ينفك يذكر أنواعها كالشمال والدبور والصبا والجنوب والجربياء وسوى ذلك، وتمده بيئته بصورها الرائعة وأوقاتها المختلفة وأوصافها المتنوعة ... وبذلك أمكن لثقافة ابن أحمر أن تسعفه برصد الفلك ، وهو نفسه يذكر أنه كان يراقب النجم حتى غيابه، ويقول :

أراقب النجم كأني مولع بحيث يجري النجم حتى يَقتحم(١٧٧)

وهذا الاهتمام بمواعيد النجوم ومواقعها أمر لا يستغرب من شاعر جاهلي أو مخضرم ، اذا تحدث عنه ، لأن هذه الأمور من أهم مستلزمات حياة العرب قبل الاسلام ، حتى وجد القرآن الكريم القسم بمواقع النجوم قسماً عظيماً ، لا يستهان به ، ولولا اهتمامهم بهذا الموضوع وارتباطه بحياتهم ، لما اقسم القرآن به ، ونبه على أسماعهم أنه قسم عظيم(١٧٨) .

وأمثال هذه الظواهر كثير ومتنوع في ثقافة ابن أحمر الأعرابية ، ولسوف نرى في

دراستنا موضوعاته وخصائص شعره جوانب أخرى منها ، لا تكاد تخلو من مؤثرات البيئة الحضرية التي ارتحل اليها فترة وجيزة من الزمن ، ومن ذلك قوله في مجلس غناء :

وجرادتان تغنيانهم ... وتلألأ المرجان والشذْر
ومُجَلجِل دان زَبَرجَده ... حَدِب كما يتحدب الدبْر
وثنان حنّانان بينهما ... وتر أجش غناؤه زَمْر(١٩٧)

فذكر قياناً وأحجاراً كريمة وعوداً وصنجاً .

ومن ذلك قوله في المعاطف السابريات :

عِيط عطابيل لثن الري وابتذلت ... معاطفا سابريّات وكتّانا(١٨٠)

وفي السابري من الثياب :

بمنزلة لا يشتكي السُّل أهلها ... وعيش كملس السابري رقيق(١٨١)

فذكر السابريات ، وهي من أرق الثياب وأجودها .

واذا كانت هذه الثقافة تستمد مظاهرها من الصحراء والبادية ، ولا تكاد تخلو من مؤثرات البيئة الحضرية ، فان ثمة مصدراً مهماً ، ينبغي أن نشير اليه ، وهو القراءة ، فأغلب الظن أن ابن أحمر كان يعرف الكتابة قراءة وخطاً ، فهو يعرف لحناً في عنوان صحيفة ، ويقول :

اذا جاء منهم قافل بصحيفة ... يكون عناء ما يُنَبِّق عانيا
وتعرف في عنوانها بعض لحنها ... وفي جوفها صمعاء تُبلى النواصيا(١٨٢)

ويذكر كتباً ، ويقول :

أم لا نزال نُرجّي عيشة أنُفا ... لم ترج قبل ولم يكتب بها زُبُر(١٨٣)

ويصف كتباً أخرى على ناقة هبهبية ، ويقول :

تماثيل قِرطاس على هبهبية ... نضا الكُور عن لحم لها مُتخدد(١٨٤)

ولعل من أوضح هذه الاشارات الى ذلك قوله في حاجب :

وحاجب كالنون فيه بسطة ... أجاده الكاتب خطاً بالقلم(١٨٥)

وكل ذلك يجعلنا نعتقد أن ابن أحمر كان ممن يقرأ ويكتب ، فتكون قراءته مصدراً آخر من مصادر ثقافته وسمة أخرى من سمات شخصيته .

وبذلك أمكن لهذه الشخصية الأعرابية أن تكون في طليعة الشعراء الأعلام الذين خاضوا بحره ، وبعُد فيه شأوهم ، فاذا ما سأل أبو حاتم أستاذه الأصمعي عن منزلة ابن أحمر بين الفحول من الشعراء ، قال : « قلت : فابن أحمر الباهلي ؟ قال : ليس بفحل ، ولكنه دون هؤلاء الفحول وفوق طبقته »(١٨٦) • واما ابن سلام في طبقات فحول الشعراء(١٨٧) ، فيجعله في الطبقة الثالثة من الاسلاميين بخاصة ، ويجدهم أربعة ، وهم : كعب بن جُعيل التغلبي ، فعمرو بن أحمر الباهلي ، فسحيم بن وثيل الرياحي ، وأوس بن مغراء السعدي ، ثم يرى أن ابن أحمر مقدم على ابن وثيل ، فيقول: « عمرو بن أحمر مقدم في الشعر على سحيم بن وثيل ، وسحيم أشرف منه »(١٨٨) •

ويجعل أبو عبيدة ابن أحمر في الطبقة الثالثة من الشعراء بعامة ، وينقل أبو زيد القرشي رأيه هذا ، فيقول : « ذكر أبو عبيدة من الطبقة الثالثة من الشعراء : المرقّش ، وكعب ابن زهير ، والحطيئة ، وخداش بن زهير ، ودريد بن الصمة ، وعنترة ، وعروة بن الورد ، والنمر بن تولب ، وعمرو بن أحمر ، والشماخ • قال المفضل : فهؤلاء فحول الشعراء اهل نجد الذين ذموا ، ومدحوا ، وذهبوا بالشعر كل مذهب »(١٨٩) •

ثم يختار القرشي نفسه من شعره قصيدة ، يراها من « عيون أشعار العرب في الجاهلية والاسلام »(١٩٠) ، ويرويها في مشوبات العرب من جمهرته •

واذا كان الأصمعي يراه « فوق طبقته » ، فان ثمة ناقدين آخرين ، يقاربانه الرأي ، وهما ابن الجراح والآمدي ، وأما الأول ، فقد قال : « شاعر فصيح مقدَّم على جميع نظرائه في فنون الشعر وغريبه »(١٩١) ، وأما الآخر ، فقد قال : « كان يتقدم شعراء أهل زمانه ••• وقد ذكرت حاله وأشعاره مع الشعراء المشهورين »(١٩٢) ، ولعلهم بذلك يضعونه على رأس طبقة الشعراء المخضرمين الذين نعرف من فحولها : الحطيئة والأعشى والنابغة الجعدي وكعب بن زهير وغيرهم •

وهذه المكانة الرفيعة التي تبوأها ابن أحمر كانت موضع اهتمام أهل اللغة والأدب ، فصُنع ديوانه ، واستشهد بشعره ، حتى لا يكاد مصدر من المصادر يخلو من شعر له •

* * *

□ الحواشي :

١ ـ طبقات فحول الشعراء ٥٧١ ، والشعر والشعراء ٣٥٦ ، والمعارف ٨١ ، وجمهرة اشعار العرب (ط• البجاوي) ٨٤٢ ، والأغاني ٢٩٨٠ ، والمؤتلف والمختلف ٤٤ ، ومعجم الشعراء ٢٤ ، وسمط اللآلىء ٣٠٧ ، والأمالي لابن الشجري ١٣٧/١ ، وخزانة الأدب ٣٨/٣ ، وشرح أبيات المغني للبغدادي ١٣٥/٢ ، والتاج (فرض) • ويذكر ابن قتيبة في نسبه : « معن بن أعصر » ، وهو ابن مالك ، وليس ابن أعصر ، فكان سقطاً في عبارته ، والصواب : « معن بن مالك بن أعصر » • أنظر : الشعر والشعراء ٣٥٦ ، وشرح أبيات المغني للبغدادي ١٣٤/٢ ، وقارن بجمهرة أنساب العرب ٢٤٥ •

٢ ـ جمهرة أشعار العرب (ط• البجاوي) ٨٤٢ ، ومعجم الشعراء ٢٤ •

٣ ـ طبقات فحول الشعراء ٥٧١ •

٤ ـ الأغاني ٢٩٨٠ •
٥ ـ المؤتلف والمختلف ٤٤ ، وعنه في خزانة الأدب ٣٨/٣ ، وشرح أبيات المغني للبغدادي ١٣٥/٢ ، واورده البغدادي في الشرح : « عبد قدام بن فراص » ، فسقطت « ابن » منعبارتـه •
٦ ـ معجم الشعراء ٢٤ •
٧ ـ الاصـابـة ١١٢/٣ •
٨ ـ التـاج (فرص) •
٩ ـ أورده ناشر الاصابة محرفا ، فقال : « عمرو بن الأحمر بن العمود بن تميـم بن ربعـة بن حرام الباهلي » الاصابة ١١٢/٣ •
١٠ـ الشعر والشعراء ٣٥٦ •
١١ـ سمط اللآلىء ٣٠٧ •
١٢ـ الاقتضاب ٣١٩ •
١٣ـ من سمي من الشعراء عمراً ٥٦ •
١٤ـ الأمالي لابن الشجري ١٣٧/١ •
١٥ـ خزانة الأدب ٣٨/٣ •
١٦ـ جمهرة أشـعار العرب (ط• البجـاوي) ٨٤٢ ، ومعجم الشعراء ٢٤ •
١٧ـ انظر : المعارف ٨١ ، والاشتقاق ٢٧١ ، وجمهرة أنساب العرب ٢٤٥ ، واللبـاب ٩٤/١ ، وخزانـة الأدب ٥٦٥/٤ ، وشرح أبيات المغني للبغدادي ٢١٧/٢ ، والتاج (فرص) •
١٨ـ معجم الشعراء ٢٤ ، وسمط اللآلىء ٣٠٧ ، والاصابة ١١٢/٣ •
١٩ـ المكاثرة ٥٥ •
٢٠ـ المرصـع ٦٥ •
٢١ـ المؤتلف والمختلف ٤٤ ، وعنه في شرح أبيات المغني ١٣٦/٢ ، والبغـدادي يظيف : « واسمه مالك بـن سعد » • وما ابن سعد ـ كما نرى في المؤتلف والمختلف ، الا جد ابن أحمر البجلي • وانظر قصيدتـه في الأصمعيـات ١٢٣ لأبي مهـدية الكلابي ، وبعضهـا في التكملة ٧٩/٢ ، واللسان (عزا) و (فرطح) ، والتاج (فرطح) للبجلي ، وفي الفصول والغايات ٣٧٢ لأبي مهدية ، وفي عيون الأخبار١٠١/٢ ، والأفعـال ٦٠/٤ ، والصحاح ٣٩١ ، واللسان ، والتاج (فلطح) دون عزا •
٢٢ـ المؤتلف والمختلف ٤٥ ، وعنـه في شرح أبيـات المغنيللبغـدادي ١٣٦/٢ • وابن سعيد الأندلسي يجعله مـن بني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، ويقول : « هنيبن أحمر الضمري : ذكر البيهقي أنه من شعراء الجاهلية » نشوة الطرب ٣٨٠ و ٣٨٢ •
٢٣ـ المؤتلف والمختلف ٤٥ ، وعنـه في شـرح أبيات المغنيللبغدادي • والنوك : العجز والجهل والحمق • والبرد من الفرس : المخطط الموشى • والدعمي منه : اذا كان فيصدره بيـاض •
٢٤ـ وجدت من صنع شعر مزاحم العقيلي في مجلة معهـد المخطوطات العربية (ص ١٤٠ ، ج ١ ، مج ٢٢ ، ١٣٩٦ هـ/ ١٩٧٦ م) ينقل عن الجواليقي قوله في بيت : « وهذا البيت يروى لمزاحـم العقيلي وعروة بن احمر الخزاعي » بالراء ، فتتبعت ذلك في شرحه ادب الكاتب ، ورايتالجواليقي يقيده بالدال ، ويقول : « ابن احمد الخزاعي » شرح ادب الكاتب ١٢٠ •
٢٥ـ معجم الشعراء ١٢٦ •
٢٦ـ المصدر السابق نفسه ١٦٠ • والتجار : جمع تاجر ، واصل التاجر الخمار يخصونه به من بين التجار •
٢٧ـ انظر : الموشى (ط• الخانجي) ١٢٤ ، و (ط صادر) ١٤٣ •
٢٨ـ البغـلاء ٧ •

٢٩ـ الفهرست ٤٣٥ •
٣٠ـ الأمالي ١٣٩ • وانظر : اللسان ، والتاج (خنب) و (صعق) •
٣١ـ الأمالي ١٣٩ •
٣٢ـ المكاثرة ٢٩ •
٣٣ـ قال الطيالسي : « أعشى بني بيبة : أخو بني سعد بن مالك » و « لم نعرف اسمه ، ولا وجدنا له شعراً » المكاثرة ٢٩ • وضـج : فزع مـن شيء ، فصاح مستغيثا • والحفيظة : الغضب لحرمة تنتهك أو عهد ينكث •
٣٤ـ الجيم ٩١/٣ •
٣٥ـ القراضب : الأكول ، وقرضب اللحم : أكل جميعه •
٣٦ـ أنظر : اللسان (جول) •
٣٧ـ شرح أبيات سيبويه ٢٤٩/١ •
٣٨ـ العمدة ٣٠٨/٢ • وقال ابن رشيق: « الفرق بين المعرق وبين ذي البيت أن المعرق من تكرر الأمر فيه وفي أبيه وفي جده فصاعداً ، ولا يكون معرقا ، حتى يكون الثالث فما فوقه » و « ذو البيت من عم الأمر جميع أهل بيته أو أكثرهم » •
٣٩ـ الأضـداد ٢٦٣ •
٤٠ـ القصيدة ٧/١٦ من ديوانه الذي أخرجته جمعاً أو شرحاً وتحقيقا ما أمكنني الى ذلك من سبيل، وأرجو ـ ان شاء الله ـ أن يرى النور قريبـاً • أنظر في ذلك مقالتنا في مجلة التراث العربي : العددان ٤٢ و ٤٣ ، كانون الثاني ونيسان ١٩٩١ السنة (١١) •
٤١ـ كنز الحفـاظ ٤١٠ •
٤٢ـ القصيدة ٢٥/٥٧ـ٣٤ •
٤٣ـ تهذيب اللغـة ٢٦١/٢ ، والصحاح ١٤٦١ ، وتهذيب اصلاح المنطق ٤٦٠ ، واللسان (بلل) و (معد) ، والتاج (معد) •
٤٤ـ القصيدة ٢/١٤ـ٣ •
٤٥ـ القصيدة ٩/٥٧ـ١١ •
٤٦ـ الشعر والشعراء ٣٥٩ ، وعنـه في شرح أبيـات المغني للبغدادي ١٣٤/٢ •
٤٧ـ طبقات فحول الشعراء ٥٨٠ ، ومعجم الشعراء ٢٤ ، والاصابة ١١٢/٣ ، وشرح أبيات المغني للبغدادي ١٣٤/٢ •
٤٨ـ المؤتلف والمختلف ٤٤ ، وخزانة الأدب ٣٨/٣ ، وشرح أبيـات المغني للبغـدادي ١٣٥/٢ • وانظر : من سمي من الشعراء عمراً ٥٦ •
٤٩ـ الأغـاني ٢٩٨٠ ، والأمالي لابن الشـجري ١٣٧/١ ، والاصابة ١١٢/٣ ، وخزانة الأدب ٣٩/٣ •
٥٠ـ الأغاني ٢٩٨٠ ، والاصابة ١١٢/٣ ، وخزانة الأدب ٣٩/٣ •
٥١ـ تاريخ الخلفاء ٤٢٢ ، وتاريخ الطبري ٤٣١/٦ •
٥٢ـ تاريخ الطبري ٢٠٢/٦ •
٥٣ـ القصيدة ١٤/٢٠ـ٢١ •
٥٤ـ القصيدة ٢٤/٢٠ •
٥٥ـ الأغاني ٢٩٨٠ •
٥٦ـ القصيدة ١/٧ـ٧ •
٥٧ـ مقدمة شعر ابن أحمر (ط• عطوان) ١٠ •
٥٨ـ القصيدة ١٢/٣٠ـ١٥ •
٥٩ـ القصيدة ٥/٣٠ـ٨ •
٦٠ـ الشعر والشعراء ٣٥٦ ، والاقتضاب ٤٣٤ ، وشـرح شواهـد الشافية ٣٥٤/٤ ، وشرح أبيـات المغني للبغدادي ٤/٢ـ١٣ •
٦١ـ القصيدة ١٧/٣٠ـ١٨ •
٦٢ـ جمهرة اللغة ٢٠٦/٢ • وبنو سعد : قوم سعد بن زيدمناة بن تميم •

٦٣ـ القصيدة ٢٤/١٦ـ١٩ ٠
٦٤ـ القصيدة ١/٥١ ٠
٦٥ـ التقفية ١٩٧ ، وجمهرة اللغة ٢٠٦/٢ ، واللسان ، والتاج (قسر) و (هيب) ٠
٦٦ـ القصيدة ١/٣١ـ٤ ٠
٦٧ـ الأفعال ١٢٢/١ ٠
٦٨ـ القصيدة ٢٢/٥٨ـ٢٣ ٠
٦٩ـ القصيدة ١٣/٢٦ـ١٤ ٠

٧٠ـ الاصابة ١١٢/٣ ، وعنه في خزانة الأدب ٣٩/٣ ٠ وعبارةالمزرباني : « أدرك الاسلام ، فاسلم » معجم الشعراء ٢٤ ، وهي ذاتها عبارة الأغاني ٢٩٨٠ ٠ وانظر: الأمالي لابن‌الشجري ١٣٧/١ ٠

٧١ـ من سمي من الشعراء عمرأ ٥٦ ٠
٧٢ـ معجم الشعراء ٢٤ ، وعنه في الاصابة ١١٢/٣ ، وخزانةالأدب ٣٩/٣ ٠
٧٣ـ الأغاني ٢٩٨٠ ، وعنه في الاصابة ١١٢/٣ ٠
٧٤ـ القصيدة ٢/٤٩ ٠
٧٥ـ الأغاني ٢٩٨٠ ، ومعجم الشعراء ٢٤ ، والاصابة ١١٢/٣ ، وخزانة الأدب ٣٩/٣ ٠
٧٦ـ الأغاني ٢٩٨٠ ، وعنه في الاصابة ١١٢/٣ ، وخزانة الأدب ٣٩/٣ ٠
٧٧ـ الأغاني ٢٩٨٠ ٠
٧٨ـ المصدر السابق نفسه ٠
٧٩ـ انظر : جمهرة أشعار العرب (ط٠ صادر) ٣٠١ ، و (ط٠ البجاوي) ٨٤٢ ٠
٨٠ـ الأغاني ٢٩٨١ ٠
٨١ـ النعمان بن بشير الأنصاري : له ولأبيه صحبة ورواية،وكان أول مولود في‌الاسلام من الأنصار بعد الهجرة باربعةعشر شهرأ ٠ استعمله معاوية على الكوفة ثم على حمص ، ودعا الى ابن الزبير ثم الى نفسه ، فقتله بنو امية سنة خمس وستين للهجرة ٠ انظر : المعارف ٢٩٤ ، وتاريخ‌الطبري ٤٠١/٢ و ١٣٣/٥ و ٤٦٢ و ٤٨١ و ٥٣١ و ٥٣٩ ، وجمهرة أنساب العرب ٣٦٤ ، والاصابة ٥٥٩/٣ ٠
٨٢ـ تاريخ الطبري ١٣١/٥ ٠
٨٣ـ القصيدة ١٠/٤٥ـ١٦ ٠
٨٤ـ تاريخ الخلفاء ٤٢٠ ، وتاريخ الطبري ٤٩٩/٥ ٠
٨٥ـ تاريخ الخلفاء ٤٢٢ ٠
٨٦ـ القصيدة ٣١/٥٨ـ٣٣ ٠
٨٧ـ القصيدة ١٥/٢٦ـ١٦ ٠

٨٨ـ كنز الحفاظ ٥٠٤ ٠ وانظر : تهذيب اصلاح المنطق٥٠٠ ، والاقضاب ٣١٩ و ٤٠٢ ، والمشوف المعلم ٦٥ ، وخزانة الأدب ٣٨/٣ ، وشرح أبيات المغني للبغدادي ١٣٠/٢ ٠
٨٩ـ كنز الحفـاظ ٤١٠ ٠
٩٠ـ الأبلسة : بلدة على شاطىء دجلة البصرة ٠
٩١ـ القصيدة ٢٦/٢٦ـ٣٠ ٠
٩٢ـ خزانة الأدب ٣٨/٣ ٠
٩٣ـ القصيدة ١/٢٣ ٠
٩٤ـ تاريخ الخلفاء ٤٢٠ ، والمعارف ٣٥١ ، وتاريخ الطبري٤٩٩/٥ ٠
٩٥ـ تاريخ الخلفاء ٤٢٢ ، وتاريخ الطبري ٤١٨/٦ ٠
٩٦ـ الأغاني ٢٩٨٠ ، وعنه في خزانة الأدب ٣٩/٣ ٠
٩٧ـ انظر : جمهرة أشعار العرب (ط٠ صادر) ٣٠١ ، و(ط٠ البجاوي) ٨٤٢ ٠

٩٨- القصيدة ٢١/١٨ ٠
٩٩- القصيدة ٤٠/١٨ ٠
١٠٠- القصيدة ٢٧/١٨-٢٨ ، ٣١-٣٤ ٠
١٠١- رسالة الغفران ٢٣٧ ٠
١٠٢- أنظر : جمهرة اللغة ٣٩٠/٢ ، والاقتضاب ٣١٩ ، وشرح أدب الكاتب ٣٥٥ ، وخزانة الأدب ٣٨/٣ ، وشرح شواهد الشافية ٣٥٣/٤ ، والتاج (عور) ٠
١٠٣- المعارف ٥٨٧ ٠
١٠٤- المخصص ١٦٩/١٣ ٠
١٠٥- أنظر : المحبر ٣٠٢ ، والبرصان ٣٦٢ ٠
١٠٦- المحكم ٢٤٥/١ ٠
١٠٧- من سمي من الشعراء عمرا ٥٦ ٠

١٠٨- معجم الشعراء ٢٤ ، وعنه في الاصابة ١١٢/٣ ، وخزانة الأدب ٣٩/٣ ٠
١٠٩- الشعر والشعراء ٣٥٦ ، وعنه في شرح أبيات المغني للبغدادي ١٣٤/٢ ٠
١١٠- الاقتضاب ٤٣٤ ، وعنه في شرح شواهد الشافية ٣٥٤/٤ ٠
١١١- القصيدة ١٦/٣-٦ ٠
١١٢- القصيدة ٣٠/١٧-١٨ ٠
١١٣- القصيدة ٥١/١٨ ٠

١١٤- الشكاعى : من دق النبات ، وهي دقيقة العيدان ، صغيرة خضراء ، والناس يتداوون بها ٠ اللسان ، والتاج (شكع)
١١٥- القصيدة ٥٨/٦-١٦ ٠
١١٦- أدب الكاتب ١١٩ ، والمعاني الكبير ١٢٢٠ ، وسمط اللآلىء ٧٧٨ ، والاقتضاب ٣٤٢ ٠ وسقي بطنه ، وسقى ، واستسقى أي : حصل فيه الماء الأصفر ، والسقي والسقى : ماء أصفر يقع في البطن ٠ اللسان ، والتاج (سقى) ٠
١١٧- الشعر والشعراء ٣٥٦ ، وعنه في شرح أبيات المغني للبغدادي ١٣٤/٢ ٠
١١٨- الأعلام ٧٢/٥ ٠
١١٩- الأغاني ٢٩٨٠ ، وعنه في الاصابة ١١٢/٣ ، وخزانة الأدب ٣٩/٣ ٠
١٢٠- تاريخ الطبري ٢٠٢/٦ ٠
١٢١- القسم الاول من المستدرك على دواوين شعراء العرب المطبوعة ٢٩٩
١٢٢- من سمي من الشعراء عمرا ٥٦ ٠ وأشار الناسخ بحاشية الى أنه توفي على عهد «عثمان بن عفان ، رضي الله عنه» ٠
١٢٣- معجم الشعراء ٢٤ ، وعنه في الاصابة ١١٢/٣ ، وخزانة الأدب ٣٩/٣ ، والتاج (فرص) ٠
١٢٤- تاريخ الخلفاء ٤١٥ ، وتاريخ الطبري ٣٦٥/٤ ٠

١٢٥- كنز الحفاظ ٥٠٤ ٠ وانظر : تهذيب اصلاح المنطق ٥٠٠ ، وكنز الحفاظ ٤١٠ ، والاقتضاب ٣١٩ و ٤٠٢ ، والمشوق المعلم ٦٥ ، وخزانة الأدب ٣٨/٣ ، وشرح أبيات المغني للبغدادي ١٣٠/٢ ٠

١٢٦- أنظر : جمهرة أشعار العرب (ط٠ صادر) ٣٠١ ، و (ط٠ البجاوي) ٨٤٢ ٠
١٢٧- القصيدة ٤٠/١٨ ٠
١٢٨- تاريخ الطبري ٢٠٢/٦ ٠
١٢٩- معجم الشعراء ٢٤ ، وعنه في الاصابة ١١٢/٣ ، وخزانة الأدب ٣٩/٣ ، والتاج (فرص) ٠
١٣٠- الشعر والشعراء ٣٥٦ ٠
١٣١- المعاني الكبير ١٢٢١ ٠
١٣٢- القصيدة ٣/٤٥ ٠

١٣٣- القصيدة ١٠/٥٨ ٠
١٣٤- الاصابة ١١٢/٣ ٠
١٣٥- خزانة الأدب ٣٩/٣ ٠
١٣٦- التاج (فرص) ٠
١٣٧- تاريخ الخلفاء ٤٢٢ ، وتاريخ الطبري ٤٣١/٦ ٠
١٣٨- المؤتلف والمختلف ٤٤ ، وخزانة الأدب ٣٨/٣ ، وشرح أبيات المغني للبغدادي ١٣٥/٢ ٠ وانظر : من سمي من الشعراء عمرا ٥٦ ٠
١٣٩- القصيدة ٢٩/٢٦-٣٠ ٠
١٤٠- طبقات فحول الشعراء ٥٨٠ ، ومعجم الشعراء ٢٤ ، والاصابة ١١٢/٣ ، وشرح ابيات المغني للبغدادي ١٣٤/٢ ٠
١٤١- القصيدة ٩/٣٣ ٠
١٤٢- القصيدة ٤/٥ ٠
١٤٣- مجالس ثعلب ٣٢٠ ٠
١٤٤- اللسان (لسن) ٠ وانظر : التاج (لسن) ٠
١٤٥- جمهرة أشعار العرب (ط٠ البجاوي) ١٠٦ ٠ وانظر: (ط٠ صادر) ٨١ منه ٠
١٤٦- القصيدة ٤/٣٣-٥ ، ٨-١٠ ، ١٣-١٧ ، ١٩ ٠
١٤٧- القصيدة ١/١٨ ٠
١٤٨- القصيدة ١/١٩ ٠
١٤٩- القصيدة ١/٢٠ ٠
١٥٠- القصيدة ١٩/٢٤ ٠
١٥١- القصيدة ٣١/١٨-٣٩ ٠
١٥٢- القصيدة ٢١/١٨ ٠
١٥٣- فحولة الشعراء ١٧ ٠
١٥٤- اللسان (ذبح) ٠
١٥٥- القصيدة ١/٥٦-٤ ٠
١٥٦- القصيدة ٣٦/٥٨ ٠
١٥٧- القصيدة ١/٤٦-٢ ٠
١٥٨- القصيدة ١٩/٣٠-٢١ ٠
١٥٩- جمهرة أشعار العرب (ط٠ صادر) ٨٠ ، والعمدة ١/ ٩٧ ، والمزهر ٤٨١/٢ ٠ وجاء في (ط البجاوي) من الجمهرة ١٠٥ : « قال العجاج : زهير أشعر الناس » ، واشار المحقق بحاشية الى ان ثمة أصولا أخرى منه عزت هذا القول الى ابن أحمر ، فقال : « هذا في ع ، وفي النسخ الأخرى : قال ابن احمر » ٠ وكان عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، يرى ابن ابي سلمى أشعر الشعراء ، لأنه « كان لا يعاظل بين القول ، ولا يتبع حوشي الكلام ، ولا يمدح الرجل الا بما فيه » الشعر والشعراء ١٣٨ ٠ وانظر : الأغاني ٣٧٥٢ ٠
١٦٠- العجاج : حياته ورجزه ٩٢ ٠

١٦١- القصيدة ١٨/١٤ ٠
١٦٢- الحروف ١٠٠ ، وعنه في تهذيب اللغة ٣٥٩/١٢ ٠
١٦٣- الشعر والشعراء ٣٥٩ ٠
١٦٤- العقد الفريد ٣٦٠/٥ ٠
١٦٥- الوساطة ١٤ ٠
١٦٦- الصناعتين ٧٩ ٠
١٦٧- المزهر ٥٠٢/٢ ٠

١٦٨- الشعر والشعراء ٣٥٩ ، وعنه في شرح أبيات المغني للبغدادي ١٣٤/٢ ٠

١٦٩- طبقات فحول الشعراء ٥٨٠ ، ومعجم الشعراء ٢٤ ، والاصابة ١١٢/٣ ، وشرح أبيات المغني للبغدادي ١٣٤/٢ ٠

١٧٠- المؤتلف والمختلف ٤٤ ، وخزانة الأدب ٣٨/٣ ، وشرح أبيات المغني للبغدادي ١٣٥/٢ ٠ وانظر : من سمي من الشعراء عمراً ٥٦ ٠

١٧١- المرصع ٦٥ ٠
١٧٢- القصيدة ١٨/٢٦-٢١ ٠
١٧٣- المعاني الكبير ٨٦٠ ٠
١٧٤- الاقتضاب ٣١٩ ٠
١٧٥- القصيدة ١/٣٦ ٠
١٧٦- القصيدة ٤/٢٠-٧ ٠
١٧٧- القصيدة ٤/٥٣ ٠

١٧٨- قال تعالى في سورة الواقعة ٧٥/٥٦-٧٨ : [فلا أقسم بمواقع النجوم ، وانه لقسم لو تعلمون عظيم ، انه لقرآن كريم في كتاب مكنون] ٠ وقوله : [فلا أقسم] : لا زائدة ، أي : أقسم بمواقع النجوم ٠ وانظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٦٨٨ وما بعدها ٠

١٧٩- القصيدة ١٩/٢٠-٢١ ٠

١٨٠- القصيدة ٤/٥٦ ٠
١٨١- القصيدة ١/٤٢ ٠
١٨٢- القصيدة ٢٩/٥٨-٣٠ ٠
١٨٣- القصيدة ٤/١٨ ٠
١٨٤- القصيدة ٢/١٢ ٠
١٨٥- القصيدة ٤/٥٣ ٠

١٨٦- فحولة الشعراء ١٢ ، وعنه في الموشح ١١٩ ٠ وسال أبو حاتم أستاذ الأصمعي : « ما معنى الفحل ؟ قال : يريد أن له مزية على غيره كمزية الفحل على العقاق » فحولة الشعراء ٩ ٠ والعِقاق : جمع حِق ، وهو من الابل : الداخل في السنة الرابعة ٠ وقال ابن منظور : « فحول الشعراء هم الذين غلبوا بالهجاء من هاجاهم مثل جرير والفرزدق وأشباههما ، وكذلك كل من عارض شاعراً ، فغلب عليه » اللسان (فحل) ، ولكن هذا التعريف يبدو ناقصة ، لإننا نجد الأصمعي يصف بعض الشعراء بالفحولة لغير ما ذكره ابن منظور ، فقد رأى طفيلا فحلا ، لأنه « غاية في النعت » فحولة الشعراء ١٠ ، ورأى أن الحويدرة « لو قال مثل قصيدته خمس قصائد كان فحلا » فحولة الشعراء ١٢ ، وكان ينظر في الفحولة أيضا الى جودة السبك والى براعة المعنى والى الأشبه بالقديم ٠

١٨٧- طبقات فحول الشعراء ٥٧١ ٠

١٨٨- شرح أبيات المغنى ١٣٤/٢ ٠ و (طبقات فحول الشعراء) أخل بقول ابن سلام الذي نقله البغدادي عن الكتاب نفسه٠
١٨٩- جمهرة أشعار العرب (ط٠ البجاوي) ١٠٧ ٠ وانظر : (ط٠ صادر) ٨١ منه ٠
١٩٠- جمهرة أشعار العرب (ط٠ صادر) ٨١ ، و (ط٠ البجاوي) ١٠٧ ٠
١٩١- من سمي من الشعراء عمراً ٥٦ ٠
١٩٢- المؤتلف والمختلف ٤٤ ، وعنه في خزانة الأدب ٣٨/٣ ، وشرح أبيات المغني للبغدادي ١٣٥/٢ ٠

* * *

المصــادر والمراجع :

أولا : المطبوعــات :

١ – أدب الكاتب لابن قتيبة (٢٧٦ هـ) • تح : محمد محيي الدين عبدالحميد • ط ٤ • مطبعة السعادة بمصر ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٣ م •

٢ – الاشتقاق لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (٣٢١ هـ) • تح : عبدالسلام هارون • ط ٢ • مكتبة المثنى في بغداد ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩ م •

٣ – الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) • ط ١ • مصر ١٣٢٨ هـ/١٩١٠ م (مصورة دار احياء التراث العربي في بيروت دون تاريخ) •

٤ – الأصمعيات لأبي سعيد عبدالملك بن قريب الأصمعي (٢١٧ هـ) • تح: أحمد محمد شاكر، وعبدالسلام محمد هارون• ط ٥ • بيروت (دون تاريخ) •

٥ – الأضداد لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري (٣٢٨ هـ)• تح : محمد أبو الفضل ابراهيم • وزارة الاعلام في الكويت ١٣٨٠ هـ/١٩٦٠ م •

٦ – الأعلام لخير الدين الزركلي • ط ٥ • دار العلم للملايين في بيروت ١٤٠٠ هـ/١٩٨٠ م •

٧ – الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (٣٥٦ هـ) • تح: ابراهيم الأبياري • دار الشعب في مصر ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢ م •

٨ – الأفعال لأبي عثمان السرقسطي (بعد ٤٠٠ هـ) • تح : د• حسين محمد محمد شرف • ط ١ • مجمع اللغة العربية في القاهرة ١٤٠٠ هـ/١٩٨٠ م •

٩ – الاقتضاب في شرح أدب الكتاب لابن السيد البطليوسي (٥٢١ هـ) • دار الجيل في بيروت ١٣٩٣ هـ/١٩٧٣ م •

١٠– الأمالي لابن الشجري (٥٤٢ هـ) • مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند ١٣٤٩ هـ/١٩٣٠ م (مصورة دار المعرفة في بيروت دون تاريخ) •

١١– الأمالي لأبي علي القالي (٣٥٦ هـ) • المكتب الاسلامي بدمشق (دون تاريخ) •

١٢– البخلاء للجاحظ (٢٥٥ هـ) • تح : طه الحاجري • ط٥ • دار المعارف بمصر ١٣٩٦ هـ/١٩٧٦ م •

١٣– البرصان والعرجان والعميان والحولان للجاحظ • تح: د• محمد مرسي الخولي • ط ٢ • مؤسسة الرسالة في بيروت ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م •

١٤– تاج العروس من جواهر القاموس للمرتضى الزبيدي (١٢٠٥ هـ) • حققه عدد من الأساتذة المحققين ، ونشرته حتى الجزء الخامس والعشرين وزارة الاعلام في الكويت ١٤٠٩ هـ/١٩٨٩ م ، فاستعنا بأجزائه الأخرى من الطبعة المصرية المعروفة •

١٥– تاج اللغة وصحاح العربية لأبي نصر اسماعيل بن حماد الجوهري (٤٠٠ هـ) • تح : أحمد عبدالغفار عطار • دار الكتاب العربي بمصر ١٣٧٦ هـ/١٩٥٦ م •

١٦– تاريخ الخلفاء لأبي عبدالله محمد بن يزيد بن ماجة (٢٧٣ هـ) • تح : محمد مطيع الحافظ • نشر في مجلة اللغة العربية بدمشق : ج ٢ ، مج ٥٤ ، ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩ م•

١٧– تاريخ الطبري ، تاريخ الرسل والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠ هـ) • تح: محمد أبو الفضل ابراهيم• ط ٣ • دار المعارف بمصر ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩ م •

١٨- التقفية في اللغة لأبي بشر اليمان بن أبي ليمان البندنيجي (٢٨٤ هـ) • تح : خليل ابراهيم العطية • وزارة الأوقاف في بغداد ١٣٩٦ هـ/١٩٧٦ م •

١٩- التكملة والذيل والصلة لكتاب (تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري) للصغاني (٦٥٠ هـ) • تح : عدد من الأساتذة المحققين • مجمع اللغة العربية في القاهرة ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩ م •

٢٠- تهذيب اصلاح المنطق للخطيب التبريزي (٥٠٢ هـ) • تح : د• فخرالدين قباوة • ط ١ • دار الآفاق الجديدة في بيروت ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣ م •

٢١- تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن احمد الأزهري (٣٧٠ هـ) • تح : عدد من الأساتذة المحققين • وزارة الثقافة في مصر ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م •

٢٢- جمهرة أشعار العرب لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي (أواخر القرن الثالث الهجري) • دار صادر في بيروت (دون تاريخ) • وهناك نشرة أخرى منه ، حققها علي محمد البجاوي • دار نهضة مصر في القاهرة ١٣٨٧ هـ/ ١٩٦٧ م •

٢٣- جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسي (٤٥٦ هـ) • ط ١ • دار الكتب العلمية في بيروت ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣ م •

٢٤- جمهرة اللغة لابن دريد الأزدي (٣٢١ هـ) • ط ١ • مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند ١٣٥١ هـ/١٩٣٢ م •

٢٥- الجيم لأبي عمرو الشيباني (٢٠٦ هـ) • تح : عدد من الأساتذة المحققين • مجمع اللغة العربية في القاهرة ١٣٩٥ هـ/ ١٩٧٥ م •

٢٦- الحروف (ثلاثة كتب في الحروف) للفراهيدي (١٧٥ هـ) ، وابن السكيت (٢٤٤ هـ) ، والرازي (٦٣١ هـ) • تح : د. رمضان عبدالتواب • ط ١ • مكتبة الخانجي بالقاهرة ، دار الرفاعي بالرياض ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م •

٢٧- خزانة الأدب (ومعه المقاصد النحوية للعيني) لعبدالقادر بن عمر البغدادي (١٠٩٣ هـ) • دار صادر في بيروت (دون تاريخ) •

٢٨- ديوان العجاج برواية الأصمعي وشرحه (٢١٧ هـ) • تح : د. عبدالحفيظ السطلي • المطبعة التعاونية بدمشق ١٣٩١ هـ/١٩٧١ م •

٢٩- ديوان عمرو بن احمر الباهلي • تح : د. حسين عطوان• مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٩٠ هـ/١٩٧٠ م •

٣٠- رسالة الغفران لأبي العلاء المعري (٤٤٩ هـ) • تح : د• عائشة عبدالرحمن • ط ٦ • دار المعارف بمصر ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧ م •

٣١- سمط اللآلىء لأبي عبيد البكري (٤٨٧ هـ) • تح : عبدالعزيز الميمني • لجنة التاليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٣٥٥ هـ/١٩٣٦ م •

٣٢- شرح أبيات سيبويه لأبي محمد يوسف بن أبي سعيد السيرافي (٣٨٥ هـ) • تح : د. محمد علي سلطاني • دار المامون للتراث في بيروت ودمشق ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩ م •

٣٣- شرح أبيات المغني للبغدادي (١٠٩٣ هـ) • تح : احمد يوسف دقاق ، وعبدالعزيز رباح • ط ١ • دار المامون للتراث في دمشق ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م •

٣٤- شرح ادب الكاتب لأبي منصور موهوب بن احمد الجواليقي (٥٤٠ هـ) • مكتبة القدسي ١٣٥٠ هـ/١٩٣١ م •

٣٥ـ شرح شافية ابن الحاجب لرضي الدين الاستراباذي (٦٨٦ هـ) ، ومعه شرح شواهده لعبدالقادر البغدادي (١٠٩٣ هـ) • تح : محمد نور الحسن ، ومحمد زفزاف، ومحمد محيي الدين عبدالحميد • دار الكتب العلمية في بيروت ١٣٩٥ هـ/١٩٧٥ م •

٣٦ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢٧٦ هـ) • تح : احمد محمد شاكر • دار المعارف بمصر ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م •

٣٧ـ شعر مزاحم العقيلي • تح : د• نوري حمودي القيسي، و د• حاتم صالح الضامن • نشر في مجلة معهد المخطوطات العربية : ج ١ ، مج ٢٢ ، ١٣٩٦ هـ/١٩٧٦ م •

٣٨ـ كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر لأبي هلال العسكري(٣٩٥ هـ) • تح : محمد أبو الفضل ابراهيم ، وعلي محمد البجاوي • ط ٢ • دار احياء الكتب العربية في مصر ١٣٩١ هـ/١٩٧١ م •

٣٩ـ طبقات فحول الشعراء لأبي عبدالله محمد بن سلام الجمحي (٢٣١ هـ) • تح : محمود محمد شاكر • دار المعارف بمصر ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م•

٤٠ـ العقد الفريد لأبي عمر احمد بن محمد بن ربه الأندلسي (٣٢٨ هـ) • تح : احمد أمين ، واحمد الزين ، وابراهيم الأبياري • ط ٣ • لجنة التاليف والترجمة والنشر في القاهرة ١٣٧٢ هـ/١٩٥٣ م • (مصورة دار الكتاب العربي في بيروت دون تاريخ) •

٤١ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيرواني (٤٥٦ هـ) • تح : محمد محيي الدين عبدالحميد • ط ٥ • دار الجيل في بيروت ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م •

٤٢ـ عيون الأخبار لابن قتيبة (٢٧٦ هـ) • الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٣ هـ/١٩٧٣ م

٤٣ـ فحولة الشعراء للاصمعي (٢١٧ هـ) • تح : تشارلز توري • ط ٢ • دار الكتاب الجديد في بيروت ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م •

٤٤ـ الفصول والغايات لأبي العلاء المعري (٤٤٩ هـ) • تح : محمود حسن زناتي • المكتب التجاري في بيروت ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م •

٤٥ـ الفهرست لابن النديم (٣٨٥ هـ) • دار المعرفة للطباعة والنشر في بيروت (دون تاريخ) •

٤٦ـ كنز الحفاظ في كتاب تهذيب الألفاظ للخطيب التبريزي(٥٠٢ هـ) • تح : لويس شيخو • المطبعة الكاثوليكية في بيروت ١٣١٣ هـ/١٨٩٥ م •

٤٧ـ لسان العرب لابن منظور (٧١١ هـ) • تح : عدد من الأساتذة المحققين • دار المعارف بمصر ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م •

٤٨ـ اللباب في تهذيب الأنساب لأبي الحسن علي بن محمد ، المعروف بابن الأثير (٦٣٠ هـ) • مكتبة القدسي في القاهرة ١٣٥٧ هـ/١٩٣٨ م •

٤٩ـ مجالس ثعلب ، أبي العباس احمد بن يحيى (٢٩١ هـ)• تح : عبدالسلام هارون • ط ٢ • دار المعارف بمصر ١٢٧٦ هـ/١٩٥٦ م •

٥٠ـ المحبّر لأبي جعفر محمد بن حبيب (٢٤٥ هـ) • تح : د• ايلزه ليغتن شتيتر • مجلس دائرة المعارف العثمانية في حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٦١ هـ/١٩٤٢ م •(مصورة دار الآفاق الجديدة في بيروت دون تاريخ) •

٥١ـ المحكم لابن سيده الأندلسي (٤٥٨ هـ) • تح : عدد من الأساتذة المحققين • ط ١ ، ١٩٧٢ م •

٥٢ـ المخصص لابن سيده • دار الفكر في بيروت ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨ م •

٥٣ـ المرصّع لابن الأثير (٦٠٦ هـ) • تح : د• ابراهيم السامرائي • رئاسة ديوان الأوقاف في بغداد ١٣٩١ هـ/١٩٧١ م•

٥٤ـ المزهر في علوم اللغة وآدابها لجلال الدين السيوطي (٩١١ هـ) • تح : محمد جاد المولى ، وعلي محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل ابراهيم • دار احياء الكتب العربية بمصر ١٣٧٧ هـ/١٩٥٧ م •

٥٥ـ المشوف المُعلَم في ترتيب الاصلاح على حروف المعجم لأبي البقاء عبدالله بن الحسين العكبري (٦١٦ هـ) • تح : ياسين محمد السواس • جامعة أم القرى في السعودية ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣ م •

٥٦ـ المعاني الكبير في أبيات المعاني لابن قتيبة (٢٧٦ هـ) • تح : سالم الكرنكوي • ط ١ • مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند ١٣٦٨ هـ/١٩٤٩م•

٥٧ـ معجم الشعراء لأبي عبيدالله محمد بن عمران المرزباني (٣٨٤ هـ) • تح : عبدالستار أحمد فراج • مكتبة النوري بدمشق (دون تاريخ) •

٥٨ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبدالباقي • دار الكتب المصرية ١٣٦٥ هـ/١٩٤٥ م •

٥٩ـ المعارف لابن قتيبة (٢٧٦ هـ) • تح : د• ثروت عكاشة• ط ٢ • دار المعارف بمصر ١٣٨٩ هـ/١٩٦٩ م •

٦٠ـ المكاثرة عند المذاكرة لجعفر بن محمد الطيالسي (من علماء القرن الرابع الهجري) • تح: محمد بن تاويت الطنجي• أنقرة ١٣٧٦ هـ/١٩٥٦ م •

٦١ـ المؤتلف والمختلف لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي (٣٧٠ هـ) • تح : عبدالستار أحمد فراج • دار احياء الكتب العربية المصرية ١٣٨١ هـ/١٩٦١ م •

٦٢ـ الموشّى ، أو الظرف والظرفاء للوشّاء ، أبي الطيب محمد بن اسحاق (٣٢٥ هـ) • تح : كرم البستاني • دار صادر في بيروت (دون تاريخ) • وهناك نشرة أخرى منه، حققها كمال مصطفى • ط ٢ • مكتبة الخانجي بمصر ١٣٧٣ /١٩٥٣ م •

٦٣ـ نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب لأبي الحسن علي بن موسى ، المعروف بابن سعيد الأندلسي (٦٨٥ هـ) • تح : د• نصرت عبدالرحمن • مكتبة الأقصى في عمان ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢ م •

٦٤ـ الوساطة بين المتنبي وخصومه لأبي الحسن علي بن عبدالعزيز الجرجاني (٣٩٢ هـ) • تح : محمد أبو الفضل ابراهيم ، وعلي محمد البجاوي • دار القلم في بيروت دون تاريخ) •

ثانياً : المخطوطات :

٦٥ـ شعر عمرو بن أحمر الباهلي : جمع وتحقيق ودراسة • صنعة : محمد محيي الدين مينو • بحث أعد لنيل درجة الماجستير في الآداب باشراف الأستاذ الدكتور عبدالحفيظ السطلي • كلية الآداب والعلوم الانسانية في جامعة دمشق ١٩٨٨/٨٧ ، ومنها نسخة في مكتبة الأسد •

٦٦ـ من سمي من الشعراء عمراً لمحمد بن داود بن الجراح (٢٩٦ هـ) • مصورة (الفاتح ٥٣٠٣) يحتفظ بها مجمع اللغة العربية بدمشق ، ومنه صورة أخرى في مكتبتي •

ثالثاً : المجلات :

٦٧ـ مجلة التراث العربي : ع ٤٢ و ٤٣ ، كانون الثاني ، ونيسان ١٩٩١ م/رجب ، وشوال ١٤١١ هـ ، السنة ١١ •

٦٨ـ مجلة معهد المخطوطات العربية : ج ١ ، مج ٣٠ ، ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦ م •

الائتلاف
رأس الوجوه البلاغية

د. ياسين الأيوبي

١ ــ تعريفه :

أ ــ في اللغة : ائتلف الشيء : ألف بعضه بعضاً . وألِف الشيء ألفاً وإيلافاً وولافاً : لزمه . وألَّفت بين الشيئين تأليفاً ، فتألّفا وائتلفا(١) .

كل ذلك يفضي الى المعنى اللغوي العام وهو : الاتفاق والاجتماع ، ولا يكون ذلك الا بعد تفرّق وغربة ، ومنه قوله تعالى ، في التأليف بين المؤمنين بعد الاسلام :

« لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم ولكن الله ألّف بينهم انه عزيز حكيم»(٢) ومعنى الآية أن المؤمنين من المهاجرين والأنصار كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية ، فاستشرت العداوة والبغضاء بينهم ، فألّف الله بينهم ، بعد أن هداهم بنور الايمان(٣) .

ب ــ في الاصطلاح : نظراً لاختلاف النقاد القدامى في تفسيره وتحديد نوعه واسمه ، صعب تعريفه تعريفاً بلاغياً محدداً . فسمي مراعاة النظير ، والتناسب ، والتوفيق ، والمؤاخاة ، يدخل في ذلك ائتلاف اللفظ مع المعنى ، واللفظ مع اللفظ ، واللفظ مع الوزن وائتلاف المعنى مع الوزن .. وغيرها مما فرّعه البديعيون وجعلوا كل واحد منها لوناً بديعياً خاصاً ساقوا له الشواهد الشعرية المناسبة .

ومن خلال كل ما ذكر يمكن الخروج بصيغة تقريبية لتعريف الائتلاف فنقول : **هو أن يجمع الناظم أو الناثر بين أمر وما يناسبه في اللفظ والمعنى والوزن والقافية ، جمعاً يؤدي الى تلاؤم وتوافق لا سبيل معهما الى التضاد .**

(*) باحث .. استاذ في كلية الآداب ــ الجامعة اللبنانية .

ولكن ذلك لا يعفينا من الدخول في التفاصيل والوجوه التي يرد فيها الائتلاف ، وتعرّف كل واحد منها على حدة ، ناظرين اليه نظرة شبه مستقلّة عن الوجه الآخر أو القسم الآخر •

٢ ـ أقسامه أو وجوهه :

أ ـ ائتلاف اللفظ مع اللفظ ، لعل أفضل تعريفين لهذا النوع ما قاله ابن حجة الحموي (ت ٨٣٧ هـ/١٤٣٣ م) هو أن يكون في الكلام معنى يصح معه هذا النوع ، ويأخذ عدة معان فيختار منها لفظة بينها وبين الكلام ائتلاف(٤) •

والأفضل منه ، تعريف السيوطي (جلال الدين ت ٩١١ هـ/١٥٠٥ م) أن تكون الألفاظ تلائم بعضها ، بأن يُقرَن الغريب بمثله والمتداول بمثله ، رعاية لحسن الجوار والمناسبة(٥) • كقوله تعالى ، على لسان اخوة يوسف : « تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرَضاً »(٦) فقد ناسب أو آلف بين ثلاثة ألفاظ غريبة الاستعمال مع وجود ألفاظ مماثلة أكثر استعمالا ، وهي على التوالي : (تاء) القسم بدلا من (الواو) و (الباء) ، وهما المألوفتان في القسَم ، ثم الفعل الناقص (تفتأ) بدلا من تزال ، التي ترد في هذا الجانب أكثر من غيرها ، ف (حرضاً) وهي بمعنى : ضعيف القوة ، أو الهالك من الحزن والغم •• وترجع غرابتها الى جزالة حروفها واختلاف قراءتها وتفسيرها • فقد قرأها أنس بن مالك (حُرْضاً) بضم فسكون • ومعنى الآية : انهم قالوا لأبيهم انك لا تزال تذكر يوسف بالحزن والبكاء عليه حتى تصير بذلك الى مرض لا تنتفع بنفسك معه أو تموت من الغم(٧) •

على هذا الأساس تجاوزت الألفاظ وتلاءمت جنساً غريباً ، وطاوع بعضها بعضاً لتؤدي غرضاً بلاغياً سماه البلاغيون : ائتلاف اللفظ مع اللفظ • ومن الائتلاف اللفظي ، ذي الألفاظ المأنوسة ، قوله تعالى : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليَخرُجُنّ »(٨) وهو يعني ـ جل شأنه ـ أهل النفاق الذين كانوا يحلفون للرسول ﷺ بطاعته والخروج معه الى القتال(٩) • وما كان قسمهم الا قولا لا فعلا • فقد ورد في الآية ألفاظ مأنوسة الاستعمال ناسبت بعضها ، فحسُن جوارها ، وتعادل وضعها • ومن جميل ما يروى ، في هذا الباب ، قول صاحب العمدة ، ابن رشيق، مادحاً أحد الأمراء :

أصحّ وأقوى ما سمعناه في الندى ... من الخبر المأثور منذ قديم
أحاديث ترويها السيول عن الحيا ... عن البحر عن كف الأمير تميم

« فقد ناسب فيه بين الصحة ، والقوة ، والسّماع ، والخبر المأثور ، والأحاديث ، والرواية ، ثم بين السيل ، والحيا ، والبحر، وكف تميم ، مع ما في البيت الثاني من صحة الترتيب ؛ في العنعنة ، اذ جعل الرواية لصاغر عن كابر ، كما يقع في سند الحديث ، فان السيول أصلها المطر ، والمطر أصله البحر ، ولهذا جعل كف الممدوح أصلا للبحر مبالغة »(١٠) •

هذه الألفاظ الواردة في بيتي ابن رشيق، اتسقت وانتظمت وائتلفت ، فأدت غرضاً بلاغياً جعل الكلام مؤتلف النسج محكم السَّدى .

ومن تعريفات هذا النوع البديعي ، قول صفي الدين الحلّي (ت ٧٥٠ هـ/١٣٤٩م) أثناء شرح بديعته المسماة « الكافية البديعية في المدائح النبوية » :

« هو أن يكون في الكلام معنى يصح معنى واحد من عدة معان ، فيختار منها ما بين لفظه وبعض الكلام ، ائتلاف وملاءمة » وساق شاهداً لذلك بيتاً شعرياً من « كافيته » (من البسيط) :

خاضوا عُباب الوغى والخيل سابحة في بحر حرب بموج الموت مُلْتَطم(١١)

أما المثال الشعري الذي ضربه الحلي ،من الشعر القديم ، فهو قول البحتري،مادحاً، وواصفاً أنضاء الابل التي مضت في السفـر ودخلت غمار السراب ، (من الخفيف) :

كالقِسِيِّ المعطّفات بل الأسـ ـم مَبْريَّةً بل الأوتار(١٢)

« فان تشبيه الابل بالقسي من حيث هو كناية على هُزالها يصح معه تشبيهها بالعراجين والأخلّة والأطنـاب ونحوها .. فاختار من ذلك تشبيهها بالأسهم والأوتار ، لما بينها وبين القسي من الملاءمة والائتلاف .وكذلك ما في بيت القصيدة من ملاءمة العُباب والسباحة والبحر والموج والالتطام »(١٣) .

ب ـ ائتلاف اللفظ مع المعنى ، وهو توافق الشكل مع المضمون ، أو المعنى والمبنى توافقاً طبيعياً أو عضوياً يكون فيه المألوف مع المألوف ، والغريب مع الغريب والجزل مع الجزل والرقيق مع الرقيق .. وهذا ما عناه الجاحظ في قوله : « ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء ، فالسخيف للسخيف ، والخفيف للخفيف ، والجزْل للجزْل ... وان كان في لفظ الحديث سُخف وأبدلت السخافة بالجزالة، صـار الحديث الـذي وضع علـى أن يسُرَّ النفوس يُكربها ويأخذ بأكظامها »(١٤) .

وفي معرض حديثه عن مقومات الأسلوب عند المؤلف من توفيق بين الكلام ومناسبته ، خاطب القاضي الجرجاني القـارىء الكاتب بضرورة تقسيم الألفاظ على رُتب المعاني ، فلا يكون الغزل كالفخر ، ولا الوعيد كالمدح، ولا الهزل كالجد.. بل يترتب كل في مرتبته، ويوفى حقه ، يستوي في ذلك النظم والنثر(١٥) . مثال ذلك قول الحق تبارك :

« ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب »(١٦) فعدل الله سبحانه وتعالى عن ذكر الطين الى ذكر التراب لأن فيه كثافة . اذ المقصود بلفظ التراب ومعناه ، تصغير أمر خلق المسيح (ع) عند مـن ادعى أُلوهيتـه ،فلهذا كان الاتيان بلفظ التراب أمسَّ بالمعنى من الطين ، الذي هو أعم من التراب، ويعني مجموع التراب والماء ، ومن الأمثلة القرآنية الدالة على هذا النوع من الائتلاف ، قولـه تعالى أيضاً في معـرض الاستسقـاء : « واذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضـرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً »(١٧)

ثم قوله تعالى : « وأوحينا الى موسى اذاستسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً »(١٨) فقد استخدم ـ جل وعلا ـ مع استسقاء موسى(ع) لفظة « انفجرت » ومع استسقاء قومه « انبجست » وشتان ما بين اللفظتين . الأولى أقوى من الثانية بأضعاف لأنها في مقام التناسب مع موسى ، وأما الثانية فهي في ائتلاف وتوافق مع مقام قوم موسى .. ومثل ذلك قول زهير بن أبي سلمى (ت٦١٥ م) (من الطويل) :

فلما عرفت الدار قلت لربعها ... ألا انعم صباحاً أيها الرَّبْعُ واسلَمِ

أثـافيَّ سُفْعاً في مُعرَّسِ مرجَلٍ ... ونُؤياً كجِذم الحوض لم يتَثلَّمِ(٩)

في البيت الأول معان بينة واضحة ومعروفة ، ائتلفت مع ألفاظ مستعملة معروفة ، أما البيت الثاني فالمعاني غريبة نوعاً ما ، استدعت ألفاظاً غريبة بعض الشيء ..

ومن النقاد البلاغيين القدامى الذين أولوا هذا النوع التفاتة مفيدة ، ابن طباطبا العلوي (ت ٣٢٢ هـ/٩٣٣ م) عارضاً للشعر وأنواعه وأساليبه ، قائلا في : ملاءمة معاني الشعر لمبانيه : ان في الشعر أشياء هي قائمة في النفوس ، يقوم الشاعر باستخراجها « واظهار ما يكمن في الضمائر منها ، فيبتهج السامع لما يَرِدُ عليه مما قد عرفه طبعه ، وقبله فهمه ، فيُثار بذلك ما كان دفيناً ويبرز به ما كان مكنوناً ... ان الكلام الواحد جسداً وروحاً . فجسده النطق وروحه معناه ، فواجب على صانع الشعر أن يصنعه صنعة متقنة ، لطيفة مقبولة ، حسنة مجتلبة لمحبة السامع له والناظر اليه ، فيُحسِّه جسماً ويحققه روحاً . أي يتقنه لفظاً ، ويبدعه معنى ، ويجتنب اخراجه على ضد هذه الصفة.. بل يُسوي أعضاءه وزناً ، ويعدل أجزاءه تأليفاً ، ويُحسِّن صورته اصابة »(٢٠) . ولم يورد العلوي شواهد شعرية تؤيد مثال ما قال..

أما صفي الدين الحلي ، فقد عرّف هذا النوع ببساطة لافتة قائلا : « هو عبارة عن الاتيان بألفاظ جزلة ان كان المعنى فخماً ، وبألفاظ رقيقة ان كان المعنى سهلا »(٢١) شاهده في ذلك ، قوله من بديعته (من البسيط):

كأنما حَلَّـف السَّعدي مُنتثـراً ... على الثرى بين مُنفَضٍ ومنفصمِ(٢٢)

ثم جاء بشاهد آخر ، هو بيتا زهير بن أبي سلمى ، أعلاه ، مع تعليل شبيه بالتعليل الذي أوردناه في موضعه ..

جـ ـ ائتلاف اللفظ مع الوزن : عُني قدامة بن جعفر بهذا النوع بدقة ووضع ثوابته التي ظلت بمعظمها ، كما هي لدى البلاغيين الذين جاؤوا من بعده . فقال : « هو أن تكون الأسماء والأفعال في الشعر تامة مستقيمة كما بُنيت ، لم يضطر الأمر في الوزن الى نقضها عن البنية ، بالزيادة عليها والنقصان منها ؛ وأن تكون أوضاع الأسماء والأفعال ، والمؤلفة منها وهي الأقوال ، على ترتيب ونظام ، لم يضطر الوزن الى تأخير ما يجب تقديمه ، ولا الى تقديم ما يجب تأخيره منها ، ولا اضطر أيضاً الى اضافة

لفظة أخرى يلتبس المعنى بها ، بل يكون الموصوف مقدماً والصفة مقولة عليها ٠٠٠ ومن هذا الباب أيضاً أن لا يكون الوزن قد اضطر الى ادخال معنى ليس الغرض في الشعر محتاجاً اليه حتى اذا حُذف لم تنقص الدلالة لحذفه أو اسقاط معنى لا يتم الغرض المقصود الا به »(٢٣) • ويرى قدامة أن كل شعر سليم هو مثال لذلك ، ولهذا لم يأت بشاهد شعري لتعريفه المطول • بل عرض لما يشوب هذا الائتلاف من عيوب ، وجاء بأمثلة لكل واحد منها • وعلى غراره فعل صفي الدين الحلي الذي ساق شاهداً على ذلك ، بيتاً من بديعيته وهو (من البسيط) :

في ظل أبلج منصور اللواء له عدل يؤلّف بين الذئب والغنَمِ(٢٤)

البيت في مدح النبي ولم يخرج تعريف الحلي عما قاله قدامة ، الا أنه جاء أبسط وأوضح • فقال(٢٥) : هو نوع لا مثال له بصورة معينة ، لأنه عبارة عن ألا يُضطر الشاعر الوزن الى أن يُقدم بعض الألفاظ ، ويؤخر بعضها ، فيفسد تصور المعنى ، ويذهب رونق اللفظ ، كما قال الفرزدق (ت١١٠هـ/ ٧٣٨ م) في مدح خال هشام بن عبد الملك ، (من الطويل) :

وما مثلُه في الناس الا مُملّكاً أبو أمّه حيٌّ أبوه يُقاربه

ومراده : ليس في الناس حيٌّ مثله ، يقاربه ، الا مُملّكاً ، أبو أمه أبوه • ويريد بالمملّك هشاماً(٢٦) •

د ــ ائتلاف المعنى مع المعنى عرّفه الحلي بقوله :

هو ضربان : الأول قوله ، أي الحلي ، في بديعيته ، (من البسيط) :

من مُفرد بغرار السيف مُنتثر ومُزوج بسنان الرمح مُنتظم

وهو أن يشتمل الكلام على معنى معه أمران أحدهما ملائم ، والآخر بخلافه فتقرنه بالملائم(٢٧) •• وشفع تعريفه بشاهد آخر للمتنبي ، مادحاً سيف الدولة (من البسيط) :

فالعُرب منه مع الكُدريّ طائرة والروم طائرة منه مع الحَجَل(٢٨)

كان من الممكن قرن « منتظم » مع « غرار السيف » وهو حده ، و « منتثر » ب «سنان الرمح » فهما ملائمان للمعنى ــ وكذلك كان من الممكن أن يقول المتنبي :

فالروم منه مع الكُدريّ طائرة والعُرب طائرة منه مع الحَجَلِ

لكنه آثر التعبير بالشكل الذي أورد لأن القطا يلائم بلاد العرب ، والحجل ، الساكن في الجبال ، يلائم مع الروم لأنهم يسكنون الجبال مثله ، وبذلك يكون المعنى قد ائتلف مع المعنى بصورة أفضل •

والضرب الثاني : أن يشتمل الكلام على معنى وملائمين له ، فتقرن بهما ما لاقترانه مزية، كما في قول المتنبي ، مادحاً سيف الدولة في معركة انتصاره على الروم ، بالحدث (من الطويل) :

وقفت ، وما في الموت شك لواقف ... كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ... ووجهك وضاح وثغرك باسم(٢٩)

يقول المتنبي ــ رداً على سيف الدولة الذي أنكر على الشاعر تطبيق عجزي البيتين على صدريهما ــ « لما ذكرت الموت في أول البيت ، أتبعته بذكر الردى لتجانسه • ولما كان وجه المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوساً ،وعينه من أن تكون باكية ، قلت : « ووجهك وضاح وثغرك باسم » ، لأجمع بين الأضداد في المعنى »(٣٠) ، انتهى كلام المتنبي •

ويعقب الواحدي (ت٤٦٨ هـ/١٠٧٥م) شارح ديوان المتنبي ــ على ما قاله : « لا تطبيق بين الصدر والعجز أحسن من بيتي المتنبي ؛ لأن قوله : « كأنك في جفن الردى وهو نائم » ، هو معنى قوله : « وقفت وما في الموت شك لواقف » • فلا معدل لهذا العجز عن هذا الصدر ، لأن النائم اذا أطبق جفنه ، أحاط بما تحته ، وكان الموت قد أظله من كل مكان ، كما يُحدق الجفن بما يتضمنه من جميع جهاته • وجعله نائماً ، لسلامته من الهلاك لأنه لم يُبصره وغفل عنه بالنوم فسلّم ولم يهلك •

وفي البيت الثاني ، يقول الواحدي ، « هذا هو النهاية في التشابه لأنه يقول المكان الذي تُكْلَم فيه الأبطال ، فتكلح فتعبس ؛ ثم « وجهك وضاح » لاحتقارك الأمر العظيم • وهذا كما قال مسلم (بن الوليد) من البسيط :

يفتر عند افترار الحرب مُبتسما ... اذا تغير وجه الفارس البطل »(٣١)

ومن الأمثلة القرآنية الدالة على هذا النوع ما ورد في كتب البلاغة القديمة في قوله تعالى :

« ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى * وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى »(٣٢) •

يلاحظ في الآية عدم مراعاة معنى الري، للشبع ، ولا الاستظلال ، للبس •• بل روعي مناسبة اللبس للشبع ، في حاجة الانسان اليه وعدم استغنائه عنه ، ومناسبة الاستظلال للري، في كونهما تابعين للبس والشبع ومكملين لمنافعهما(٣٣) •

وفي اعرابه البياني لهذه الآية ، شرح محي الدين الدرويش وجوه البلاغة الكامنة فيها ، فقال : هذه الآية من القسم الذي يوهم ظاهره أن نظم الكلام جاء على غير طريق البلاغة ، لكون لفظه غير مؤتلف بمعناه ••• واذا تأمله حق التأمل ، وجده جارياً على منهج البلاغة ••• فلو قيل : لا تجوع ولا تظمأ ،ولا تضحى ولا تعرى ، لكان ذلك جارياً على ما توجبه البلاغة من الملاءمة • والجواب أنه لو قيل : ان لك ألا تجوع فيها ولا تظمأ ، لوجب أن يقول : وأنك لا تعرى فيها ولا تضحى • والتضحي : البروز للشمس بغير

سترة • فيصير معنى الكلام : وانك لا تعرى فيها ولا تعرى • وهذا فساد ظاهر • لذلك وجب العدول عنه الى لفظ القرآن •• فان قيل : لمَ ذكر التضحي ، وهو عُري في المعنى، وقد أغنى ذكر العري ؟ قلت : في ذكر التضحي فائدة كبيرة وهي وصف الجنة بأنها لا شمس فيها • فان التضحي عري مخصوص ،مشروط بالبروز الى الشمس وقت الضحى ، الذي سمي تضحياً ، والانتقال من الأعم الى الأخص بلاغة لاختصاص الأخص • ولا ننس أن في الآية تجانساً داخلياً بليغاً هو أن الجوع تجرد الباطن من الغذاء ، والعري تجرد الظاهر من الغشاء وكذلك الظمأ : حر الباطن ، والضحى الظهور للشمس ، فجانس بين التجردين الأولين في الآية ، والتجردين الثانيين(٣٤) ••

هـ ـ ائتلاف المعنى مع الوزن ، نعت قدامة هذا النوع بقوله :

« هو أن تكون المعاني مستوفاة ، لم تُضطر باقامة الوزن،الى نقصها عن الواجب، ولا الى الزيادة فيها عليه ؛ وأن تكون المعاني أيضاً مواجهة للغرض ، لم تمتنع عن ذلك ، وتعدل عنه من أجل اقامة الوزن والطلب لصحته »(٣٥) •

لم يورد قدامة شاهداً على هذا التعريف ـ بل عمد ـ في فصل لاحق ، الى ذكر عيوب ائتلاف المعنى والوزن ، كأن يأتي المعنى مقلوباً ، مراعاة للوزن ، كقول الحطيئة (ت ٣٠هـ/٦٥٠ م) (من الطويل) :

فلما خشيت الهون والعير مُمسك على رغمه ما أثبت الحبل حافره(٣٦)

أراد الحبل حافره ، فانقلب المعنى • أو أن يأتي مبتوراً باطالته ، فلا يُكتفى معه ببيت واحد ، بل يحتاج الى بيت ثان ، كقول عروة الصعاليك (ت : ٥٩٦ أو ٦١٦ م) (من الوافر) :

فلو كاليوم كان عليَّ أمري ومن لك بالتدبر في الأمور

لم يتم المعنى ، كما نرى ، لغياب جواب« لو » ، فان البيت الآتي ليتم المعنى :

اذاً لملكت عصمة أمِّ وهبٍ على ما كان من حَسَك الصدور(٣٧)

ومعنى البيتين : لو كنته يومئذ كما أنا اليوم قوة واقتداراً ، لأمسكتها ، وكنت مالك أمرها على ما بيني وبين قومها من الكراهية والعداء •

وعرّف صفي الدين الحلي، هذا النوع،فقال : هو أن يؤتى بلفظ يأتلف مع المعنى من غير حاجة الى اخراج المعنى عن وجه الصحة بتقديم ، أو تأخير ، أو تحريف أو حذف ، أو قلب • مثاله ، بيت له في بديعيته،(من البسيط) :

من مثله وذراع الشاة حدّثه عن سُمّه بلسان صادق الرَّنم(٣٨)

ومن أمثلة القلب ، استشهد الحلي ببيت للشاعر الأموي عبد الله بن الدُّمينة(ت ١٣٠هـ ٧٤٨ م) ، (من الطويل) :

ليهنئك امساكي على الكفِّ بالحشا ورقراق دمعي خشية من زيالك

أراد : امساكي على الحشا بالكف(٣٩) ٠

ومعنى البيت ، وهو من أجود أشعار النسيب ، أن الشاعر قد وقف على آثار الحبيبة ، الدارسة ، خشي على قلبه التصدع، فأمسك بكفه على حشاه ، تثبيتاً لها وتقوية ، وبكى وترقرق دمعه في عينيه ، ثم توجه الى المحبوبة قائلا : هنيئاً لك ذلك ، أي ما أنا فيه من التلوع والتصدع ٠ ويرى صفي الدين ، أن كل بيت صحيح المعنى ، مستقيم الوزن ، هو مثال لهذا النوع من الائتلاف(٤٠) ٠

و ـ **ائتلاف الوزن مع المعنى** ، هذا النوع لا يختلف عن النوع السابق (ائتلاف المعنى مع الوزن) في شيء ٠ لكن واحداً من البلغاء القدامى ، قد نظر اليه نظرة فيها شيء من التغاير والمخالفة ٠ ألا وهو حازم القرطاجني المتوفى ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م ، الذي أفرد لهذا النوع ـ دون أن يسميه ـ فقرات عديدة شارحاً دور الوزن الشعري في تلاؤم المعنى ومناسبته فقال :

« لما كانت أغراض الشعر شتى ، وكان منها ما يُقصد به الجد والرصانة ، وما يقصد به الهزل والرشاقة ، ومنها ما يقصد به البهاء والتفخيم ، وما يقصد به الصغار والتحقير ٠٠ وجب أن تُحاكى تلك المقاصد بما يناسبها من الأوزان ويخيلها للنفوس ٠ فاذا قصد الشاعر الفخر، حاكى غرضه بالأوزان الفخمة الباهية الرصينة ، واذا قصد في موضع قصداً هزلياً أو استخفافياً ٠٠ حاكى ذلك بما يناسبه من الأوزان الطائشة القليلة البهاء »(٤١) ٠

وبعد أن يذكر ائتلاف مقادير الأوزان والأسباب والأجزاء ٠٠ يعرض لحقيقة التأليف ، فيقول : فالتأليف من المتناسبات له حلاوة في المسموع ٠ وما ائتلف من غير المتناسبات والمتماثلات فغير مستحلى ولامستطاب ٠ ويجب أن يقال في ما ائتلف على ذلك النحو شعر وما ائتلف من أجزاء تكثر فيها السواكن فان فيه كزازة وتوعراً ٠ وما ائتلف من أجزاء تكثر فيها المتحركات ، فان فيه لدونة وسباطة(٤٢) ويصل في تحليله العروضي الى تشريح الأوزان العروضية وتصنيفها وترتيب مقاماتها بالنسبة الى أغراض الشعراء ، فجعل الطويل والبسيط أعلى الأوزان درجة ، يتلوهما الوافر والكامل ، يتلوهما الخفيف ٠ « أما المديد والرمل ففيهما لين وضعف ، وقلما وقع كلام فيهما قوي الا للعرب ؛ وكلامهم مع ذلك في غيرهما أقوى ٠ فأما المنسرح ففي الكلام عليه بعض اضطراب وتقلقل ٠٠ فاما السريع والرجز ففيهما كزازة ٠ فأما المتقارب فالكلام فيه حسن الاطراد ٠٠ فاما المجتث والمقتضب فالحلاوة فيهما قليلة على طيش فيهما ٠ فاما المضارع ، ففيه كل قبيحة ٠ ولا ينبغي أن يعد من أوزان العرب ، وانما وضع قياساً ، وهو قياس فاسد لأنه من الوضع المتنافر على ما تقدم »(٤٣) ٠

ويعلق **أحمد مطلوب** على تصنيف حازم لأوزان الشعر وترتيبها ، بالقول : « لعل حازماً أراد أن يثبت غير ما قاله هذان الفيلسوفان [الفارابي وابن سينا] حينما نسبا هذه

المزية الى اليونان وحدهم ، فتحدث عن صلة الوزن بأغراض الشعر العربي أو « ائتلاف الوزن مع المعنى » ، ولكنه لم يفصّل القول في ذلك ، وظل بعيداً عن كشف أسرار هذا الائتلاف .. »(٤٤)

ز ـ ائتلاف الفواصل :

الفواصل في اللغة ، هي أواخر الآيات في القرآن الكريم ، تماثلها القوافي ، في الشعر واحدتها فاصلة(٤٥) .

أما في الاصطلاح ، فالفواصل ، « حروف متشاكلة في المقاطع ، يقع بها افهام المعاني . »(٤٦) وهي تختلف عن السجع ،لأن السجع يتبعه المعنى ، والفواصل تابعة للمعاني(٤٧) .

وتختلف عن القوافي ، في أن هذه الأخيرة لا تحسن الكلام فيها الا بمجانسة القوافي واقامة الوزن ، بينما تقع الفواصل على حروف متجانسة أو متقاربة ، فهي في طبقة أعلى في البلاغة(٤٨) . ولعل هذا الرأي مستخرج من أن السجع القرآني غير مقصود لذاته ، بل هو نظام تعبيري ، يكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى . والفرق بين الفواصل والأسجاع ، هو أن الأولى تتماثل فيها حروف المقاطع ، فيكون سجع ، أو تكون متقاربة ، لا متماثلة ، فلا يكون سجع .

أما الثانية ، فالحروف في المقاطع الأخيرة ، هي دائماً متماثلة . وفي القرآن الكريم النوعان معاً : الحروف المتماثلة والمتقاربة في(المقاطع الأخيرة . من ذلك قولى تعالى : (والشَّمْسِ وضُحَاها ، والقَمَرِ اذا تَلاها ، والنَّهارِ اذا جَلاّها ، واللَّيْلِ اذا يَغْشَاها)(٤٩) . فالفواصل هنا متماثلة الحروف ، مسجّعة ، على جانب كبير من التوازن الايقاعي والموسيقي . وقوله تعالى :(هل أتَاكَ حديثُ الغاشيَةِ ، وجُوهٌ يَوْمئذٍ خاشِعَةٌ ، عامِلَةٌ ناصِبَةٌ ،تَصْلى ناراً حامِيَةً)(٥٠) .

فهي ذات مقاطع متقاربة الحروف ،ما بين (الياء) ـ في الأولى) ـ و (العين) ـ في الثانية ـ و (الباء) ـ في الثالثة) ـ و (الياء) ـ في الرابعة ـ ولولا رويّ التاء المربوطة في نهاية الآيات ، لاختل السياق الايقاعي فيها .

وهناك من جعل هذا النوع ، مشتملا على كل ما له علاقة بالسجع ، نثراً أم شعراً أم قرآناً ، فقال : هو أن يمهد الناثر لسجعة فقرته ، والشاعر لقافية بيته ، تمهيداً تأتي به القافية متمكنة في مكانها ، مستقرة في قرارها ، غير نافرة ولا قلقة ، متعلقاً معناها بمعنى البيت كله تعلقاً تاماً ، بحيث لو طرحت من البيت ، لاختل معناه ، واضطرب مفهومه ... »(٥١)

ح ـ ائتلاف القوافي :

هو نفسه الذي رأيناه في ائتلاف الفواصل ، مع ابن أبي الاصبع المصري ، فتكون القافية في البيت لازمة للمعنى واتمامه ، لزومها لموسيقى البيت ووزنه ؛ والا عُدت عيباً

بلاغياً أقل ما يقال فيهـا انها حشو وزيـادة لا نفع فيها • كقول **أبي تمام** يمدح مالك بن طوق [من الكامل] :

كالظبيـة الأدمـاء صافت فارتعت   زهر العرار الغض والجثجاثا(٥٢)

قال قدامـة : ان القافية قـد تكلف في طلبها ، وان جميع هذا البيت مبني على طلبها والا فليـس في وصف الظبيـة بأنها ترتعـي الجثجاث كبير فائدة(٥٣) •

ومثلـه ، قول **صفي الديـن الحلّي** ، يمدح السلطـان الأرتقي المنصـور ، (من الكامل) :

ظلت تقـاتـل للمقـاتـل أسهما   أغنت عن الأفواق والأرعـاظ(٥٤)

(الأفواق والأرعاظ) لفظان متقاربان في المعنى لدرجة التداخل • فالأول ، جمع : فوق ، وهو مشـق رأس السهم ، والثـاني ،جمع : رعظ ، مدخـل النصل في السـهم • وهكذا تكون « الأرعـاظ » قد زيدت عـلى البيت لأجل الثانيـة ، وهو ما لا يحسن بـه ائتلاف القافية مع البيت • وأما المثال الذي يصح معه هذا النوع ، فهو قول **المتنبي** مادحاً سيف الدولة ، [من البسيط] :

يا أعدل النـاس الا في معاملتـي   فيك الخصام وأنت الخصم والحكم(٥٥)

فقد تآلفت ألفاظ هذا البيت مع قافيته تآلفاً عضوياً ممتـازاً جعـل لفظ القافيـة : « الحكم » لأن في كلا شطري البيت ما يـؤدي الى هذه القافية ، (كالعـدل والتعامـل) في الصدر ، و (الخصومة) في العجز • ومثلـه قول **المتنبي** في القصيدة نفسها :

أنا الذي نظـر الأعمى الى أدبـي   وأسمعت كلمـاتي من بـه صمم ••

فالقافية رأس السلّم المعنوي والموسيقي لهذا البيت ، لا يمكن حذفها أو تغييرها •• ويمكن نعت كل بيت شعري من هـذا القبيل بالمؤتلف القافية ، لأن المدار هو قوة القافية ، وحاجة البيت اليها ، لا حاجة الشاعر ، وعدم اللجوء اليها لأجل اكثـار الأبيات والتسـجيع فيها • ومن شواهد هذا العيب ، قول علي بن محمد **البصري** (ت ؟) [من الطويل] :

وسابغة الأذيال زغف مفاضة   تكنّفهـا منّـي نجـاد مخطط

الزغف والزغفة : الدرع المحكمة ، وقيـل : الواسعة الطويـلة(٥٦) • النجاد : حمائـل السيف •

قال **قدامة** : ان الشـاعر جاء بالقافيـة (مخطط) لكـي تكـون نظيرة لأخواتهـا في السجع ، وليس لها فائدة ، « فليس لأن يكون هذا النجـاد مخططاً صنع في صفـة الدروع وتجديد نعتها ، ولكنه أتى به من أجل السجع »(٥٧) •

وفي ختام الكلام على هذا النوع ، لا بد من التذكير بالتشابه والتكامل اللذين يتمتع بهما النوعان المشروحان أعلاه وهما ائتلاف الفواصل وائتلاف القوافي ، بحيث لا يختلف تعريف الواحـد عن الآخـر الا في أن الأول أنسب لنعت موسيقي الكلام القرآني، والثاني ألصق بالشعر وموسيقاه •

ط ـ الائتلاف والاختلاف :

هذا النوع غير مشروح الا عند قلة من البلاغيين • يسمونه تارة كذلك ، وتارة المؤتلف والمختلف ، وثالثة : المؤتلفة والمختلفة، أي : المعاني المؤتلفة والمعاني المختلفة •• وأفضل تعريف له ما جاء لدى زكي الدين بنأبي الاصبع : « هو عبارة عن أن يريد المتكلم التسوية بين ممدوحين ، فيأتي بمعان مؤتلفةفي مدحهما ثم يروم بعد ذلك ترجيح أحدهما على الآخر ، بزيادة فضل لا ينقص مدح الآخر ، فيأتي لأجل ذلك الترجيح بمعان تخالف معاني التسوية »(٥٨) • وضرب مثالا على ذلك قول **الخنساء** في مدح (رثاء) أخيها صخر ، موازنة بينه وبين والدهما ، مع مراعاة حق الوالد بزيادة فضل لا ينقص به مدح الولد ، [من الكامل] :

جارى أباه فاقبلا وهما	**يتعاوران ملاءة الحضر**
وهما وقد برزا كانهما	**صقران قد حطا الى وكر**
برقت صحيفة وجه والده	**ومضى على غلواته يجري**
أولى فاولى أن يساويه	**لولا جلال السن والكبر(٥٩)**

وهذا النوع على ضربين • الأول ما كان الشاهد يحتوي على المؤتلف والمختلف معاً ، كابيات الخنساء أعلاه ، وكقول **العباس بن الأحنف** يهجو قوماً [من الطويل] :

وصالكم هجر وحبكم قلى وعطفكم صد وسلمكم حرب(٦٠)

هناك أربع جمل في كل واحدة منها مطابقة بين شيئين ، والكل مؤتلف فيما بين المطابقة والمكاتبة •

أما الضرب الثاني ، فهو ما كان الائتلاف فيه منفصلا عن الاختلاف ، شبه مستقل عنه ؛ مثل هذا مثبوت في تضاعيف الآيات القرآنية ، من ذلك قول الحق تبارك :

« هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً * إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً »(٦١) •

في الآيتين الكريمتين معان متتابعة ، منهاعدمية الانسان ثم وجوده وخلقه من نطفة ثم صيروته الى مخلوق حي عاقل يسمع ويبصر •

وكلا المعنيين الأول والثاني منفصل عن الآخر ، على الأقل في اختلاف الجمل التي صيغ بها المعنيان ، ما بين انشائية استفهامية، وخبرية مؤكدة•• ولكن خيطاً رفيعاً يجمعهما ويؤلف بينهما وهو واقع الانسان الذي لم يكن شيئاً • ثم كان على أحسن صورة • ومنه قوله تعالى : **« ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون * وما علمناه الشعر وما ينبغي له ان هو إلا ذكر وقرآن مبين »** (٦٢) •

في الآية الأولى ثلاثة معان : الهرم والقبح الشنيع والتعقل متسقة فيما بينها لتؤدي غرض الرحمن وهو الاعتبار منه حقيقة ما يؤول اليه الانسان في نهاية عمره ·· وفي الآية التالية ، معان أخرى مستقلة ومعزولة عن المعاني السابقة ـ هي الشعر والوحي والقرآن ·· متساوقة مؤتلفة فيما بينها لتؤدي غرضه الآية وهو عظمة النبي (ﷺ) في ما تلاه من كلام لا علاقة له بالشعر ، لأنه أعظم من الشعر وغيره من فنون القول ·· ومع ذلك فقد استقلت المعاني بعضها عن بعض ، فائتلفت في كل جانب وكل آية ، ولكن على اختلاف بين هذه وتلك !·

وأفرد أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ/١١٠١ م) فقرة خاصة سماها :

« في جمع المؤتلف والمختلف » جاء في تعريفها : هو أن يُجمع في كلام قصير ، أشياء كثيرة مختلفة أو متفقة ·· كقول الله تعالى : « **فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم آيات مُفصَّلات** »(٦٣) ·

الجديد في تعريف العسكري ، هو عدم الفصل بين المؤتلف والمختلف في الشاهد الذي استخدمه ، ان في القرآن أم في الشعر أم في النثر · فكان يأتي بشواهد يجتمع فيها فقط المؤتلف ، وأحياناً قليلة يجمع ما بين المؤتلف والمختلف · ومن هذا الوجه الأخير ، قول الشاعر (من الخفيف) :

نبطيٌ إباؤه لم يَلِده ذو صلاحٍ ولم يلدْ ذا صلاح
معشر أشبهوا القرود ولكن خالفوها في خفة الأرواح(٦٤)

فقد تضمن البيتان وصفاً تشنيعياً للموصوف ، لكنه انتهى بما يشبه المدح ··

ومن هذا القبيل ، قول سويد بن خذاق (جاهلي) (من الطويل) :

أبى القلب أن يأتي السَّدير وأهله وإن قيل عيش بالسَّدير غزير
به البقُّ والحُمّىُ وأُسدُ خفيّةٍ وعمرو بن هند يعتدي ويجور(٦٥)

فقد جمع الشاعر كثيراً من المقابح والمساوىء بعد أن مهد لها برفض الحياة والسكن في المكان الذي ذكره · ومن جميل الشواهد الشعرية التي يجتمع فيها المؤتلف والمختلف في أن قول أبي تمام مادحاً سليمان بن وهب ، (من الخفيف) :

ربَّ خفضٍ تحت السُّرى وغناء من عناء ونُضرة من شُحوب(٦٦)

فقد جمع في البيت الواحد خفض العيش ، وهو الدعة والبحبوحة ، والمشقة والغنى أو الغناء ، مع الغباء والنضرة والشحوب · وهذا من أجمل شواهد الجمع العضوي بين الائتلاف والاختلاف ·

ويلتفت أبو هلال الى الأشياء المؤتلفة المجتمعة في شاهد واحد ، فيعرض لقول ابن المعتز (ت٢٩٦ هـ/٩٠٨) (من الكامل) :

والله ما أدري بكنه صفاته ملك القلوب فاوبقت في أسره
أبوجهه أم شعره أم ثغره أم نحره أم ردفه أم خصره ؟(٦٧)

ويذكر لنفسه قوله ، مادحاً (من الطويل) :

فتى لم نزنه بالقوافي وانما حططنا اليه كي يزين القوافيا
مِن الغرّ لا حوا شمساً ومضوا ظُبى وصالوا أُسوداً واستهلوا سواريا(٦٨)

ففي الشاهدين ، لا بن المعتز وأبي هلال ، جمع لمؤتلف فقط ؛ ومثله لأبي هلال أيضاً ، (من الكامل) ٠

يسبيك منه مُفلّج ومُضرّج ومقوّم ومُعوّج ومُهفهف(٦٩)

فقد كنى عن الفم والأسنان بالمفلّج ،أي المتباعد الأسنان ٠ وعن الخد المورّد بالمضرّج أي المصطبغ حمرة ٠ وعن القامة المعتدلة بالرمح المقوّم٠٠وربما كنى عن الذوائب والعذار بالمعوج ، وعن الشعر أو البدن الرهيف بالمهفهف ، وهو الرقيق الخصر ، أو الرقيق الشفاف من الثياب ٠

* * *

□ الحواشي :

١ ـ لسان العرب ١١/١ و ٩ ٠ (الف) ٠
٢ ـ سورة الأنفال/٦٣ ٠
٣ ـ تفسير ابن كثير ٣٤٢/٣ ٠
٤ ـ خزانة الأدب القاهرة ١٣٠٤ هـ/١٨٨٧ ٠
٥ ـ الاتقان في علوم القرآن ١٣٦٨ هـ/١٩٤٨ ، ٢/ص ٨٨ ٠
٦ ـ سورة يوسف/٨٥ ٠
٧ ـ تفسير الفخر الرازي ، المشتهر بالتفسير الكبير ٠ جـ ١٨ /ص ٢٠١ ٠
٨ ـ سورة النور/٥٣ ٠
٩ ـ تفسير ابن كثير ١١٧/٥ ٠
١٠ ـ البديع في ضوء أساليب القران ، د٠ عبدالفتاح لاشين ٠ دار المعارف بمصر ط اولى ١٩٧٩ ص ٣٦ وهذا التفسير ماخوذ في الأصل ، من كتاب » الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز « ليحيى بن حمزة العلوي ، المنشور في القاهرة ١٩١٤ الجزء الثالث/١٤٧ ٠ ولم يشر اليه د٠ لاشين في الحاشية ٠
١١ ـ شرح الكافية البديهية ، تحقيق د٠ نسيب نشاوي ٠ مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٢/٢٢٦ ٠
١٢ ـ انظر ديوان البحتري تحقيق الصيرفي مجلد ١٩٨٧/٢ ٠
١٣ ـ شرح الكافية/٢٢٦ ـ ٢٢٧ ٠ والعرجون : العذق اذا يبس واعوج والأخلة جمع الخلال ، مفردها خلة ، وهي جفن السيف والأطناب حبال طويلة ٠

١٤ ـ الحيوان ٣٩/٣ • والاكظام جمع : كظم ، مخرج النفس •
١٥ ـ الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق وشرح محمد أبو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي ـ عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٢٤ •
١٦ ـ سورة آل عمران/٥٩ •
١٧ ـ سورة البقرة/٦٠ •
١٨ ـ سورة الأعراف/١٦٠ •

١٩ ـ شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، صنعة ثعلب • الدا ر القومية، مصورة عن دار الكتب القاهرة ١٩٤٤/ص ٧ و ٨ • وفي ديوانه : « ونؤيا كحوض الجد » • الأثافي : حجا رة القدر • السفعة سواد مختلط بحمرة • المرجل : القدر • المعرس : موضع تعريس القوم • جذم الحوض : حرفه لم يتثلم (أي النؤي) ذهب أعلاه ولم يتكسر جانبه والنؤي حاجز يرفع حول البيت من تراب لئلا يدخل البيت الماء •

٢٠ ـ عيار الشعر ، تحقيق د• محمد زغلول سلام • منشاة المعارف بالاسكندرية • لانا • ص (١٤٢ ـ ١٤٣) •
٢١ ـ شرح الكافية/ص ١٨٣ •

٢٢ ـ نفسه/ • الحلق ، مفرده حلقة ، وهي الدرع• والسعدي ، نسبة الى سعد : موضع تصنع فيه الدروع •
٢٣ ـ نقد الشعر/ص ١٦٥ •
٢٤ ـ شرح الكافية/٢٣٣ •
٢٥ ـ نفسه/٢٣٣ •

٢٦ ـ م• ن• ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤ • وفي شرح البيت ايضا ان الفرزدق يمدح ابراهيم بن اسماعيل بن هشام المخزومي ، خال هشام بن عبدالملك • أبو أمه : يعني جد هشام لأمه هو أبو ابراهيم ، خاله •
٢٧ ـ م• ن• ص ١٧٢ •

٢٨ ـ شرح البرقوقي ٢٠٧/٣ • الكدري : صفة لطائر القطا الذي يعيش في السهول • والحجل طائر شبيه بالحمام أحمر المنقار والرجلين •
٢٩ ـ ديوان المتنبي بشرح الواحدي • ط برلين ١٨٦١ • ص ٥٥٢ •

٣٠ ـ م• ن• ص ٥٥٢ • وفيه تفصيل للحوار الذي جرى بين أبي الطيب وسيف الدولة الذي استشهد ببيتين لامرىء القيس يشبهان بيتي المتنبي ، وتفنيد هذا الأخير لجمالية بيتي امرىء القيس • الأمر الذي يوحي بقدرة نقدية فائقة لدى المتنبي •
٣١ ـ نفسه/ص ٥٥٣ •
٣٢ ـ سورة طه/١١٨ و ١١٩ •
٣٣ ـ شرح الكافية البديعية ، ص ١٧٤ •

٣٤ ـ كتاب : اعراب القرآن وبيانه ، دار اليمامة ، ودار ابن كثير : دمشق ـ بيروت ودار الارشاد للشؤون الجامعية • حمص ـ سورية • الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ/١٩٨٨ • مجلد ٢٥٨/٦ ـ ٢٦١ •

٣٥ ـ نقد الشعر ، ص ١٦٦ •
٣٦ ـ نفسه/٢٠٩ •

٣٧ ـ نفسه/ص ٢٠٩ • وفي ديوانه (صادر) : ألا وأبيك ، لوكاليوم أمري ••• العصمة : امتلاك الأمر • وحسك الصدور : غلها وحقدها •/ص ٣٢ •
٣٨ ـ شرح الكافية البديعية ، ص ٢٥٤ •
٣٩ ـ نفسه/ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦ • والزيال : الفراق • وهو من زال الشيء : لغة في : أزاله ••
٤٠ ـ نفسه/٢٥٦ •

٤١ ـ منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة .
دار الغرب الاسلامي ، بيروت ط . ثانية ١٩٨١ ص ٢٦٦ .
٤٢ ـ نفسه/٢٦٧ .

٤٣ ـ المصدر نفسه/ص ٢٦٨ . وهناك كلام آخر للقرطاجني ، يزيد في توضيح الصورة وتفصيل معالمها .
٤٤ ـ معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، الجزء الأول ، المجمع العلمي العراقي ١٩٨٣ ص ٣٠ (ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠).
٤٥ ـ انظر اللسان ١١/٥٢٤ (فصل) .

٤٦ ـ اعجاز القرآن ، للباقلاني . تحقيق احمد صقر . دار المعارف بمصر . ط . خامسة ١٩٨١/٢٧٠ .
٤٧ ـ نفسه/٢٧٠ ـ ٢٧١ .
٤٨ ـ نفسه . .

٤٩ ـ الآيات الأربع ، من سورة الشمس ، ومثلها جميع آيات هذه السورة البالغة خمس عشرة .
٥٠ ـ الآيات الأربع الأولى من سورة الغاشية .

٥١ ـ بديع القرآن ، لابن أبي الاصبع المصري . ص ٨٩ (عن معجم المصطلحات البلاغية) ١ ص ١٢ ـ ١٣ .

٥٢ ـ ديوان أبي تمام/ص ٥٩ . صافت ، امضت فصل الصيف . والعرار والجثجاث نباتان عطريا الرائحة ، والأول اكثر ضوءا ونفاذا في الشم ..
٥٣ ـ نقد الشعر/ص ٢١٠ .
٥٤ ـ ديوانه/٧٣٧ .
٥٥ ـ ديوانه بشرح البرقوقي ٤/٨٣ .

٥٦ ـ لسان العرب ٩/١٣٥ (زغف) . وفي نقد الشعر : « البجاد . بالباء ، ومعناه : الثوب . وقد رواه أحمد مطلوب (بالنون) ولا نرى في ذلك كبير اختلاف لأنهما يمكن اضافتهما الى البيت . ولكننا نرجح رواية قدامة ، لان لأن لفظ « مخطط » يناسب « البجاد » بالباء ، لانه مذكر ، ولا يناسب « النجاد » لأنها مؤنثة ، ولفظ القافية مذكر ..

٥٧ ـ نقد الشعر/ص ٢١٠ ـ ٢١١ .
٥٨ ـ انظر : جوهر الكنز/ص ١٤٢ فقد نقل صاحبه تعريف زكي الدين كما هو تقريبا .

٥٩ ـ ديوان الخنساء والمسمى : أنيس الجلساء ، دار التراث ـ بيروت ١٩٦٨ ص ٤٣ ـ ٤٤ وفي الديوان : « الفخر » بدلا من « الحضر » . والملاءة ، ثوب واسع .
٦٠ ـ عن معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، ج ١/٢٤ .
٦١ ـ سورة الانسان/الآيتان الأولى والثانية .
٦٢ ـ سورة يس/٦٨ و ٦٩ .
٦٣ ـ الصناعتين/ص ٤٥٢ . والآية القرآنية هي من سورة الأعراف/١٣٢ .
٦٤ ـ نفسه ..

٦٥ ـ أسد خفية ، نسبة الى ماسدة أو غيضة يتخذها الأسد عرينه . والبيتان في الشعر والشعراء ١/٣٩٤ ، لسويد بن خذاق (بالخاء المعجمة) بينما وردت في الصناعتين (بالحاء) المهملة ..
٦٦ ـ ديوان أبي تمام/ص ٣٧ ، والصناعتين/٤٥٤ .
٦٧ ـ الصناعتين/٤٥٤ .
٦٨ ـ نفسه/٤٥٥ . والظبا ، جمع . واحدته ظبة وهي حد السيف أو سنانه . والسواري ج سارية وهي السحابة الممطرة أو عمود الشراع ..
٦٩ ـ نفسه/٤٥٥ .

كتاب من التراث

سمات الأدب النسائي في «بلاغات النساء» لأحمد بن طيفور

عبداللطيف أرناؤوط

كان للمرأة في تراثنا العربي والاسلامي مشاركة بارزة في الانتاج الأدبي عبر العصور • مما يخالف النظرة السائدة التي ترى أنها لم تتحرر الا في عصرنا ، ذلك أن مشاركة المرأة الرجل في الحياة الأدبية ثمرة وعي حضاري لا يتوافر الا في شروط معينة •

فالأدب النسائي المتحدر الينا من الجاهلية يدل على دور المرأة السياسي والحياة الاجتماعية وقيادتها مسيرة الفكر والثقافة ، وجرأتها على قول الحق ، وعدم استكانتها للظلم ، ووعيها البالغ في كل موقف من مواقف الحياة ، ولا يستقيم هذا الوعي الا في جو الحرية الذي كانت تعيش فيه المرأة العربية في الاسلام وقبل الاسلام •

وللأدب النسائي طوابعه المميزة وسماته المخصوصة ، وان كانت هذه الطوابع لم تنل حظاً كبيراً من عناية الكتاب اللهم الا بعض الاهتمام •

وفي كتاب « بلاغات النساء » لأحمد بن طيفور ، مادة غزيرة للباحث الأدبي ، فهو يتناول جملة من طرائف كلام النساء وملح ذوات الرأي منهن ونوادرهن وأشعارهن في الجاهلية وصدر الاسلام ، ومادته متنوعة تجمع بين الشعر والنثر ، وتمثل أسلوب كل أديبة ، وسمات أدب المرأة بصورة عامة •

ولد مؤلف الكتاب الامام أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور في خراسان

(*) كاتب وشاعر ومترجم وناقد •• يعمل امينا لتحرير مجلة (التراث العربي) •

سنة ٢٠٤ هـ وتوفي سنة ٢٨٠ هـ ، في عصر ازدهر فيه الأدب ، وشاع فيه التسري ، وكان للجواري دور في الغناء الذي يقوم على مختارات من الشعر من مختلف العصور ، وقد ساعد الغناء على نشر الأدب وحفظه ، وبرز من المغنيات أديبات صقل الأدب ألسنتهن ، غير أن مكانة المرأة الحرة ، انحدرت عموماً في العصر العباسي عما كانت عليه في الجاهلية وصدر الاسلام وعهد بني أمية ، فأحب المؤلف أن يعيد الى الأذهان تلك الصفحة الناصعة لبلاغة المرأة العربية في العصور السالفة في الشعر والنثر ، فألف كتابه « بلاغات النساء » ليطبع في نفوس الأجيال ملكة البيان ، وتكون مختاراته قدوة لنساء عصره ٠

قام بنشر كتاب « بلاغات النساء » وعلق عليه السيد أحمد الألفي وطبعه عام ١٩٠٨ م (١٣٢٦ هـ) في مطبعة مدرسة والدة عباس الأول بالقاهرة معتمداً على مخطوط دار الكتب المصرية المستنسخة ، وعلى أصل آخر استنسخ للشيخ العلامة الشنقيطي ، ولم تبرأ نشرة الأستاذ الألفي من شيء من الأخطاء والتصحيفات في طبعته هذه ٠

يقع الكتاب « بلاغات النساء » في (٢٠٣) صفحات من القطع الصغير ، غير الفهرس والتصويبات ، وقد ضبطه المحقق بالشكل وشرح مفرداته وزوده بحواش غنية ، واعترضته صعوبات في التحقيق ، لأن بعض النصوص الواردة فيه غير واردة في المصادر الأخرى، وقد اتبع المؤلف منهجاً أدبياً في عرض مادة الكتاب ، فبدأ بكلام بليغات النساء في الاسلام ، ومنهن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ٠ وزينب بنت علي ٠ وحفصة بنت عمر بن الخطاب ، وسودة بنت عمارة ، والزرقاء بنت عدي ، وبكارة الهلالية ، والجمانة بنت مهاجر ، وامرأة أبي الأسود ، وآمنة بنت الشريد. [من ص ١ ــ ٦٤] ٠ ثم ذكر جملة من كلام بليغات النساء زمن معاوية ومنهن : الدارمية الحجونية ، وجروة بنت مرة ، وأم البراء ٠

وأغلب الأقوال التي ذكرها خطب أو كلمات جامعة في المناسبات السياسية والاجتماعية [من ص ٦٤ ــ ١٢٠] وتحول المؤلف الى تصنيف كلام النساء في مناسبات معينة ، فأورد بلاغاتهن في المنازعات بين الأزواج وفي مدح الزوج أو ذمه ، وصفات الزوجية ، ووصايات النساء لبناتهن عند الزواج ،

ومشاوراتهن • وعقد فصلا عن بلاغات النساء ومقاماتهن وبعض أشعارهن [من ص ١٢٠ ـ ١٣٨] . وآخر عن أخبار مواجن النساء ونوادرهن وأجوبتهن [من ص ١٣٨ ـ ١٦٧] وآخر في أشعار النساء [من ص ١٦٧ ـ ١٧٢] أورد فيه مختارات من شعر الخنساء وليلى الأخيلية، ثم متفرقات من الشعر النسائي في مختلف أغراضه [من ص ١٧٢ ـ ٢٠٣] •

وسنعرض لبعض خصائص الأدب النسائي في الكتاب بعد أن نلخص مجمل ما أورده المؤلف لبليغات النساء •

١ ـ الخطابة :

كلام عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : يتجلى في أدب السيدة عائشة قوة شخصيتها ، وعلو مكانتها ، فهي ذات عقل راجح ، لا تتكلم الا في الأمور الجليلة ، والمناسبات الخطيرة •

ذكر المؤلف نبذة من كلامها في الدفاع عن أبيها ، ومحاورتها طلحة والزبير حين حجت في السنة التي قُتل فيها الخليفة عثمان رضي الله عنه ، وبعض أقوالها في وقعة الجمل ، قال معاوية : « ما رأيت أحداً بعد رسول الله ﷺ أبلغ من عائشة.»

فمن أقوالها حين سمعت أن قوماً نالوا من أبيها :

[••• ذاك[1] والله حصن منيف ، وظل مديد ، أنجحَ اذ أكديتم وسَبق اذ ونيتم سبْق الجواد اذا استولى على الأمد فتى قريش ناشئاً ، وكهفها كهلاً ، يريش مُملِقها ، ويفك عانيها ويرأب صدعها، ويلم شعثها ، حتى حلته قلوبها ، واستشرى في دينه ، فما برحت شكيمته في ذات الله عز وجل حتى اتخذ بفنائه مسجداً يحيي فيه ما أمات المبطلون ، وكان رحمة الله عليه غزير الدمعة ، وقيذ الجوانح ، شجيَّ النشيج •••] •

والسيدة عائشة تختار في كلامها الجمل القصيرة ، وتكثر من الترادف والتوازن وترفد بيانها بالصور الحسية، وفي كلامها سجع وايقاع جميل ، وهي تحسن اختيار عبارتها وتمدّ قريحتها المتدفقة وعقلها الراجح عاطفة رقيقة تميز كلامها عن كلام الرجال ، وهي في ارتجالها الأقوال القصيرة البليغة تصدر عن ذكاء وروعة بيان •

---

١ ـ ذاك •• المراد والدها •

رأت رجلا متماوتاً ، فسألت : ما هذا ٠٠؟؟

فقالوا : زاهد" ٠

قالت : كان عمر بن الخطاب رحمه الله زاهداً ، وكان اذا قال أسْمَعَ ، واذا مشى أسرع ، واذا ضَرَبَهم في ذات الله أوجع ٠٠، ففهمها للزهد ينسجم وتعاليم الدين وتعبيرها عنه جاء في قمة البلاغة ، ولها في البلاغة أقوال جامعة مانعة كقولها في التقوى : « لله در التقوى ، ما تركت لذي غيظ شفاء » ٠

وقولها : « لا تطلبوا ما عند الله من غير الله بما يسخط الله » ولم يكن كلامها يخلو من غريب اذا قيس بلغة عصرنا ، كقولها حين دخلت على أبيها في مرضه : « يا أبت ، أعهد الى حامتك وانفذ رأيك في سامتك ، وانقل دار جهازك الى دار مقامك ، انك محضور ـ أي حضرته المنية ـ متصل بقلبي لوعتُك ، وأرى تخاذل أطرافك ، وانتقاع لونك ، والى الله تعزيتي عنك، ولديه ثواب حزني عليك، أرقأ فلا أرقى ـ أي أسكن فلا أسكن ـ وأبلّ فلا أنقى ـ أي أرتشف الماء فلا أروى ٠٠٠ وفي حزنها على مرض أبيها تتجلى بدقة عاطفتها بالرغم من قوة شخصيتها وشجاعتها الأدبية ٠

فاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله (ص) :

وأما بلاغة فاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله (ﷺ) فتتجلى في تدفق عاطفتها وحرارة تعبيرها ، فكلماتها مختارة ، شديدة الوقع في القلوب ، وعباراتها مسجوعة قصيرة ، تعمد الى التصوير المحسوس ، وتسكب الفكرة في ثوب من البيان الملموس ولغتها مقدودة من عالم البادية الخشن القاسي ، الا أنها تجيد التأثير في القلوب ، دخلت النساء عليها في مرضها الأخير ، فسألنها : كيف أصبحت من علّتك يا بنت رسول الله ٠ فقالت من كلام طويل : « أصبحت والله عائفة لدنياكم ، قالية لرجالكم ، لفظتهم بعد أن عجمتهم ، وشنأتهم بعد أن سبرتهم ، فقبحاً لفلول الحدّ، وجَوْرِ القنا ، وخطل الرأي ، وبئسما قدّمت لهم أنفسهم أن سَخَطَ الله عليهم ، وفي العذاب هم خالدون ، لا جَرَم لقد قلّدتهم رِبْقَتَها ، وشلّت عليهم عارها ، فَجَدْعاً وعقراً وبُعداً للقوم الظالمين ، ويحهم أنّى زحزحوها عن رواسي الرسالة وقواعد النبوة ، ومهبط الروح الأمين ، الطّبن بأمور الدنيا والدين ، ألا ذلك هو الخسران المبين ٠٠ » ٠

ان عاطفتها القوية تطغى على تعبيرها ، وهي تحسن نقل مشاعرها الى القارىء من خلال الكلمات والصور فترقى به الى أفق من الخيال ، وتستولي على حسّه ومشاعره فلا يسعه الا المشاركة الوجدانية ٠

زينب بنت علي ، وأم كلثوم رضي‌الله عنهما :

هاتان السيدتان الكريمتان نشأتا فيحجر البلاغة ، وكلاهما يشبه الى حد بعيد كلام السيدة فاطمة رضي الله عنهامن حيث جزالته،وقوة أسره وشدة وقعه، من ذلك خطبة زينب أمام يزيد بن معاوية بعد مصرع أخيها الحسين :

«أظننت يا يزيد أنه حين أخذ علينا بأطراف الأرض وأكناف السماء ، فاصبحنا نُساق كما يُساق الأسارى أن بنا هواناً على الله ، وبك عليه كرامة ، وأن هذا العظيم خطرك فشمخت بأنفك ، ونظرت في عطفيك،جذلان فرحاً حين رأيت الدنيا مستوسقة لك، والأمور متسقة عليك ، وقد أمهلت ونفست٠٠٠٠ أمن العدل تخذيرك نساؤك وإماؤك وسوقك بنات رسول الله ﷺ قد هتكت ستورهن، وأصحلت أصواتهن ، مكتئبات تحذى بهن الأباعر ، ويحدو بهن الأباعد من بلد الى بلد ، لا يراقبن ولا يؤدين ، يتشوّفهن القريب والبعيد ، ليس معهن وليّ من رجالهن٠٠ » ٠

وفي هذا الخطاب ما فيه من القسوةوالعنف والجرأة في مخاطبة الخليفة مما لا يجسر على قوله الرجال ، وفيه من التقريع واللوم وقوة الحجة وروعة البلاغة ما يشعر بأن كلامها قطعة من كلام أبيها فصاحة وبلاغة ٠

ولا تقل خطبة أم كلثوم في أهل الكوفة عن خطبة زينب بلاغة فقد وقفت بين أهل الكوفة ، ونسوتها يبكين الحسين ،فكأنما كانت تنطق بلسان أبيها ــ على حد تعبير جعفر بن محمد الصادق ــ ، راوي الخطبة،فأومأت الى الناس أن اسكتوا، فلما سكنت الأنفاس قالت :

« أبدأ بحمد الله والصلاة والسلام على نبيه ٠ أما بعد : يا أهل الكوفة ، يا أهل الخرّ (الغدر) والخذل ، لا فلا رقات العبرة ، ولاهدأت الرنة ، إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة إنكاثاً ، تتخذون ايمانكم دخلا (الغدر) بينكم الا وهل فيكم الا الصلف والشنف (البغض) وملق الاماء وغمز الأعداء ، وهل أنتم الا كمرعى على دمنة ، وكفضة على ملحودة (مدفونة) ألا ساء ما قدمت أنفسكم ان سخط الله عليكم وفي العذاب ، أنتم خالدون ٠ أتبكون ٠٠؟؟ أي والله فابكوا ،وإنكم والله أجرياء بالبكاء ، فابكوا كثيراً ، واضحكوا قليلا ، فلقد فزتم بعارها وشنارها٠٠ » ٠

والسيدة زينب تنوع في العبارة بين الخبر والانشاء ، وتتلاعب في قلوب سامعيها ، واسلوبها يشبه الى حد بعيد أسلوب والدها علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه في خطبه ، وكأن البلاغة إرث تحدر اليها مع الدم ·

سودة بنت عمارة :

كانت سودة بنت عمارة مع علي كرّم الله وجهه يوم صفين ، فلما ولي معاوية الخلافة أرسل في طلبها وذكرها بمواقفها ·· فأجابته : نشدتك الله يا أمير المؤمنين واعادة ما مضى، وتذكار ما قد نسي ، قال : هيهات ·· لله ما مثل مقام أخيك ينسى ، وما لقيت من أحد ما لقيت من قومك وأخيك ، قالت : صدق فوك ·· لم يكن أخي ذميم المقام ولا خفي المكان ·· مات الرأس وبُتر الذنب ، وبالله أسأل أمير المؤمنين اعفائي فما استعفيت منه · قال : قد فعلت ·· فما حاجتك ؟ قالت : انك أصبحت للناس سيداً ، ولأمرهم متقلداً ·· والله سائلك من أمرنا ، وما افترض عليك من حقنا ·· وما يزال يقدم علينا مَن ينوء بعزك ، ويبطش بلسانك فيحصدنا حصد السنبل، ويدوسنا دوس البقر، ويسومنا الخسيسة ويسلبنا الجليلة ، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة .. » الى آخر حديثها الطويل الذي أقنعت فيه الخليفة بعزل (بسر بن أرطأة) واليه بعد أن شكت أعماله وظلمه قومها فكتب بعزله ،وحملت كتاب العزل بيدها الى / بسر بن أرطأة/ ولم يكن من السهل عليها اقناع معاوية · وكانت وقومها من معارضيه لولا ما أوتيت من قوة الحجة وبراعة الاقناع ·

الزرقاء بنت عدي وبكارة الهلالية :

والزرقاء بنت عدي يشبه موقفها موقف سودة ، كانت مع علي كرّم الله وجهه هي وقومها يوم صفين ، وأنشأت كلاماً بليغاً تحرّض الناس فيه على قتال معاوية ·· جاء منه :

[ألا ان خضاب النساء الحناء ، وخضاب الرجاء الدماء ، والصبر خير في الأمور عواقب ، إيها الى الحرب ناكصين فهذا يوم له ما بعده ··] فاستدعاها معاوية بعد خلافته وجادلها في موقفها · فلم تكن أقل جرأة من سودة ، قال لها معاوية من حوار طويل : يا زرقاء ·· لقد شركت علياً في كل دم سفكه ·

فقالت : أحسن الله بشارتك وأدام سلامتك ، مثلك من بشّر بخير وسرّ جليسه ..

قال : وقد سرّك ذلك .

قالت : نعم ، والله .. لقد سرني قولك ، فأنّى بتصديق الفعل ؟

قال معاوية : والله لوفاؤكم بعد موته أحب لي من حبكم له في حياته ، اذكري حاجتك .

قالت : يا أمير المؤمنين .. اني آليت على نفسي ألا أسأل أميراً أعَنْتُ عليه شيئاً أبداً .. ومثلك أعطى من غير مسألة وجاد من غير طلب .

قال : صدقت .. فأقطعها ضيعة أغلّتها .

ولم تكن بكارة الهلالية أقل جرأة أمام معاوية من الزرقاء ، والمرء يعجب من مواقف تلك النسوة، وان كان يداخله الشك في أن قسماً من هذه الأخبار ، انما وضع لأغراض سياسية ، لقد دافعت بكارة الهلالية عن موقفها في صفين أمام معاوية ، فانبرى لها سعيد بن العاص ، وذكرها بشعرها في صفين ..

فقالت لمعاوية : نبحتني كلابك يا أمير المؤمنين ، واعتورتني ، فقصر محجني (العصية) . وكثر عبجي وغشي بصري، وأنا والله قائلة ما قالوا لا أدفع ذلك بتكذيب ، فامض لشأنك فلا خير في العيش بعد أمير المومنين (تريد علياً) .

* * *

٢ ـ كلام الأعرابيات :

ان بلاغة المرأة العربية تتجاوز سيدات المجتمع البارزات الى الأعرابيات في الصحراء ، وقد رضعن البلاغة مع حليب الأمهات ، هذه أعرابية من (هوازن) تقف أمام عبد الرحمن بن أبي بكر في سنة جدب فتخاطبه قائلة :

[أصلحك الله ، أقبلت من أرض شاسعة ترفعني رافعة ، وتخفضني خافضة بملحات من البلاد ، وملمّات من الدهور، بَرَيْن عظمي وأذهبن لحمي ، وتركنني والهاً ، وأنزلنني الى الحضيض ، وقد ضاق الى البلد العريض ، لا عشيرة تحميني ولا حميم يكنفني .. فسألت في احياء العرب المرجوّ سيبه ، المأمون غيبه، المكفّي سائله ، الكريمة شمائله ، فأُرشدت اليك وأنا امرأة من (هوازن) .

مات الوافد وغاب الرافد ، ومثلك مَنْ سدّ الخلة ، وفك الغلة ، فاصنع احدى ثلاث : اما أن تقيم من أودي ، أو تحسن عطائي ، أو تردني الى بلدي • قال : بل أجمعهن لك وحباً ••] •

وبلاغة الأعرابيات أقرب الى الطبع والتدفق العفوي ، وسجعهنّ بعيد عن التكلف ، يصدر عن السليقة والطبع ،ولا عجب فهن ينهلن اللغة من نبعها الصافي ، وليس في كلامهن ما يبتعد عن حياة المرأة البدوية العادية ، فلا سياسة أن ثقافة تجهد الفكر أو تقيد اللسان ،إنهن يعكسن اللغة الشعبية وجوانب الحياة الخصيبة •

* * *

٣ ـ أجوبة النساء ومنطقهن :

وفي أجوبة بعض النساء يبرز الى جانب بلاغة القول حدة الذكاء وقوة الحجة وسرعة البديهة ، ويدخل في هذا الباب الذي عقد له المؤلف فصلا خاصاً في مواقف النساء من أزواجهن من مدح وذم ،وأورد ملحاً من نوادرهن ومزاجهن والمرأة في هذه المواقف تبدو قوية المنطق، بارعة النكتة ، ومن تلك المواقف أجوبة امرأة أبي الأسود الدؤلي ، فقد طلقها ،فشكته الى معاوية فمثلا أمامه ، فسأل معاوية أبا الأسود عن سبب طلاقها ••

فقال : ••• ما طلقتها عن ريبة ،ولا لأي هفوة حَضَرَتْ ، ولكني كرهت شمائلها ، فقطعت عني خبائلها •

قال معاوية : وأي الشمائل كرهت يا أبا الأسود ••؟

قال : يا أمير المؤمنين ، انك مهيّجها عليّ بجواب عتيد ولسان شديد •

فقال له معاوية : لا بدّ لك من محاورتها ، فاردد عليها قولها عند مراجعتها•

فقال أبو الأسود : يا أمير المؤمنين ،انها كثيرة الصخب ، دائمة الذرب (أي بذاءة اللسان) مهينة للأهل •• مؤذية للبعل ، مسيئة الى الجار ، مظهرة للعار، ان رأت خيراً كتمته ، وان رأت شراً أذاعته ••

فقالت : والله لولا مكان أمير المؤمنين، وحضور مَنْ حضره من المسلمين

لترددت عليك بوادر كلامك بنوافذ أقرع كلّ سهامك ، وان كان لا يجمل بالمرأة الحرّة أن تشتم بعلا ، ولا أن تظهر لأحد جهلا ·

فقال معاوية : عزمت عليك لما أجبته ·

قالت : يا أمير المؤمنين ، ما علمته الا سؤولاً جهولا ، مُلحّاً بخيلا · ان قال فشرّ قائل ، وان سكت فذو دغائل، ليث حين يأمن وثعلب حين يخاف ، شحيح حين يُضاف ، ان ذكر الجود انقمع لما يعرف من قصر رشائه ولؤم آبائه ، ضيفه جائع وجاره ضائع ، لا يحفظ جاراً ولا يحمي ذماراً ولا يدرك ثاراً · أكرم الناس عليه مَنْ أهانه ، وأهونهم عليه مَنْ أكرمه ··

فقال معاوية : سبحان الله لما تأتي به هذه المرأة من السجع :

فقال أبو الأسود : انها مطلقة ، ومَنْ أكثر كلاماً من مطلقة ··؟؟

ثم فازت من معاوية بالحكم لها على أبي الأسود ، بفضل بلاغتها وغلبت أبا الأسود وهو عالم وأديب ·

على أن للمرأة العربية مواقف موضوعية من الزوج ، فهي لا تنكر مقتل زوجها ان كان جديراً بالفضل ، ولا تمدح رجلها الا بما فيه من ذلك ما رواه مؤلف الكتاب عن امرأة عروة بن الورد بعد أن طلّقها ·· فقالت فيه في نادي القوم : أما انك والله الضحوك مقبلاً ، السكوت مدبراً ، خفيف على ظهر الفرس ، ثقيل على متن العدو ، رفيع العماد كثير الرماد ترضي الأهل والأجانب ·

فتزوجها من بعده رجل ، فقال لها : أثني عليّ كما أثنيت على عروة · فقالت: لا تحوجني الى ذلك · فاني ان قلت قلت حقاً ·· فأبى ، فقالت : ان شملتك الالتفاف ، وان شربك الاشتفاف، وانك لتنام ليلة تخاف ، وتشبع ليلة تضاف ·

* * *

٤ ـ وصايا النساء :

ويدخل في هذا الباب ماتقدمه النساء البليغات من وصايا لبناتهن عند الزواج، وهي وصايا موجزة العبارات ، بعيدة الدلالات ، من ذلك ما أوصت به السلمية ابنتها عند زواجها ، اذ قالت لها : « لا تجلسي بالفناء ولا تكثري من المراء ، واعلمي أن أطيب الطيب الماء · » ·

وما أوصت به النمرية اذ قالت :« لا تطاوعي زوجك فتمليه ولا تعاصيه فتشكيه ، واصدقيه الصفاء ، واجعلي آخر طيبك الماء ٠٠ » وما أوصت به الأسدية اذ قالت لابنتها : « ادني سترك وأكرمي زوجك ، واجتنبي الاباء ، واستنظفي بالماء ٠ »

وهي وصايا ترسم أخلاق فتيات كل قبيلة وعاداتهن وصفاتهن في معاملة الأزواج ٠

★ ★ ★

٥ ـ نوادر النساء :

يورد المؤلف جملة من نوادر النساء وملحهن ، وفيها صراحة ومجون ، تتجلّى من خلالها المرأة على حقيقتها دون تحفظ ، ومن المرجح أن الرواة زادوا في هذه الأخبار بهدف التسلية، وأغلب المتندرات الماجنات نساء طاعنات في السن أو معروفات بمزاحهن في المجتمع ومنهن :حميدة بنت النعمان التي تزوجت [روح بن زنباع] وهجته فطلقها ،وتزوجها من بعده الفيض بن حكم، وكان جميلا يصيب الشراب ٠٠ فكان اذا سكر يلطمها ويقيء في حجرها فقالت فيه :

ألا يا فيض كنت أراك فيضاً ۞ فلا فيضاً وجدت ولا فراتا

ومنهن حمزة امرأة عمران بن حطان ، وكانت جميلة وكان دميماً فقالت له يوماً : أنا لعلي خير ان شاء الله أعطيت مثلي فشكرت وابتليت بك فصبرت ٠

فقال عمران : مثلي ومثلك ٠٠ ما قال الأحوص :

ان الحسام وان رثّت مضاربه ۞ اذا ضربتَ به مكروهه فصلا

ومنهن تلك الأعرابية التي مر بها إبان بن تغلب وزوجها يضربها وكان دميماً ، وكانت حسنة الوجه ٠٠

فقال : أتضرب مثل هذا الوجه الحسن ٠٠ ؟

فقالت : أصلحك الله ٠ ان له عذراً فدعه ٠

قال : فمـا هو .. ؟

قالت : قدّمت الى الله سيئتين . فعاقبني عليهما به .. وقدّم اليـه حسنة فجزاه بي ..!!

ومن أولئك أخت رقية بن مصقله التي ذكرها الجاحظ ، فقد مات أخوهـا وترك لها أمانة عند رجل ، فجاء ليسلمها الأمانة وطلب احضار شاهدين يشهدان أنها أخت رقية ، فأرسلت الى الامـام والمؤذن ليشهدا ، واستندت الى الحائط . فقالت : الحمد لله الذي أبرز وجهي ، وأنطق عيّي ، وشهر بالفاقـة اسمي ،

فقال الرجل : شهـدت أنك أختـه حقـاً .. ودفع الدنانير لها دون شاهد .

ومع أن الباحثين النفسيين يذهبون الى أن المرأة أقل من الرجل براعـة في النادرة ، فان ما ورد في الكتاب من نوادر النساء يكشف عن ذكاء المرأة العربيـة ، وبراعتها في النوادر ، وحبها المزاح ، فهي لا تفترق عن الرجل ولا تقل عنه جدارة في مواقف الجد والمزاح .

* * *

٦ ـ لباقة النساء ودهاؤهن :

وفي الفصل الذي عقده المؤلف عن أخبار ذوات الـرأي والظرف ، منهـن ما تتجلى لباقة المرأة العربية في الخطاب ومراعاتها مقتضى الحال في كلامها ، فمن تلك اللباقة وحسن التهذيب ما روي عن نائلة بنت القرافصـة حـين زفّت الى عثمان بن عفان حملت وحملت اليه من الشام ، فلما دخلت عليه .. قال لها : ألا تكرهين ما رأيتِ من شيبي ..؟؟

قالت : اني من نسـوة أحبُّ أزواجهن اليهن الكهل السيد ..

قال : اني جاوزت التكهيل .. فأنا شيخ .

قالت : أبليتَ عمرك في الاسـلام ونصرة الرسول (ﷺ) في خـير ما أفنيت فيه الأعمار .

قال : أتقومين لي أم أقوم اليك .

قالت : ما قطعت اليك عرض السماوة أكثر من عرض البيت ٠٠ بل أقوم اليك ٠٠

ومن ذلك ما روي عن عاتكة بنت عبد الملك بن الحارث المخزومية زوج عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب ،التي اعترضت المنصور في الحج،وكان قد أمر بمصادرة ضياع زوجها ٠٠ فصاحت:

ـ يا أمير المؤمنين : احمل عني كلك (أي عيالك ويتاماك) أو أعنّي على حمله لك ، معي أبناء عبد الله بن الحسن صبية صغار لا مال لهم ، وأنا امرأة لست بذات مال ، فأناشدك بالله أن تفارق احتمال ما يلزمك احتماله منهم عوناً لهم في اطراحهم فاني خائفة عليهم ان فعلت أن يضيعوا ٠

قال : مَنْ هذه يا ربيع؟؟ ـ فنسبها الربيع اليه ٠٠

قال المنصور : هكذا ينبغي أن تكون نساؤهم ٠٠!!

وأمر بردّ ضياع أبيهم ووهبها ألف دينار ٠

ومن أجوبة النساء المفحمة التي تدل على دهاء ٠٠ ما قالته بثينة جميل لعبد الملك بن مروان حين سألها لما دخلت عليه :

ـ ما رجا فيك جميل حين قال فيك ما قال ٠

قالت : الذي رجت منك الأمة حين ولّتك أمورها ٠٠!!

فما ردّ عليها عبد المللك بكلمة ٠

على أن مؤلف الكتاب ذكر من دهاء النساء وحيلهن أخباراً صريحة لا يجمل ذكرها ٠

★ ★ ★

٧ ـ أشعار النســاء :

ومما اختاره المؤلف من أشعار النساء مقطوعات للخنساء ولا سيما في رثـاء أخويها صخر ومعاوية ، وهي قصائد تحفل بالعاطفة الرقيقة والانفعال

الوجداني ، وتصور أحلى تصوير سمو عاطفة المرأة القوية ، وتميزها في الوفاء للأحبة ، والألم للفجيعة ٠٠ من ذلك قول الخنساء في معاوية :

أبعد ابن عمرو من آل الشر يد حلت(١) به الأرض أثقالها
سأحمل نفسي على آلة فإما عليها وإما لها
وخيل تكدس بالدارعين نازلت بالسيف أبطالها
يهين النفوس وهون النفوس يوم الكريهة أبقى لها
فذلك مرة أودت به فقد كان يكثر تقتالها
فزال الكواكب من فقده وجللت الشمس إجلالها
وداهية جرها جارم ثقيل الحواضن أحبالها
كفاها ابن عمرو ولم يستعن ولو كان غيرك ادنى لها

ومما ذكره من أشعار النساء ، مختارات لليلى الأخيلية في هجاء النابغة الجعدي ورثائها لتوبة بن الحمير٠وكانت تحبه ، وكان صاحب غارات فقتله جيران لبني عوف بن عقيل وقد أغار عليهم ،فمن رثائها الرقيق فيه :

أقسمت أبكي بعد توبة هالكا وأحفل من دارت عليه الدوائر
لعمرك ما بالقتل عار على الفتى اذا لم تصبه في الحياة المعاور
وما الحي مما أحدث الدهر معتبا ولا الميت ان لم يصبر الحي ناشر

وأورد المؤلف مختارات أخرى لمارة بنت الديان وجنوب أخت عمرو الكلب وهند بنت حذيفة ٠ وكلها في الرثاء ٠

والرثاء أبرز أبواب الشعر طروقاً من الشاعرات ، يليه الهجاء ، ومما ذكره من هذا الباب هجاء الفارعة بنت معاوية القشيرية لبني كلاب ، وسلمى بنت المحلق ٠

ومن الفخر ماقالته «جمل الضبابية»من بني كلاب ، وهو رثاء مؤثر لا يخلو من تصوير للمعارك :

---

١ ـ حلت : زينت ٠

أميمة لو رأيت غداة جئنا … بحزم كراء ضاحية نسوق
مشينا شطرهم ومشوا الينا … كمشي مُعاجلٍ فيه زهوق
كأن النَّبلَ وسطهم جرادٌ … تكفتُه ضحى ريح خريق
فالقينا القسيَّ وكان قتلاً … وضرب الهام كلاماً يذوق
وأما المشرفيُّ فكان جتفاً … وأما المازنيُّ فلا يليق
بكل قرارة غادرن خرقاً … من الفتيان مختلق رقيق
وقد كلح المشافر فاستقلَّت … فويق لثاتهم فالقوم فوق
فأشبعنا الطباع وأشبعونا … فاضحت كلها بشم تفوق
وأبكينا نساءهم وأبكوا نسـ … ـاناً ما يسوغ لهن روق
يعادين الكلاب بكل فجر … وقد صحلت من النوح العلوق

والأبيات من أروع ما نظم في وصف الحرب تصويراً ودقة وصف ، فهي تعكس اهتمامات المرأة بجوانب من الحرب وهم يصلون نارها والنساء يصفنها وصف المراقب المشاهد .

وفي غزل النساء أورد المؤلف مقطوعات تراوح بين العفة والمجون ، وبعضها لا يقل روعة عن شعر الرجال الغزلين ، من ذلك قول خولة بنت ثابت في الوليد بن المغيرة :

يا خليلي نابني سهدي … لم أنم ليلي ولم أكد
غير أني لا أتوب ولا … أشتكي ما بي الى أحد
كيف تلجاني على رجلٍ … فتىً عن تذكاره كبدي
مثل ضوء الشمس صورته … ليس بالزبيلة النكد

ومن ذلك قول خيرة بنت أبي ضيغم، وكانت من أظرف النساء وفي قولها عفّة وترفع :

وبتنا خلاف الحيّ لا نحن منهم … ولا نحن بالاعداء مختلطان
نذود بذكر الله عنا من الصبا … وان كان قلبانا يدان
ونصدر عن ري العفاف وربما … نقعنا غليل النفس بالرشفان

وقول خلية الحضرية في هوى لها :

لهجرك لما هجرتك أصبحت ... بنا شُمَّتاً تلك العيون الكواشح
فلا يفرح الواشون بالهجر ربما ... أطال المحب الهجر والحبيب ناصح
وتعدو النوى بين المحبين والهوى ... مع القلب مطويّ عليه الجوانح

ومن أروع ما عبرت به المرأة عن إصرارها على حبها قول بنت حباب في يحيى بن حمزة ، وقد ضُربت بالسوط بسببه :

أأضرب في يحيى وبيني وبينه ... تنايف لو تسري بها الريح كلّت
ألا ليت يحيى يوم غبهل زارنا ... وإن نهلت منا السياط وعلّت

وقولها :

أقول لعمر والسياط تلفني ... لهن على متنيّ شرٌ دليل
فأشهد يا غيران أني أحبه ... بسوطك ، لا أقلع وأنت ذليل

وقولها :

خليليّ إن أصعدتما أو هبطتما ... بلاداً هوى نفسي بها فاذكرانيا
ولا تدعا ان لامني ثمّ لائم ... على سخط الواشين أن تعذرانيا
فقد شفّ قلبي بعد طول تجلد ... أحاديث من يحيى تشيب النواصيا
سأرعى ليحيى الود ما هبّت الصبا ... وان قطعوا عمداً بذاك لسانيا

والثبات على الحب والاخلاص له ، مثلما يبرز في الأبيات السابقة ، سمة من سمات المرأة ، فهي أصدق مشاعر من الرجل وأكثر ثباتاً في مواقفها الوجدانية ، والمرأة أكثر اندفاعاً في حبها من الرجل، وأقدر على تصعيد أحاسيسها عفة وسمواً .

ومن يقرأ قول أم الضحاك المحاربية يلمس هذه الحقيقة ، وكانت تهوى رجلا يدعى عطية ، فاستخونته ، تقول في الحب :

أرى الحب لا يغني ولا يغنه الألى ... أحبوا وقد كانوا على سالف الدهر
وكلّهم قد خاله في فؤاده ... بأجمعه ، يحكون ذلك في الشعر
وما الحب الا سمعٌ أذن ونظرة ... وحنة قلب عن حديث وعن ذكر
ولو كان شيء غيره فتي الهوى ... وبلاه من يهوى ولو كان من صخر

* * *

هذه لمحة عابرة عن كتاب « بلاغات النساء » فهو حديقة في أدب المرأة ، ووثيقة غنية في تحليل نفسيتها ، ومنبع ثر لدراسة المرأة العربية من النواحي الاجتماعية والسيكولوجية والأدبية ، ومادة غزيرة تساعد الناقد في تبين خصائص الأدب النسائي ، وهو أدب يتميز عن أدب الرجال بالانفعال الوجداني ، ودقة الملاحظة ، والعناية بالصياغة والصدق في التعبير ، لا نجد فيه مدحاً أو تزلفاً ، بل تصوير صادق للذات النسائية في مواجهة الحياة ، والمرأة أكثر من الرجل تأثراً بالأحداث ، تهزها المصيبة ، وتستثير مشاعرها العميقة ، وهي ان أحبت أحبت بصدق ، وان كرهت لا تكتم كرهها ، ففي أدبها صراحة حرص المجتمع أن يكبتها، فوجدت في الكلمة متنفساً لها • وان كان الرواة زادوا ما طاب لهم أن يزيدوا من أخبار أدبية عن النساء لأغراض سياسية واجتماعية شتى ، منها اتخاذ مادة الأدب النسائي سبيلا للمسامرة والترويح ، وهو أدب يُغري الناس بمتابعته ، ومنها ابراز بعض النساء الشهيرات لأغراض فرضها الصراع السياسي والاجتماعي ، حتى لتجد في الأدب النسائي ما نجده في أدب الرجال من شعوبية وخارجية وزبيرية ، وتشيّع ، فلم يسلم أدب المرأة من مجاراة تيارات كل عصر ، كما لم يسلم من الاضافة والنحل •

دمشق : عبد اللطيف أرناؤوط

* * *

التراث النقدي وقراءة الذات المعاصرة

د. ماجدة حمود*

يعترف د. جابر عصفور في مقدمة كتابه « قراءة التراث النقدي » بانه لا توجد قراءة بريئة ، أو محايدة للتراث ، ذلك لأننا عندما نقرأ التراث ، ننطلق من مواقف فكرية محددة ، لا سبيل الى تجاهلها ، ونفتش في التراث عن عناصر للقيمة الموجبة أو السالبة بالمعنى الذي يتحدد اطاره المرجعي بالمواقف الفكرية التي ننطلق منها »(١) .

فهو منشغل بمدى حضور الموضوعية في قراءة التراث ، وما مدى حضور التراث المقروء نفسه ؟ هل هو حضور (هناك) في زمان انقطع ؟ أم أنه حضور (هنا) في زمان ممتد ؟

لهذا نلمس لديه طموحاً لتقديم فهم واقعي غير مجرد للتراث « يتنزه عن ادعاء نزعة علمية وضعية ، تفصل التراث المقروء عن وعينا ، أو نزعة مثالية ذاتية تفصل التراث المقروء عن عصره ، هذا المعنى الذي نتعلمه من « التاريخ » لن يصل أنماط قراءة التراث النقدي بالأنساق الأدبية أو النقدية للقارىء الحديث فحسب بل يجعل من عملية القراءة نفسها جانباً لا ينفصل عن أنساق معرفية كبرى ، تشمل النقد الأدبي وتحتويه ، وتجعل من عملية قراءة التراث النقدي جانباً لا ينفصل عن عملية قراءة التراث بوجه عام ، سواء كنا نتحدث عن التراث بمعانيه الخاصة أو العامة(٢) لأننا حين نقرأ التراث كله ، بشكل جيد ، لا بد أن ينعكس ذلك بشكل ايجابي على قراءة الواقع ، اذ نتمكن من الاستفادة من معطياته الايجابية في بناء أدبنا وفكرنا بناء متماسكاً ، ولكن يلاحظ د. عصفور أن كتب تاريخ النقد الأدبي عند العرب ما تزال قاصرة ، اذ لا نعرف فيها سوى النقد النظري والتطبيقي بمعناهما الضيق (الذي يخرج

(*) باحثة من سوريا .. واستاذة في كلية الآداب بجامعة دمشق .

شروح الشعر وكتب المعاني ومقدمات الشعراء لدواوينهم ، ونصوصهم الشعرية التي تنعكس على نفسها لتصف الشعر ، وردودهم على خصومهم ، ودفاعهم عن اتجاهاتهم المخالفة ومختاراتهم وشروحهم لشعر غيرهم ...)

ينبه ، هنا ، على أمر هام وهو قصر النظر والسطحية في التعامل مع التراث النقدي لذلك نجده يدعو الى امتلاك نظرة شمولية ودقيقة حين نقرأه لنصل الى قراءة منهجية ، تسهم في تطوير وعينا بواقعنا وتراثنا في آن .

ولكن الى أي مدى حقق هذا الطموح ،وهل استطاع أن يقرأ التراث ، كما هو قراءة محايدة ، أم إنطلق في قراءته من أفكاره الخاصة التي أسقطها على النص التراثي ، فحمله فوق طاقته ؟

صحيح أنه من الصعب قراءة التراث قراءة محايدة ، خاصة حين نكون أمة مهزومة في الحاضر ، قوية في الماضي ، عندئذ قد نرى الكمال متجسداً فيه ، أو نقارنه بما توصل اليه الغربيون اليوم من معارف نتبناها ونلهث وراءها فنجد تراثنا لم يحقق منها شيئاً ، أو نجد فيه بعض القضايا التي سبقنا فيها الغربيين فنقف أمامها مصفقين ومهللين ، وننسى أن الوقوف يعني الجمود والموت .

ان عقد النقص التي تتربع في أعماقنا هي التي تدفعنا الى هذه الحماسة ، علنا نجد تعويضاً عن بؤس الحاضر وتخلفه ، لذلك « فقد ان الأوان لأن ننتقل من المباهاة المؤسية بعبد القاهر في حضرة دي سوسير الى الفهم الموضوعي العميق والتاريخي لنصوصه ونصوص دي سوسير ، في علاقاتها المتباينة ، وأنساقها المتغايرة ، بوعي نقدي لا يتضاد عاطفياً ، بل يتماسك اجرائياً ، ويتأسس منهجياً في سعيه لانتاج معرفة جديدة (لا أيديولوجيا جديدة) بالتراث ، فقد تكون أدوات انتاج معرفتنا الجديدة بالتراث ليست من صنعنا تماماً ، ولكننا يمكن أن نمتلكها تماماً ، بالفحص الدقيق لسلامتها والمراجعة المستمرة لأصولها ، والانتباه اليقظ الى ما تتضمنه استعاراتها المعرفية من سلب وايجاب ، والتذكر الفطن لمغزى ما يقوله شيخنا عبد القاهر الجرجاني واعلم أنك لا تشفي الغلة ، ولا تنتهي الى ثلج اليقين حتى تتجاوز حد العلم بالشيء مجملا الى العلم به مفصّلا ، حتى لا يقنعك الا النظر في زواياه ، والتغلغل في مكامنه(٣) .

وبذلك حدد لنا د. جابر عصفور شروط قراءة التراث ، فدعا الى تعمق النص بحد ذاته فلا نسقط معارفنا الذاتية عليه ،ولا نحاكمه وفق ظروفنا التاريخية ومعطياتنا الفكرية وهو يسعى الى تأسيس منهج جديد ينتج معرفة جديدة بالتراث ، فلا يكون صدى لأفكار جاهزة عنه ، وانما نتيجة استنباط فكر جديد خاص به ، وهو يدعو من أجل ذلك الى الاستعانة بأدوات معرفية جديدة ، قد تكون غربية مستوردة ، ولكن بشرط التزام الحذر في التعامل معها فلا تطبق بشكل حرفي ، اذ نجد في هذه الأدوات الغث والسمين، كما يدعو الى التعمق بجزئياته وعدم الاكتفاء بالقاء نظرة سريعة عليه ليصل الى قراءة متعمقة وشاملة وموضوعية .

ترى الى أي مدى نجح الناقد في التزام هذه الشروط حين قرأ التراث النقدي ؟.

من أجل الاجابة عن هذا السؤال ، سنتابع قراءة د. عصفور لتراث الناقد الخليفة ابن المعتز ، باعتباره نموذجاً للقراءة المعاصرة التي تتناول ناقداً قديماً ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالصراع الذي وقع بين القدماء والمحدثين في القرن الثالث الهجري •

في البداية وجدنا د• جابر عصفور يضع الناقد ابن المعتز في قالب الفكر الحنبلي الذي يعتمد على مقولتين هما (الجبر والتقليد لهذا يعده من أنصار تيار القدماء « النقلي » ، الذي مثله جماعة من اللغويين من ناحية وأصحاب الحديث من « أهل السنة والجماعة » من ناحية ، ودليله على ذلك أن ابن المعتز يوم أعلن نفسه خليفة ، اتخذ لقباً هو «السني البربهاري» ليدل على التزامه بأصول الدين ، كما ان صلته بأهل النقل أتت بوصفه واحداً من أبناء الخلافة العباسية التي انحازت ــ منذ عهد جده المتوكل ــ الى الحنابلة ونصرتهم على أهل العقل من المعتزلة ، ولا ينسى أثر أساتذته الذين كانوا « جميعاً من أبناء ذلك التيار ومنهم اللغوي مثل ثعلب والمبرد وأحمد بن سعيد الدمشقي صاحب الفراء الكوفي وأبي سعيد صعودا » •

لو تأملنا الأسباب التي جعلت ابن المعتز ناقداً تقليدياً (عند د• عصفور) لوجدناها غير مقنعة ، باعتقادنا ، فاللقب الذي اتخذه (السني البربهاري) هو نوع من الطعم يكسب به تعاطف العامة أثناء صراعه على السلطة •

أما أنه ينتمي الى أسرة نصرت الحنابلة على أهل العقل من المعتزلة ، فلا يعني ذلك ضيق أفقه ، أو عدم استخدامه العقل ، فلاشك أنه اطلع على المجادلات الفكرية التي سادت ذلك العصر ، اذ من المعروف أن المعتزلة لم ينته نشاطهم حين تبنت السلطة العباسية رأي أصحاب النقل والسنة ، وما زال الصراع والجدال بينهم وبين غيرهم من الفرق يشكل ايقاع الحياة الفكرية آنذاك •

أما أن أساتذته ينتمون الى التيار التقليدي ، فهذا لا يعني أن التلميذ صورة أستاذه دائماً ، فالنابغة يتجاوز أستاذه ، هذا اذا سلمنا بأن جميع أساتذته قد اتخذوا موقفاً واحداً من الشعر المحدث ، ولكن وجدنا منهم من يؤلف فيه كتاباً كأستاذه المبرد ألف كتاب « الروضة » كما نجد في كتابه الكامل كثيراً من الشعر المحدث •

اذن يسعى الناقد عصفور الى جعل ابن المعتز ينتمي لعالم فكري واجتماعي ثابت لحمته الجبر وسداه التقليد ، مما سينعكس على موقفه من الأدب اذ سيكون من أنصار الاتباع والتقليد ومن أعداء الحداثة ، فادى فهمه المغلوط للمكونات الفكرية لدى ابن المعتز ، الى خطأ في تصنيف نقده وفكره ،فيفسر أقواله في الشعر والشعراء وفق هذا التصنيف التقليدي لا يحيد عنه، فمثلا مصطلح « الطبع » يرادف النقل والتقليد ، فالشاعر المطبوع لن يكون شاعراً مبدعاً ، « فلا تخرج أفكار ابن المعتز عن هذا الأفق النقلي لمعنى

الطبع في آخر المطاف ، ولكنه لا يتقبل الثنائية الحادة بين « القديم ـ المطبوع » و « الحديث المتكلف » على علاقاتها في كتابه الطبقات ، بل يكيفها تكييفاً ضمنياً يتناسب والغرض السياسي لكتابه من ناحية ، وما حققته طريقة المحدثين في عصره من انجازات لم يملك هو نفسه الا التأثر بها في شعره ونقده من ناحية ثانية ...(٤) » .

ان د. جابر لم ينف تأثر ابن المعتز بالشعر المحدث ، لكنه يبقيه في اطار التقليد والنقل ، ويرى فيه نصيراً للشعر القديم أو ماكتب على طريقة الأقدمين ولو صح هذا القول لوجدنا ابن المعتز من أنصار البحتري ،ولكننا لاحظنا حماسته لأبي تمام في آخر كتبه « طبقات الشعراء » بل نجده يستشهد فيه برأي البحتري في تفضيل أبي تمام على نفسه قائلا «جيده خير من جيدي ، ورديّي خير من رديّه»فيرى ابن المعتز أنه قد أنصف في هذا القول لأن البحتري « لا يكاد يغلط لفظه ، وانما ألفاظه كالعسل حلاوة ، فأما أن يشق غبار الطائي في الحذق بالمعاني والمحاسن فهيهات ، بل يغرق في بحره ، على أن للبحتري المعاني الغزيرة ، لكن أكثرها مأخوذ من أبي تمام ومسروق من شعره »(٥) .

وهذا تفضيل صريح لأبي تمام على البحتري ، فهل يمكن أن يصدر هذا القول عن ناقد تقليدي رافض للشعر المحدث ، الذي يمثله أبو تمام أصدق تمثيل ، ولم نجده غير معجب ، كما يرى د. عصفور ، بالجانب الذي « يمثل انقطاعاً عن الأصول النموذجية القديمة ، وتأسيساً لأصول مناقضة حديثة » .

لقد توقف د. عصفور عند رسالة ابن المعتز عن محاسن أبي تمام ومساوئه (التي لم يصلنا منها سوى المساوىء) حيث يبدو فيها الناقد مهاجماً لطريقة أبي تمام المحدثة ولكن رأيه هذا قد تغير وظهر نقيضه في كتابه « طبقات الشعراء » الذي كتبه قبل وفاته بسنتين والذي يمثل تطور ذوقه ونضج حكمه النقدي ، ولكن الناقد عصفور لا يتتبع تطور ابن المعتز ، فلا نجده يلمح الى الفترة الزمنية التي ظهرت فيها الرسالة والكتاب ، ربما لأن هذه الاشارة قد تفسد عليه نظرته السكونية التي كونها عن ابن المعتز ، فتتخلخل أحكامه وتفسد موازينه ، بل يجعل الرسالة التي ضاع قسم المحاسن منها وبقيت المساوىء فقط ، مصدره الأساسي .

كل ذلك ليجعل من ابن المعتز ناقداً تقليدياً يرفض الشعر المحدث ، مع أنه يورد رأي ابن المعتز في قصائد أبي تمام « التي ترتاح لها القلوب ، وتجذل بها النفوس ، وتصغي اليها الأسماع ، وتشحذ بها الأذهان »، فقدم لنا بذلك تصويراً دقيقاً لمزايا شعر أبي تمام ، ومع ذلك لا نجد د. عصفور يعلق على هذا القول ، خاصة عبارة « تشحذ بها الأذهان » !

ترى هل يستطيع ناقد تقليدي أن يقول مثل هذا القول ؟! ثم أليست هذه العبارات أحكاماً نقدية أصيلة تصلح لكل زمان ومكان!! ألا تكشف لنا ماهية الشعر المبدع والعظيم بغض النظر عن طريقته ؟

ولو لم يكن ابن المعتز من أنصار الطريقة المحدثة في الشعر ، لما وجدناه يؤلف كتاباً سماه «البديع» يتحدث فيه عن الأساليب التي شاعت في الشعر المحدث · صحيح أنه يتحدث في مقدمته عن أسبقية القرآن الكريم والأحاديث الشريفة والشعر القديم في استخدام وسائل البديع « وقدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله ﷺ وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم ، وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع ، ليعلم أن بشاراً ومسلماً وأبا نواس ، ومن تقبلهم وسلك سبيلهم ، لم يسبقوا الى هذا الفن ، ولكنه كثر في أشعارهم فعرف في أزمانهم حتى سمي بهذا الاسم ، فأعرب عنه ودل عليه »(٦) ·

ان هذا القول لا يعني انتصاراً للقديم على الحديث ، لأن الناقد يتابع انجاز المحدثين في هذا المجال ، كما نجده يعرّف هذه الوسائل رغبة منه في توضيحها ، وارساء دعائمها ، وبذلك يصلها بجذورها القديمة ، ويبين مدى تطورها عنه فيسعى بعمله هذا الى تأصيل هذه الأساليب الحديثة ، ويبرر تداولها ·

اذن لا تعني هذه المقدمة أن ابن المعتز كأستاذه يجعل كل « حسن » في انجاز المحدثين منسوباً الى القديم دائماً ، ويوقع كل قبح على تباعدهم عنه ، في فجاجة تأويلية ، تفرغ انجاز المحدثين من أي معنى للجدة ، وتفرغ ارادة الجدة من أي موجب ··· »(٧) ·

هل الجديد قفزات في الهواء ، لا يطأ الأرض ، ولا يمد جذوره فيها ؟

ان الجدة لا تأتي من فراغ ، وكل مافعله ابن المعتز هو أنه ذكر في المقدمة أن هذا البديع قد وجد من قبل ، فكيف نتهمه باتباع الأقدمين والهجوم على المحدثين ؟!·

وفي مجال التطبيق يرى د· عصفور أن أحكام ابن المعتز في مجالسه كانت تدور في الدائرة نفسها « تلقى الأبيات على الأسماع ، ويتبارى الحضور في اخراج المخزون من المحفوظ ، لتتم دورة قص الأثر أو شعيرة عبادة الأسلاف ، فيعود كل بيت جديد الى أصل قديم »(٨) ·

ولكننا لم نجده متعبداً في محراب السلف ، بل وجدناه معجباً بانجازاتهم دون أن يغفل نواحي الضعف لديهم ، فمثلا ، رغم اعجابه باستعارات ذي الرمة ، يتناوله بالنقد فيقول عن بيته :

أقامت به حتى ذوى العود في الثرى وساق الثريا في مُلاءته الفجر

« هذا لعمري نهاية الخبرة ، وذو الرمة أبدع الناس استعارة ، وأبرعهم عبارة الا أن الصواب حتى ذوى العود والثرى ، لأن العود لا يذوي ما دام في الثرى ··· »(٩) · فهو لا يكتفي بوضع يده على مواطن الضعف في الشعر ، وانما نجده يعطي البديل الأكثر جمالا والأكثر دقة ، لاعتماده المنطق والخيال الفني معاً ·

ويستنكر الناقد عصفور اعجاب ابن المعتز بأولئك الشعراء الذين جمعوا محاسن المولدين ومعاني المتقدمين ، كانـه يرى أن ما يستحق الاعجاب هو الشعر المحدث الذي لا علاقة له بالقديم ·

نلمس ، هنا ، نضج الناقد ابن المعتز وعمق رؤيته للشعر المحدث ، حين يراه غير منقطع عن ابداع السلف ، وانما هو استمرار له ، في حين يجد الناقد عصفور في انجاز المحدثين انقطاعاً عن انجاز الأقدمين ، لهـذا يعلق على قول ابن المعتز « وكان جماعة مثل أبي نواس والخليع وأبي هفـان وطبقتهم ،انما اقتدروا على وصف الخمر بما رأوا من شعر أبي الهندي ، وبما استنبطوا من معاني شعره » قائلا :

« ليس المهم أن نناقش سلامة التفسير في هذا القول : فالأهـم أن نلتفت الى الغرض النقدي الذي يحتويه ، والعملية الذهنية التي يتولد عنها ، فصفة الاقتدار التي يوصف بها النواسي وأقرانه المتأخرون ، ليست نتيجـة علاقة متميزة ، وصلت بينهم وبين حاضرهـم الخاص ، أو تاريخهم المتعين، بل نتيجة ماقام به هؤلاء من « استنباط » لنموذج أسبـق في الزمان والوجود عند المتقدمين من أمثال أبي الهندي الذي يستنبـط بدوره مـن نمـوذج أسبق يرجع الى العصر الجاهلي ··· »(١١)·

كان الناقد عصفور في غمـرة حماسته للشعر المحدث ، ينكر على هذا الشعر تأثره بانجازات شعرية سبقته ، مع أنه يعد تطوراً طبيعياً لها ، باعتقادنا ، كما أننا نحس كأنه لا يلتفت الى الثقافة الشعرية وضرورتها ،فالمقصود هنا ، الثقافة الواسعة التي امتـاز بها أبو نواس وغيره من المجدديـن ، وليس تقليد نماذج سابقة عليهم ، فمن المعروف عن أبي نواس ، أنه لم يبدأ بقول الشعـر حتى كان يحفظ مئة وخمسون ديواناً من أشعـار النساء فما بالك بأشعار الرجال !! ثم من لا يستطيع أن ينكر أثر الثقافة الشعرية على الابداع الشعري ، لأن الابداع لن يكون متاحاً الا لمن هضم ابداع الآخرين أولا ثم تجاوزه·

وقد يقول ابن المعتز رأياً في أحد الشعراء ، فيأتي د. عصفور ويعممه على كـل نقده فمثلا ، يتوقف عند مقولة ابن المعتز في أحدهم والألفاظ في عذوبـة « الماء الـزلال » و « المعاني أرق من السحر الحلال » فيقول الناقد عصفور معممـاً : « فدنو المأخـذ نقيض العمق والغموض ، وقرين القرب والتسطح في الادراك والتلقي على السواء ، فهو المعنى الذي لا يستعين عليه بالفكرة ، والذي ليس في حاجة الى التأويل ولا يعتمد على الاشارات البعيدة ، أو الحكايات الغلقة ، أو الايمـاء المشكل ، وهو المعنى الذي ينبسط في ظاهـر الأشياء ، فلا يحتاج الى مكابدة الجهد الخلاق من الشاعر المبـدع في الغـوص على المعنـى واكتشاف اللا مسمى···»(١٢) ولكن اعجاب ابن المعتز بأبي تمام ألا ينقض هذا القول ؟!

المشكلة أن لدى الناقد عصفور رؤيـة نقدية مسبقة ، يسقطها على النص النقـدي فيصبح النص غريباً عن ذاته ، وينطق بأفكار ناقد اليوم لا ناقد الأمس ، فينطـق بأفكـار عصرنا لا عصره ، ونرى انجاز ابن المعتـز في ضوء فكر غريب عنه ، وبذلك تتحول قراءة ابن المعتز الى قراءة د· جابر عصفور ، الذي نجده يهمل كل ما يناقض أفكاره المسبقة فهو

حين يتحدث عن هدف ابن المعتز من تأليف كتابه طبقات الشعراء (جمع ما وضعته الشعراء من الأشعار في مدح الخلفاء والوزراء والأمراء من بني العباس) فيعلق د. عصفور قائلا : « وتلك عبارة لا معنى لها الا توظيف الكتاب بوصفه عنصراً من العناصر التي تستخدمها الأجهزة الأيديولوجية للدولة العباسية ، ويحرص ابن المعتز في هذا التوظيف على الاحتفاظ بالشعراء البارزين الذين مدحوا آل بيته من بني العباس ... ويتجاهل الشعر الذي يمكن أن يعكر ذكره هذه الغاية (كالشعر الذي ينطق بسوء أحوال الرعية ... »(١٣) .

لو قرأنا كتاب الطبقات قراءة دقيقة لوجدنا ابن المعتز يورد أبياتاً لأبي الفضة البصري في ذم الدولة العباسية منها :

لا أحسب الجور ينقضي وعلى الأمة وال من آل عباس(١٤)

وفي هذا ذم صريح لحكام الدولة ، الذين أشاعوا الظلم والقهر في أرجاء دولتهم ، وهو لا يكتفي بذكر شعر المعارضة ، بل نجده يذكر نثرهم في ذم العباسيين ، فيورد قولا لشاعر اسمه « درست المعلم » يرى رأي الخوارج ، ويرى الدار دار كفر ، ويقول عن العباسيين « عطلوا الأحكام وغيروها ، وقد قال الله تعالى : ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون »(١٥) .

فهو يصم العباسيين بأشنع تهمة يمكن أن توجه اليهم ، وهي الكفر وعدم الالتزام بأحكام الشريعة ، ومن يوثّق هذه التهمة ويثبتها ؟ انه أحد أبناء الخلافة العباسية وبذلك قدم لنا ابن المعتز مثالا رائعاً لسعة الصدر وانفتاح الأفق ، واحترام الرأي المخالف ، حتى لو كان هذا الرأي يسيء الى سمعة دولته التي ينتمي اليها ويحلم أن يكون أحد حكامها !.

وقد رأى د. عصفور أن الترجمة لبعض مداحي العلويين أمثال دعبل الخزاعي لاتعني ذكر القصائد التي تمس « الملك العباسي »، بل الاحتفاء بقصائد مدح بني العباس ، بأرجوزة دعبل في المأمون على سبيل المثال . ولكننا لو عدنا الى « طبقات الشعراء » لوجدنا ابن المعتز يورد أبياتاً لدعبل يمدح فيها آل البيت معلناً ولاءه لهم » .

فاحشُ القصيد بهم وفرّغ فيهم قلباً حشوت هواه باللذات

واقطع حبالة من يريد سواهم في حبهم تَحلل بدار نجاة

ألا تمس هذه الأبيات الملك العباسي ، ألا تدعو صراحة الى موالاة آل البيت ؟.

اذن هناك عدم قراءة دقيقة لتراث ابن المعتز ، أو ربما قرأ الناقد هذه الأبيات الا أنه استبعدها لكونها لا تنسجم وفكرته عن ابن المعتز ، وهذا ابتعاد عن روح الأمانة العلمية.

كما أنه يحمّل النص النقدي القديم ما لا يحتمل ، اذ يسقط عليه وجهة نظره المعاصرة فمثلا نجده يعلق على أحكام ابن المعتز العامة (حسناً ، مفلّقاً ، مليحاً ،

مقتدراً ٠٠٠) بقوله « ان التسوية«الانطباعية» بين الشعراء والمحدثين في هذا المستوى ، هي الوجه الأدبي للغرض السياسي من الكتاب، فكما أسقط هذا الغرض نفسه على دلالة « المحدثين » في هذا المستوى ، وقصرها على المدلول الزمني لمعنى المعاصرة للدولة العباسية وحدها ، فان هذا الغرض أسقط نفسه على دلالة مصطلح « الطبقات »وقرنها بالتسوية في القيمة الأدبية بين كل من اتصل بالدولة العباسية مادحاً أو طالباً العطاء»(١٦)٠

الحقيقة أن هذه الأحكام النقدية العامة، هي جزء من طبيعة الأحكام النقدية المتداولة آنذاك ، فلم يكن النقد ، في معظم الأحيان ،قد توصل الى الأحكام المعللة والدقيقة ، كما هو عليه الآن ، لذلك سيكون اسقاط أحكامنا النقدية على أحكامهم نوعاً من الغبن والابتعاد عن الموضوعية ٠

اذن ليس من حقنا اسقاط مفاهيم عصرنا وأحكامنا على عصر ابن المعتز ، كما أنه ليس من حقنا أن نسقط أفكارنا السياسية والطبقية على النص النقدي ، فنجعل ابن المعتز يصدر أحكامه العامة هذه لأن هؤلاء الشعراء من مداحي أسرته ، فقد لا نجد كل الشعراء المذكورين قد مدحوها فعلا ٠

وقد أوقع الناقدعصفورنفسهفيما اتهم به ابن المعتز ، فقرأ تراث ابن المعتز قراءة واحدة سكونية ، لم يلحظ تطوره وفق مراحل زمنية تمن مرحلة التكوين والبداية التي كان فيها أقرب الى النقاد والتقليديين ، ثم مرحلة النضج التي أصبح فيها ناقداً محدثاً من أنصار الجديد ، بل نجده ينتقد التقليديين الذين يرفضون المحدث لحداثته ، ويفضلون القديم لقدمه ، دون النظر الى أسباب موضوعية للرفض أو القبول ، فيرى أن هذا « الفعل من العلماء مفرط القبح لأنه يجب الا يدفع احسان محسن ، عدواً كان أو صديقاً ، وأن تؤخذ الفائدة من الرفيع والوضيع ، فانه يروى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ صلوات الله عليه ـ أنه قال : الحكمة ضالة المؤمن ، فخذ ضالتك ولو من أهل الشرك ٠٠ »(١٧) فكيف يمكن لمن يقول هذاالقول أن نصنفه ناقداً تقليدياً ونعده تابعاً لأساتذته ، كما فعل د٠ جابر عصفور !فجعل ممارسته النقدية أسيرة الاتباعية اذ هناك «محفوظ في الذاكرة من أشعار القدماء ،مختار ومؤول ، ينتج اختياره وتأويله نموذجاً أصلياً لماضي مصنوع ، متخيل ، محله ذهن الناقد وليس الواقع التجريبي ٠٠٠ »(١٨)

ألا تنطبق الجملة الأخيرة على الناقد عصفور ؟ فهو ينطلق ، باعتقادنا ، في قراءته النقدية لابن المعتز من أفكار مسبقة كونها في ذهنه ، ولم ينظر الى الواقع التجريبي الذي يناقض أفكاره ، اذ نجده يقيّم فقط ابن المعتز اعتماداً على وضعه الاجتماعي ، فيما أنه ينتمي الى الطبقة الحاكمة والارستقراطية ٠ فلا بد أن يكون من دعاة الجمود الأدبي ، لأنه يخاف أي تغيير في الأدب أو تجديد فيه ، اذ سيكون ذلك منعكساً على سلطة العباسيين مهدداً بزوالها ٠

لهذا رسم لابن المعتز صورة في ذهنه سعى الى ايجاد ما يؤكدها في كتبه ، فيختار الشواهد الشعرية والنقدية والاخبارية التي تتطابق ووجهة نظره هذه ، حتى انه يجعل ابن المعتز

متبنيّاً آراء غيره من النقاد ، فجـاء بقول من» الوساطة بين المتنبي وخصومه » لعلي بن عبد العزيز الجرجاني ، وقول آخر من « الموشح »للمرزباني ، يتحدث الـرأي الأول عن عـدم اهتمام العرب الفصحاء بفنون البديع ، أمـا الثاني فيرى أن أحسن الشعر « ما قارب فيـه القائل اذا شبّه ، وأحسنه منه ما أصاب الحقيقة»ليبين بذلك كيف رفض النقاد العرب ــ ومـن بينهم ابن المعتز ــ الاستعـارة ، ودعـوا الى التشبيه • مع أننا لم نجد لابن المعتـز رأياً في الاستعارة ، وانما أسقط عليـه د• عصفـور آراء غيره من النقاد •

كل ذلك يؤدي الى انسجام ابن المعتز مع الصورة التي رسمها له الناقـد دون أن يعبـأ بضياع صورته الحقيقية •

ويجدر بنا أن ننوه الى أننا لا ندعو الى عزلة النصـوص النقدية بعضها عن بعض فنحن نتفق مع د• عصفور الى أن التـراث النقدي لا يمكن فهمه أو النظر الى منجزاته الا بشكل شامل ومتكامل ، ولكننا لا نتفق معه حين يلغي خصوصية الناقد ، ويجعله صـدى للآخرين ، فيقدم بذلك صورة مشوهة عنـه • فقـد أدى عدم التعامل بموضوعية مع انتاج ابن المعتـز الى التجني عليه والاسـاءة الى فهـم موقفـه النقدي ، فضاع صوته الخاص في زحمة الأفكار المسبقة التي كونها الناقد عصفور عن التراث النقدي قبل التعامل معه ، وبذلك يقع الناقد بما يحذر منه في كتابه « قراءة التراث النقدي» فحين ننفي استقلالية النص « فان الايديولوجيا هي ما تنتهي اليه هذه النزعة ، وخصوصاً حين تتسرب فيها تسلطية الحاضر ، أو يحل فيهـا حضور الآخر ، فتطغى بعض الأنساق المهيمنة ، ضاغطة على وعي الذات القارئة ، التي تستجيب استجابة آلية غير شعورية في الأغلب ، في فعل اسقاطي ، يتحـول معـه المقـروء الى قنـاع للتوجيهات الاجتماعية السياسية الأدبية لهذه الذات ، وتتحول القراءة نفسهـا الى تخييـل غايته تبرير هذه التوجيهات ، وتهيئة الأفراد لتصديق هذا التبريـر ، والعمـل بمقتضاه ، والنتيجة وعي زائف يحول بين الانسان وادراك العلاقات الفعلية في تاريخه أو تاريـخ النص المقروء الذي يقرأ عنه أو فيه(١٩) •

هذا الكلام يصح كل الصحة على قراءة د• عصفور لتـراث ابن المعتز فكـانت قراءة اسقاطية ، ظهرت فيها تسلطية الحاضـر على الماضي ، وتحول النص التراثي المقـروء الى نص معاصر ، نجد فيه أفكار د• عصفـور لا أفكار ابن المعتز !•

والغريب أننا نجد في المقدمة أن هاجس الناقد عصفور كيف نقرأ التراث ؟ وتحول هذه القراءة الى عملية تسهـم في تطوير وعينـا بواقعنا وتراثنا في آن فقد قرأنا في هذا الكتاب حاضرنا لا ماضينا ، لأن الناقد استنجد بأفكاره المعاصرة لا بأفكار أجداده النقاد القدامى ، من أجل بناء وعينا وتطوير نقدنا ولهذا لم يستطع أن يرى في نقـد ابن المعتـز سـوى الجـوانب السلبية ، وتاه عن التقاط الجوانب الايجابية التي تجعله وجهاً مضيئاً في تراثنا النقدي •

د• ماجدة حمـود

□ الحواشي :

١ ـ د. جابر عصفور « قراءة التراث النقدي » مؤسسة عيبال للدراسات والنشر ـ قبرص ط ١ ـ ١٩٩١ ـ المقدمة ص ٥ .

٢ ـ المصدر السابق ص ٣٦ .

٣ ـ المصدر السابق ص ٩ .

٤ ـ المصدر السابق ص ١٦٩ .

٥ ـ عبد الله بن المعتز : « طبقات الشعراء » تحقيق عبد الستار احمد فراج ـ دار المعارف بمصر ـ بدون تاريخ ـ ص٢٨٨٦ .

٦ ـ عبد الله بن المعتز : « البديع » شرحه وعلق عليه محمد عبد المنعم خفاجي ـ شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر ـ ط١ ـ ١٩٤٥ ص ١٥ .

٧ ـ قراءة التراث النقدي ص ١٩٤ .

٨ ـ المصدر السابق ص ١٨٣ .

٩ ـ محمد عبد المنعم خفاجي : « رسائل ابن المعتز في النقد والأدب والاجتماع » شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ـ ط١ ـ ١٩٤٦ ـ ص ١٠ ـ ١١ .

١٠ ـ قراءة التراث النقدي ص ١٧٢ ـ ١٧٣ .

١١ ـ المصدر السابق ص ١٨٠ .

١٢ ـ المصدر السابق ص ١٧٤ .

١٣ ـ المصدر السابق ص ١٤٩ .

١٤ ـ طبقات الشعراء ص ٣٧٩ .

١٥ ـ المصدر السابق ص ٣٣٥ .

١٦ ـ قراءة التراث النقدي ص ١٦٣ .

١٧ ـ ابو بكر محمد بن يحيى الصولي « اخبار ابي تمام » حققه وعلق عليه خليل محمود عساكر ـ محمد عبده عزام ـ نظير الهندي ـ منشورات دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ط ٣ ـ ١٩٨٠ ـ ص ١٧٦ .

١٨ ـ قراءة التراث النقدي ص ١٧٨ .

١٩ ـ المصدر السابق ص ٧٣ .

★ ★ ★

علم المعجمة عند العرب

د. محمد احمد قاسم*

يرتكز وضع المعجم الى دعامتين رئيسيتين هما :

أ ـ علم المعجمات أو ما يسمى ب Lexicologie ويبحث في البنية الدلالية للفظ.

ب ـ علم صناعة المعجمات أو ما يسمى ب Lexicographie ويبحث في أنواع المعجمات ومكوناتها وطرق اعدادها .

والمعجمة فن أو حرفة ، أو هي باختصار علم صناعة المعجم ، بكل ما يتصل بهذه الصناعة من مهارات لغوية ، وأصول أخذ اللغة بأصواتها ودلالاتها من أفواه العرب الأقحاح ، أو مدونات موثوقة وأسانيد صحيحة تبعد عنها شبه الوضع والتزيّد .

ولا بد في البداية من تعريف المعجم قاموسياً واصطلاحياً .

أولاً : المعنى القاموسي للمعجم :

جاء في اللسان(١) :

« العَجْمُ : النقط بالسواد مثل التاءعليها نقطتان . يقال : أعجمت الحرف ولا يقال عجمت ... وقال ابن جني : أعجمت الكتاب : أزلت استعجامه ...

والعجْمُ : عضّ شديد بالأضراس دون الثنايا . وعَجَمَ الشيء يعجُمُه عجماً : عضه ليعلم صلابته من خوره ... والعَجْمُ : الرّوزُ » .

(*) باحث وأستاذ في كلية الآداب ـ الجامعة اللبنانية .

فالاعجام اذا ازالة اللبس والغموض ،وطريق الى الابانة لأن وضع النقاط على الحروف هو في نهاية المطاف وضع للأمور في نصابها الصحيح ، وقضاء على الخلط بين المعاني ، ونأي عن التصحيف والتحريف ٠

والمعجم اختبار لصلابة اللفظ ، ومعرفة مدى فصاحته أو بعده من الفصاحة فيعرف به خور اللفظ وفصاحته ٠ ولقد قال الحجاج يوماً متوعداً أهل الكوفة(٢) : « ان أمير المؤمنين نثر كنانته ثم عجم عيدانها ، فوجدني أمرّها عوداً ، وأشدها مكسراً ، فوجهني اليكم، ورماكم بي » ٠ فعَجْمُ العود امتحان لصلابته والبحث عن لفظ في المعجم امتحان لصلابة معناه أو هشاشته ٠ والمعجم يروز اللفظ ليُعرف مدى صلابته وفصاحته ٠

ثانيـاً : المعنى الاصطلاحي للمعجم :

جاء في المعجم الوسيط(٣) : « المعجم ديوان لمفردات اللغة ، مرتب على حروف المعجم، جمعه معجمات ومعاجم » ٠ ورأى د٠ حجازي أن هذا المصطلح يطلق(٤) « على الكتاب المرجعي الذي يضم كلمات اللغة ويثبت هجاءها ، ونطقها ، ودلالتها ، واستخدامها ، ومرادفاتها ، واشتقاقها، أو أحد هذه الجوانب على الأقل » ٠

ثالثاً : متى ظهر هذا المصطلح ؟

أهملت معاجمنا تاريخ الألفاظ ولم تشكل سيرة اللفظ هماً عند المعجميين ٠ لهذا ذهب المحدثون في تحديد ميلاد هذا اللفظ مذاهب شتى ٠ فقال د٠ العطار : « ولا نعلم بالدقة متى أطلق المعجم على هذا الاستعمال ،ولكن الذي نعلمه أن أول من استعمل الكلمة رجال الحديث ، وأول ما عرف كان في القرن الثالث ٠٠٠ وأول كتاب أطلق عليه اسم المعجم هو « معجم الصحابة لأبي يعلى محدّث الجزيرة (ت ٣٠٧ هـ) ٠ ولقد ترجم أبو يَعلى لشيوخه على حروف الهجاء ٠

ويرى د٠ السامرائي أن لفظ المعجم لم يشق طريقه الى النور(٦) الا في أواخر القرن الرابع الهجري ، أما قبل ذلك فهو كتاب ٠وأول معجم بهذا الاسم هو معجم مقاييس اللغة » ٠ ورأى د٠ حجازي أن اللفظ كان يطلق على كتب الطبقات المرتبة على حروف المعجم ، فصار يطلق على كتاب الكلمات المرتبة على حروف المعجم ٠

وما ذهب اليه د٠ السامرائي لا يخالف رأي العطار خصوصاً في انتقال الدلالة ٠

رابعاً : مصطلح القاموس :

أطلق على المعجم تسمية أخرى هي القاموس ٠ والقاموس لغة(٧) : « قعر البحر ، وقيل وسطه ومعظمه » ٠ فهل أطلق هذا اللفظ على المعجم لأنه الذي يجمع شتات الكلم حتى تتلاطم فيه المفردات كما تتلاطم الأمواج في البحر الهادر ؟

وجاء الفيروز أبادي (ت٨١٧ هـ) فسمى معجمه « القاموس المحيط » معللا التسمية بقوله(٨) : (وأسميته القاموس المحيط لأنه البحر الأعظم » • والناس قديماً وحديثاً يطلقون على العالم باللغة ، المتمكن من شواردها ، المذلل لمتاصها ، القابض على نواصيها صفة البحر • وقد صار لفظ القاموس مرادفاً للفظ المعجم ، بعدما كان علماً على القاموس المحيط ، وهو في زمننا أكثر شيوعاً (وسيرورة) من لفظ المعجم •

خامساً : العرب أسبق الأمم الى وضع المعجم :

أنكر بعض المتحاملين عرباً كانوا أم أعاجم على العرب فضيلة السبق في ميدان المعجم ، وذهبوا الى أن العرب مقلدون غير مبتكرين • وقد كتب د• أحمد مختار عمر مقالا في مجلة مجمع اللغة بالقاهرة تحت عنوان : « هل أثر الهنود في المعجم العربي ؟»(٩) أثبتت فيه آراء عدد من الباحثين في هذا الموضوع ، فانقسمت بين مرجح ومثبت •

أما المرجحون فعلى رأسهم مقال في دائرة المعارف الاسلامية بنصها الفرنسي بعنوان الخليل بن أحمد(١٠) جاء فيه :

Il n'est pas classé dans l'ordre alphabétique, mais **probablement sous l'influence de l'Inde ...**

فكاتب المقال يثبت أن الخليل واضع أول معجم عربي ، ويؤكد نسبة كتاب « العين » الى الخليل ، ويكتفي بالاشارة الى احتمال تأثره بالهنود لأنه مرتب ترتيباً صوتياً •وهذا الترتيب معروف عند الهنود •

وأعجمي آخر هو المستشرق الانكليزي جون هاي وود يشير الى احتمالين فيقول(١١): « ربما كان اليونان هم الذين أعطوا العرب فكرة المعجم • وكان الهنود هم الذين أعطوهم الأبجدية الصوتية : وبعض الأفكار المعجمية الأخرى » • وهكذا نرى أن الشك في أصالة المعجم العربي عائد الى اعتماد الأبجدية الصوتية التي اهتدى اليها الخليل وهو العالم الموسيقي الرياضي •

أما بعض العرب فكانوا متطرفين في اثبات التقليد : وذهبوا الى أن الخليل مقلد غير مبتكر • وعلى رأس هؤلاء نذكر د• شوقي ضيف الذي قال (١٢) : « فقد وضع الخليل خطة أول معجم في العربية وهو معجم العين ،ورتبه على مخارج الحروف بالضبط كما يرتب الهنود حروف لغتهم » •

والغريب أن المستشرق هاي وود يؤكد أن معاجم الهنود لم تظهر الا في القرن الثاني عشر ، وهو وقت كان العرب فيه قد انتجوا بعض معاجمهم العظيمة • وأفضل ما في هذا المقال(١٣) : « الحقيقة أن العرب في مجال المعجم يحتلون مكان المركز سواء في الزمان أو المكان بالنسبة الى العالم القديم والحديث وبالنسبة الى الشرق والغرب » •

وهذه خلاصة ترسي قواعد الحق ، وتعطي الفضل الى أصحابه، وتثبت أن العرب

أسبق الأمم الى وضع المعجم • وقد أكد هذه الأصالة د. العطار بقوله(١٤) : « واذا كان الخليل مسبوقاً من بعض الأمم في هذا السبيل، فان من الحق أن نذكر أنه لم يكن مقلداً أحداً، أو ناهجاً على طريق سابق ، بل كان مبتكراً ومخترعاً في الفكرة والمنهج والترتيب ...»

سادساً : مدارس المعجمات العربية :

وضع الخليل أول معجم عربي مؤسساً فيه المدرسة المعجمية الأولى • وكانت لمدرسته مبادىء وأصول خاصة وتلامذة حذوا حذوه • ومدارس المعجمات في نظر الباحثين أربع عند العرب •

١ ـ مدرسة الخليل (ت ١٧٥ هـ) :

كانت العناية قبلها منصرفة الى الرسائل والمجموعات التي وضعها الأصمعي (ت ٢١٦ هـ) وأبو زيد الأنصاري (ت ٢١٥ هـ) وغيرها • مهّدت هذه الرسائل الى المعجم ولم تكن معاجم لاختلافها عنها في الهدف والمنهج • وبقي معجم العين أول معجم حاول حصر ألفاظ اللغة حصراً شاملا في اطار نظام منهجي واضح استوعب فيه شوارد اللغة • وأهم مبادىء هذه المدرسة :

- **ترتيب المواد ترتيباً صوتياً بحسب مخارج الحروف بتأثير من علم الموسيقى •**
- **تقسيم المعجم الى كتب ، وتفريغ الكتب الى أبواب بحسب الأبنية ، وحشد الكلمات في الأبواب •**
- **تقليب الكلمة الى مختلف الصيغ وفق نظام الاشتقاق الكبير ، ورصد المستعمل والمهمل من هذه التقليبات •**

واستمر هذا النهج في معجم البارع للقالي (ت٣٥٦ هـ) وتهذيب اللغة للأزهري (ت٣٧٠ هـ) ، والمحيط للصاحب بن عباد (ت٣٨٥ هـ) ، والمحكم الأعظم لابن سيده (ت ٤٥٨ هـ) •

٢ ـ مدرسة أبي عبيد القاسم بن سلاّم (ت٢٢٤ هـ) :

حملت هذه المدرسة اسم أبي عبيد لأن كتابه (الغريب المصنف) أول كتاب وصل الينا مصنفاً على طريقة الموضوعات ويضم ثلاثين باباً • وقامت هذه المدرسة على بناء المعجم على المعاني والموضوعات ، ورتبت فيها الثروة اللغوية في مجموعات من الألفاظ تندرج تحت فكرة واحدة • من أهم أتباعها :

أ ـ كراع النمل (ت حوالي ٣١٠ هـ) في المُنَجَّد في ما اتفق لفظه واختلف معناه وقسمه الى أبواب هي :

١ ــ في ذكر أعضاء البدن من الرأس الى القدم ٠

٢ ــ في ذكر صنوف الحيوان من النـاس والسباع والبهائم والهوام ٠

٣ ــ في ذكر الطير ٠

٤ ــ في ذكر السلاح ٠

٥ ــ في ذكر السماء وما يليها ٠

٦ ــ في ذكر الأرض وما يليها وفيه ثمانيـةوعشرون فصلا على عدد حروف المعجم ٠

ب ــ الهمذاني عبد الرحمن بن عيسى (٣٢٠ هـ) ، في كتابه (الألفاظ الكتابية) ٠ وقد وزع موضوعاته على أبواب كثيرة ، تفاوتت طولا وقصراً ، هادفاً الى اثبات العبارة الفنية ، وانتخاب التعبير الجميـل لامدادالكتاب بزاد من الفصاحـة وحسن العبارة ٠ فخالف بذلك طريقة المعجم لأن المعجم يرمـي الى الجمـع والاستقصـاء لا الى الانتخـاب والانتقاء ٠

جـ ــ الثعالبي (ت ٤٢٩) في كتابـه (فقه اللغة وسر العربية) ٠ هو أشهر معجمات المعاني ، وزعه على ثلاثين باباً ، في كل بابعدد من الفصول ٠ بدأ الباب الأول بالكليات وفصله الأول في ما نطق به القرآن من ذلك ،وفصله الثاني في ذكر ضروب من الحيـوان ، وفصله الثالث في النبات والشجر وهكذا ٠٠٠فبلغت فصول الكتاب ستمائة فصل ٠ وقـد نقل بعض فصوله عن المتقدمين ٠

د ــ ابن سيده (ت ٤٥٨ هـ) في معجمه (المخصص) ٠ هو أكبر معجمـات المعاني ٠ من فضائله: « تقديم الأعم فالأعم على الأخص فالأخص ، والاتيان بالكليات قبل الجزئيات والابتداء بالجواهر والتفقيه بالأعراض على ما يستحقه من التقديم والتأخير ، وتقديمنـا (كم) على (كيف) وشـدة المحافظـة على التقييد والتحليل » ٠ قسمـه الى عـدد من الكتب منها : كتاب خلق الانسان ، ويتضمن باب الحمل والولادة ، والرضـاع والفطـام والغذاء ، وسائر ضروب التربية والغذاء ،وأسماء أول ولد الرجل وآخرهم وأسماء ولد الرجل في الشباب والكبر وهكذا ٠٠٠

والكتاب على نفاسته لا يخلو من عيوب، أهمها : اختلاط الموضوعـات ، واقحامـه مسائل لغوية ونحوية وصرفية و ما اليها ٠٠

وجهت الى هذه المدرسة انتقادات شتى،هب بعضهم الىأن سلبياتها تفوقايجابياتها ٠ ولكن الانصاف يقضي بالاعتراف لها بأنهـاتسد حاجة من حاجات المنشيء ، وتسهل عليه التعمق في موضوعه ، وتمده بسرعة بالألفاظ الصحيحة والمعاني الدقيقة ٠ فالباحث عـن صوت من أصوات الحيوان مثلا في معجم المعاني قد لا يعثر عليه الا بشق الأنفس أما في معجم الموضوعات فانه يعثر عليه بسرعـة فائقة ٠وقل مثل ذلك في درجات الحزن ومراتب البكاء والفرح والسعادة وما الى ذلك ٠

٣ ـ مدرسة الجوهري (ت ٤٠٠ هـ) (في معجمه الصحاح) :

رتبت المعجم ترتيباً هجائياً ، وقسمته الى فصول وأبواب معتمدة الحرف الأخير من الكلمة وسمته باباً ، وسمت الحرف الأول فصلا ، ونظرت الى الحرف الثاني في الثلاثي والى الحرف الثالث في الرباعي ليأتي الترتيب دقيقاً • وهذا الترتيب أسهل بكثير من ترتيب الخليل •

من أبرز أتباعها :

أ ـ ابن منظور (ت ٧١١ هـ) في « لسان العرب » :

واللسان أشهر معاجم العرب الى يومنا هذا وأكثرها تشعباً وأغزرها مادة • فلقد احتوى ثمانين ألف مادة• وعُد موسوعة لغوية أدبية شاملة •

اعتمد فيه الفصل والباب على طريقة الجوهري • لكن دار المعارف بمصر قد أعادت توزيعه في طبعة جديدة معتمدة الطريقة الألفبائية الحديثة وأصدرته في ستة مجلدات •

ولهذا المعجم أهمية كبرى في لغتنا ، فهو منذ صدوره والى زماننا هذا يُعد أهم معجم عند الدارسين العرب والأعاجم • وأبرز د• محمد سالم الجرح مكانته بقوله(١٨) : «وظهور مثل هذا المعجم الموسوعي الشامل ، الدقيق الترتيب ، الجامع لصنوف البحث اللغوي المتعلقة بكل لفظ قد جعل للغة العربية مكانة فريدة بين سائر اللغات في ميدان النشاط المعجمي • فقد ظلت اللغة العربية منفردة بمثل هذا المعجم الضخم بين لغات الانسان جميعاً في القديم والحديث حتى القرن التاسع عشر حين بدأ يظهر على رفوف المكتبات في أوروبا معاجم لبعض اللغات الأوروبية كالانكليزية والألمانية تضارع لسان العرب في الاحاطة والاتساع » •

ب ـ الفيروزابادي (ت ٨١٧ هـ) في القاموس المحيط :

رتبه على الفصل والباب واستخدم فيه الرموز لأول مرة • احتوى ستين ألف مادة وبقي حجمه أصغر من لسان العرب ، ونافسه في الشهرة والذيوع الى يومنا هذا •

جـ ـ الزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ) في تاج العروس :

اعتمد فيه مادة القاموس المحيط ، ووسعها ، وأثبت الشواهد التي أهملها القاموس المحيط • وصنفه على الباب والفصل كما في الصحاح • وصدّر كل باب بكلمة موجزة تحدث فيها عن الحرف وبيَّن مخرجه وصفاته وابدالاته. ووجه عناية خاصة الى المجاز ولكنه أورد فيه الكثير من الألفاظ العامية المصرية خاصة •

لم تخط هذه المدرسة بالتصنيف المعجمي خطوة نوعية ، فهي وان كانت أسهل من طريقة الخليل الا أنها لا تخلو من صعوبات ولم تسلم من تهكم بعض الدارسين ، فالأستاذ عبد الحق فاضل ذكرها بقوله(١٩) : « آثر القدماء من العرب ترتيب معاجمهم بحسب الحروف الأخيرة

من الكلمات ، وفي ذلك ما فيه للشعراء في تصيّد القوافي الشوارد ، وازعاج لسائر الخلق في ايجاد الكلمات التي يبغون البحث عنها في المعجم » ٠

٤ ـ مدرسة البرمكي (ت ٤١١ هـ) :

لم يؤلف البرمكي معجماً ، بل أعاد ترتيب الصحاح وفق أوائل الأصول فصار بذلك زعيم مدرسة التبسيط والتيسير ٠ وهذه المدرسة هي التي استمرت الى يومنا هذا لأنها رتبت المعجم وفق أوائل الحروف مبتدئة بالهمزة ، منتهية بالياء مع مراعاة الحرف الثاني والثالث والرابع ٠ وسبقت المعجمات الحديثة في ترتيب المواد ترتيباً محكماً ٠ من أتباعها :

أ ـ أبو عمرو الشيباني (ت ٢٠٦ هـ) في معجم (الجيم) :

قال القفطي(٢٠) : « وصنف أبو عمرو كتاب الحروف في اللغة وسماه كتاب الجيم وأوله الهمزة ٠ لم يذكر في مقدمة الكتاب لمَ سماه الجيم ولا أعلم أحد من العلماء ذلك » ٠ ويبدو أن القفطي كان يتوقع أن يبدأ بحرف الجيم كما بدأ معجم العين (بالعين) ٠ لكن الشيباني قسمه أبواباً مرتبة على الحروف الهجائية جاعلا لكل حرف منها باباً خاصاً ٠

والسؤال لماذا لم يكن الشيباني زعيم هذه المدرسة وهو سابق البرمكي ؟ والرد أن الشيباني أورد في كل باب الألفاظ التي تبدأ بذلك الحرف مهملا الحرف الثاني وما بعده ٠ ولهذا لم تكن طريقته رائدة فهي مشوبة بكثير من الفوضى والاضطراب داخل الباب الواحد ٠

ب ـ ابن دريد الأزدي (ت ٣٢١ هـ) في جمهرة اللغة :

اعتمد فيه الترتيب الألفبائي ، وقسمه الى أبواب هي أبواب كتاب العين من ثنائي مضعّف الى ثلاثي صحيح الى رباعي وخماسي منتهياً باللفيف والنوادر ٠ ولم يكتف بذلك بل عاد الى طريقة الخليل في التقليب ٠ وحرص أن يبدأ كل باب بالكلمة التي تبدأ بالحرف المعقود له الباب ، يليه مباشرة الحرف الذي يتبعه في الترتيب الألفبائي فباب الباء مصدّر بـ (بتّ) وباب التاء مصدّر بـ (تتّ) وهكذا ٠

وأعتقد أنه من الخطأ أن يصنّف المصنفون هذا المعجم في مدرسة البرمكي لأن مدرسة البرمكي تمثل غاية التطور في البحث المعجمي ، وبلغت ذروة التبسيط والتيسير ٠ وابن دريد عقّد البحث فاتعب الباحث وضيّعه بين الأبواب والتقليب ٠

جـ ـ ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) في مقاييس اللغة :

اعتمد فيه الترتيب الألفبائي وقسمه الى كتب بعدد حروف الهجاء فكتاب للألف وثان للباء وثالث للثاء وهكذا ٠ لكنه قسم كل كتاب الى ثلاثة أبواب هي : الثنائي المضعف والثلاثي ومازاد على الثلاثي ٠ وتخلى عن التقليب الا أنه وقع في اشكال كبير عندما بدأ كل كتاب بالحرف الذي يبدأ فيه اللفظ مع الحرف الذي يليه مباشرة في الترتيب الهجائي تاركاً ما قبله من حروف ٠ ففي باب الدال بدأ بالكلمات التي تبدأ بالدال مع الذال

وما يثلثهما وصولا الى الياء ثم يعود الى الكلمات التي تبدأ بالدال مع الهمزة وما يثلثهما وهكذا ٠٠٠

وهذه الطريقة عقدت البحث في المعجم ولا ضرورة لاعتمادها بعد ما تخلى عن طريقة التقليب الخليلية ٠

د ـ الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) في أساس البلاغة :

أول معجم مطبوع مرتب ترتيباً ألفبائياً محكماً فسبق المعاجم الحديثة ٠ قسمه الى ثمانية وعشرين باباً بعد حروف الهجاء ، وراعى فيه ترتيب الحرفين الثاني والثالث من الكلمة فقضى على كثير من الصعوبات والتعقيدات السابقة وصار في ترتيبه رائداً بحيث أن المعجمات الحديثة لم تضف شيئاً الى طريقته ٠

صرف همه الى اظهار جمال اللغة فافرد المجاز عن الحقيقة والكناية عن التصريح ٠ وريادة هذا المعجم تكمن في أنه وضع أمام القارىء استعمال اللفظ في أساليب متعددة مما تحدثت به العرب ٠ وفيه أكثر من خمسة آلاف شاهد شعري ، وآلاف الأمثال والحكم والجمل البلاغية ٠ وقد سبق المعاجم الأعجمية في وضع الكلمة في جملة أو مثل مأثور يفهم معناها من السياق ٠

هـ ـ الفيومي (ت ٧٧٠ هـ) في المصباح المنير :

اتبع فيه طريقة الزمخشري ٠ لكنه مختصر جداً فلم يتسع لألفاظ العربية كلها ٠

وهكذا نرى أن المعجم العربي قد تخلص من شوائب البحث في المعجم في المراحل الأولى من عمره ٠ وبقي رغم ذلك اتهامه بالصعوبة قائماً ، والسبب أن أكبر المعجمات وأوسعها وأشملها بقيت معتمدة وموثوقة الى يومنا هذا ، وهذه المعاجم الميسرة لم تغن عن تلك فلم تكن شاملة مستوعبة ٠ وكان الغرض منها بلاغياً ٠

ولا بد من ملاحظة أمر هام هو التزام هذه المعاجم جميعاً بمراعاة أصل الكلمة أو الجذر ٠ وهذا الجذر يمثل المادة الخام التي تصدر عنها المشتقات جميعاً ٠ والرجوع الى الجذر شكّل مأخذاً على معجمنا من بعض النقاد الذين استصعبوا العودة الى أصل بعض الألفاظ ونادوا بترتيب المعجم بحسب صورة الكلمة متناسين طبيعة لغتنا الاشتقاقية ٠ وهذا الترتيب يحافظ على الروابط المعنوية والدلالات المشتركة العائدة الى جذر واحد ٠

أشار العلامة عبدالحق فاضل الى بعض الصعوبات بقوله(٢١) : « كيف يخطر لأحدنا أن يبحث عن (الاتحاد) في (وحد) و (الاستيعاب) في (وعب) و (الاتهام) في (وهم) و (الاستقلال) في (قلل) و (الاستفادة) في (فيد) و (الاستقالة) في (قول) ؟ » ٠

ما ذهب اليه الأستاذ فاضل صحيح جداً حتى ليصعب أحياناً على أهل الاختصاص معرفة جذر بعض الألفاظ ، وانهم ليقضون ساعات في البحث عنها في هذه المادة أو تلك ، وقد يرجعون بخفّي حنين وقد يهتدون اليها مصادفة ٠ وعلى الرغم من هذه الصعوبات

فأنا مع الجذر لا مع هذا الترتيب الذي يفتت الجذر العربي ، ويشتت شمل الكلمة ، ويقطع علاقة المشتقات • وهذا الترتيب الفيتيشي التجزيئي يصلح في نظري ـ ان صلح ـ لصغار التلاميذ وأشباه العامة ، ولكنه لا يصلح للغتنا ، ولا لطلاب المعرفة من أبنائنا • وقد أصاب د• ابراهيم أنيس بقوله(٢٢) : « شهدنا في العصر الحديث اتجاهاً الى ترتيب المعجم العربي على حسب صور الكلمات • وجاءنا من لبنان معجم يسمى « الرائد » مطبوعاً ومرتباً بهذه الطريقة العجيبة ، التي أشبه بأرشيف المكتبات أو دليل التليفونات ، ففيه نجد كلمة استفهم بجوار استف واستفاض لا لشيء سوى لأنها جميعاً تبدأ بالألف والسين والتاء ، كما نرى الكلمات ناصر ومنصور وانتصر ونصير واستنصر في مواضع متباعدة من المعجم برغم الدلالة العامة المشتركة بينها جميعاً » •

سابعاً : المعجم الحديث :

عرفت حركة التأليف المعجمي نشاطاً بارزاً بعد منتصف القرن الماضي • وأصدرت دور النشر ولا تزال عدداً هائلا من المعجمات الخاصة والعامة ، الأحادية اللغة والثنائية اللغة والمتعددة اللغات • وعقدت مؤتمرات وندوات في أرض العرب كما في أرض العجم لدراسة مشكلات المعجم وخلصت الى توصيات ومقررات هامة سنأتي على استعراضها بسرعة •

أبرز معاجم القرن التاسع عشر هو الجاسوس على القاموس لأحمد فارس الشدياق (ت ١٨٧٨ م) وأبرز ما في هذا المعجم طريقته ونقده للمعجم العربي بعامة وللقاموس المحيط بخاصة • واليكم أبرز آرائه :

١ ـ ترتيب المواد :

عاب على الفيروزابادي اتباعه نهج الصحاح ورأى أنه كان من الأولى اتباع نهج ابن فارس لأن التطور يجب أن يكون نحو الأفضل ولا بد من مجاراة الزمن • وكما اعترض على الفيروزابادي اعترض على طريقة الخليل وأتباعه بقوله(٢٣) : « وبالجملة فالبحث عن الألفاظ في التهذيب للأزهري ، والمحكم لابن سيده صعب جداً ، لأنك اذا أردت أن تبحث مثلا عن لفظ (رقم) لم تدرِ هل هي الأصل لتبحث عنها في الراء ، أو مقلوبة فتبحث عنها في القاف (قرب) أو عن برق وما بين هذه الحروف مسافة بعيدة » •

ولهذا رأينا الشدياق يثني على طريقة الزمخشري ومن تابعه •

ب ـ ترتيب المشتقات : رأى أن ترتيبها في القاموس المحيط جاء اعتباطياً وفوضوياً ، والباحث فيه لا يجد طلبه بسهولة ، وربما احتاج أن يقرأ المادة بكاملها ليعثر على ضالته•

جـ ـ تحديد الفصيح : اعترض الشدياق على الطريقة الموروثة في تحديد الفصيح ، لأنها جعلته وقفاً على عصر الاحتجاج ، وذهب الى أن أي شاعر يعترف له بالجودة يصح الاحتجاج بشعره •

وتحديد الفصيح من أهم القضايا التي تواجه مجامعنا اللغوية. فالمتشددون يخطّئون كل لفظ لم يرد في اللسان، الذي يجعلونه فيصلا في هذا الباب. لكن هؤلاء نسوا أن ابن منظور توفي سنة احدى عشرة وسبعمائة للهجرة وأن اللغة العربية بقيت بعده.

فالجاسوس على القاموس يمثل ذروة الثورية في التأليف المعجمي. فهو يحارب التقليد ويدعو الى مواكبة العصر والعلم والتطور. قال الشدياق(٢٤): « ان الأقدمين قد ألفوا لعصورهم، وجروا في كتب اللغة على ما كانت تقضي به أصولهم اللغوية في ذلك الحين، فقد صنفوا ونفعوا وأفادوا غير أنهم ألفوا كتبهم على حسب أفهامهم وأذهانهم ... وأنه لا عيب عليهم في ذلك ». فأين يكمن العيب اذاً؟ - يكمن العيب في جمودنا فهم عملوا لزمانهم فلمَ لا نعمل لزماننا؟ لقد خلا المعجم القديم من لفظ الطيارة والتلفزيون والتلفون والتلغراف وغيرها من الأسماء، لأن المسميات لم تكن معروفة فهل يجوز أن يخلو معجمنا الحديث منها وقد باتت ملء السمع والبصر؟

والمعجم الثاني الهام في القرن التاسع عشر هو محيط المحيط لبطرس البستاني (ت ١٨٨٣ م). طبع لأول مرة سنة ١٨٧٠م، مستمداً مادته من القاموس المحيط للفيروزابادي، ورتبت مواده ترتيباً هجائياً بحسب أوائل الكلمات. استخدم الرموز وضبط الكلمات غير أنه استخدم العامية فاتهمه الشيخ محمد عبده بالركاكة والضعف.

ونذكر بعد ذلك عدداً من المعجمات التي ظهرت ابتداء من مستهل هذا القرن من أمثال الموارد في فصح اللغة والشوارد لسعيد الشرتوني (ت ١٩١٢ م) وقد أخذ مادة القاموس المحيط حاذفاً منها الألفاظ الجنسية لأنها تسيء الى التهذيب والأخلاق وتخدش العفاف والوقار. **والمنجد** للأب لويس معلوف (ت ١٩٤٦ م) وهو أوسع المعجمات الحديثة انتشاراً ولقد أعيد طبعه مراراً وخضع لاضافات وتعديلات كثيرة. وهو في الأساس معجم مدرسي صدر سنة ١٩٠٨ م مرتباً ترتيباً أوروبياً حديثاً، ثم أضاف اليه الأب فردينان توتل سنة ١٩٥٦ م ملحقاً باسم **المنجد في الأدب والعلوم** وهو معجم لأعلام الشرق والغرب. طباعته أنيقة زينت فيه اللوحات والصور والخرائط واستخدم اللون الأحمر للجذور. الا أن المآخذ عليه لا تحصى، أهمها: وقوعه في العامية عن سابق تصور وتصميم. وجاء في تعريف الأعلام كثير من التشويه، وأهمل ما يتصل بالاسلام والمسلمين. وقد وقع في أخطاء كثيرة في الضبط. وغير هذا كثير. وكان أستاذنا الشيخ صبحي الصالح - رحمه الله - يردد على مسامعنا كلما ذكر أسمه: المنجد لا ينجد.

أما «**البستان**» لعبد الله البستاني فقد صدر سنة ١٩٣٠م ببيروت بتكليف من الجامعة الأمريكية، جديده أنه أثبت أسماء المخترعات الجديدة والمصطلحات العلمية الا أنه حشر فيه الكثير من المولد والدخيل.

والمعجم الذي يجب التوقف عنده هو **متن اللغة** للشيخ أحمد رضا (١٩٥٣ م). وكان وضعه بتكليف من مجمع اللغة بدمشق واستغرق العمل فيه سنوات عديدة. طبع

بعد وفاته في خمسة أجزاء كبيرة . جديده أنه ألحق في المقدمة جداول تبين الوحدات القياسية من موازين ومكاييل ومقاييس ، ثم أثبت جدولا آخر حشد فيه الكلمات الدخيلة التي عرّبها بنفسه أو التي عرّبتها مجامع اللغة .

وبانتصاف القرن العشرين يلمع نجم العلايلي وخاصة بعدما أصدر (**المعجم**) سنة ١٩٥٤ م وكان مقرراً له أن يصدر في أربعة وعشرين مجلداً يضم كل منها أربعة وعشرين قسماً . ولم يصدر منه الا الجزء اليسير جداً . الا أن ما ظهر منه ينبيء عن عبقرية صاحبه وعقله المدبر ، وحسه اللغوي المتوقد . لقد ميز فيه المعنى الأصلي عن المعاني الفرعية فساعد بذلك على رصد التطور المعنوي للفظ وتفرعه بين الحقيقة والمجاز . واهتم بالمولد والدخيل مميزاً القديم منهما عن الحديث ولم يكتف بما وضعته المجامع في هذا الباب بل راح يضع الألفاظ بنفسه معتمداً القياس والاشتقاق مثبتاً بذلك قدرة العربية على التعبير عن الفكر المعاصر وأكد أن الاشتقاق يجعل من لغتنا لغة مرنة مطواعة .

وقبل أن يتم العلايلي (المعجم) طلع علينا بمعجم آخر هو (المرجع) الذي صدر سنة ١٩٦٣ م على نسق المعجم ، وزاوج فيه بين الطريقة العربية والغربية في ترتيب المواد فاثبت المصطلح في موضعه من النطق وأثبت الأفعال مجردة ومزيدة تحت الجذر . فكلمة (انتضى) مثلا يجدها الباحث في باب الألف مرتبة ترتيباً هجائياً ويجد في مقابلها (نضو) . اقترح فيه وضع أوزان ثابتة للمصطلحات العلمية والصناعية والزراعية كأن نخصص (فعالة) للمصطلحات الصناعية مثل حدادة ونجارة وحلاقة ... ووزن مفعَلة للدلالة على الآلة مثل : مطرقة : مسطرة ... وتساءل لم لا يفعل ذلك والعرب القدامى خصصوا وزن فعال للأمراض الآنيةَ العابرة فقالوا : سُعال وزُكام وصُداع ودُوار ... كما خصصوا وزن فَعَل للأمراض المقيمة غير الآنية مثل (خَرَس وعَرَج وبَرَص وعَمَى ...) .

وبذلك يخطو العلايلي في معجميه بالمعجم العربي خطوة تطورية هامة ، فلقد جعل المعجم عصرياً يفسر المادة من جوانبها اللغوية والفلسفية والعلمية والنفسية والاجتماعية ، وكاد يضع المعجم التاريخي عندما تتبع التطور المعنوي للفظ عبر العصور بشكل تعاقبي .

وبعدما استعرضنا جهود الأفراد في العمل المعجمي الحديث نرى ضرورة تقويم جهود الجماعات والمؤسسات في هذا السبيل . ومنها :

١ ـ المعجم الوسيط :

أصدره مجمع اللغة في القاهرة ، وتعاونت في وضعه لجان متخصصة . أبصر النور سنة ١٩٦٠ م في جزأين ثم صدر ثانية سنة ١٩٧٢ م منقحاً وقد أهملت بعض أصوله السابقة وأضيفت اليه أصول جديدة أقرها المجمع في جلسته المنعقدة ما بين ١٩٦٠ و ١٩٧١ م . تضمن كثيراً من الألفاظ المولدة والمحدثة والمصطلحات العلمية الحديثة في

ميادين مختلفة • وقبل المعرّب مشيراً اليه برموز واضحة • ومن المآخذ عليه اغفاله الكثير من الألفاظ المحدثة التي استقرت في لغة الكتّاب منذ فجر النهضة ، وتمسكه بقياسات قديمة للجموع دون النظر الى صلاحها أو عدم صلاحها • وفيه مقدار غير ضئيل من الألفاظ العامية المصرية خاصة ،ووعد باهمال الحوشي الذي هجره الاستعمال ولم يفِ بوعده •

٢ ـ المعجم الكبير :

أصدره مجمع اللغة بالقاهرة أيضاً على دفعتين • صدر الجزء الأول وهو حرف الهمزة سنة ١٩٧٠ م وصدر الجزء الثاني وهو حرف الباء سنة ١٩٨٢ م وقد أرفقا بكتيّب بعنوان (المنهج والتطبيق) جاء فيه : في المعجم ثلاثة جوانب هي :

١ ـ جانب منهجي هدفه الأول دقة الترتيب ووضوح التبويب •

٢ ـ جانب لغوي يعنى بتصوير اللغة تصويراً كاملاً •

٣ ـ جانب موسوعي يقدم ألواناً من العلوم والمعارف تحت أسماء المصطلحات أو الأعلام•

ولقد مضى على صدور الجزء الثاني أكثر من عشر سنوات ولم يصدر بعد الجزء الثالث وهذا البطء في العمل لا بد أن يؤثر سلبياً فيه وفي مستخدميه •

الجديد في هذا المعجم أن المجمع أظهر منه نموذجاً من نحو ٥٠٠ صفحة عام ١٩٥٦ م وعد ذلك(٢٥) « تجربة ودعا المتخصصين الى قراءتها وتسجيل ملاحظاتهم عليها » • وقد أخذ بملاحظات المتخصصين وراح خبراء المجمع يدققون ويمحصون حتى صدر هذا المعجم آية في التأصيل والتحقيق متدرجاً في المعاني من الحسي الى المعنوي ومن الحقيقي الى المجازي • وذكر في صدر كل مادة النظائر السامية ان وجدت وبوبت المواد تبويباً سهلا وأثبتت فيه المصطلحات الحديثة الشائعة في الأوساط العلمية والحياة العامة • ولم يهمل أعلام الأشخاص : وزاوج بين النظام الألفبائي الأصولي بحسب أوائل الأصول ، والنظام الألفبائي النطقي المطلق فحل بذلك مشكلة ادراج الكلمات المعربة والدخيلة •

لقد وضع هذا المعجم ـ على ما يبدو ـ ليكون في مصاف المعاجم العالمية الشهيرة كموسوعة Larousse الفرنسية و Oxford الانكليزية • وهو اذا تم مع اجراء بعض التعديلات الطفيفة عليه يكون معهما على مستوى واحد ان لم يفقهما دقة وحسن تبويب. الا أنه لا يجوز أن تستمر فيه عيوب الشكل • فالصور غير ملونة ولا يخفى ما للصورة الملونة من أهمية في توضيح الآلة والنبات وغيرهما ••• ولا يجوز أيضاً التذرع بالتكاليف الباهظة لأن الأموال تكال جزافاً لمشاريع أخرى لاترقى ـ مهما جلت أهميتها ـ الى مكانة المعجم • واننا لندعو مجامع اللغة والدول العربية مجتمعة أو متفرقة الى اعتماد الأجهزة الألكترونية في التبويب والاخراج • فمن حق المعجم الذي يتحدث عن المكتشفات أن يستفيد منها ويحدث بنعمتها •

ثامناً : مساهمات عربية في الهم المعجمي العالمي :

أطلقت أوروبا على القرن التاسع عشر تسمية عصر المعجمات وبعد منتصف القرن الحالي راحت تعقد المؤتمرات المحلية والدولية لتدارس شؤون المعجم . ومن أبرز هذه المؤتمرات المؤتمر الذي نظمته جامعة (انديانا) بأميركا في شهر تشرين الثاني من عام ١٩٦٠ م بموضوع (مشاكل المعجم) .وقد اشترك فيه أكثر من خمسين لغوياً ومعجمياً عرباً أو أعاجم . ومما جاء في تقرير لأحد المشاركين فيه واسمه هاوس هولدر ما يأتي(٢٦) :

١ ــ يجب أن يأخذ المعجم في الاعتبار نوعاً خاصاً من المستعملين له وحاجاتهم .

٢ ــ لا بد أن تكون المواد واضحة الترتيب في موضوعها ، وتوضع الصيغ الشاذة كمواد قائمة بنفسها ، والا فيشار الى موضعها في المادة الأصلية .

٣ ــ التمييز بين المعاني الأصلية والمعاني المجازية ؟ على أساس لغوي .

هذه التوصيات تشير بوضوح الى أن مشكلات المعجم تكاد تكون واحدة في أرجاء المعمورة . والمراقب المنصف لا بد أن يلاحظ أن معجمنا العربي قديمه وحديثه قد أخذ بمعظم هذه التوصيات .

تاسعاً : المعجمات الثنائية اللغة والمتعددة اللغات :

قضت سنّة التطور والانفتاح والتبادل الثقافي وأغراض أخرى أن تفكر الأمم بمعجمات ثنائية اللغة أو متعددة اللغات . ولم يكن العرب متخلفين عن الركب في هذا الميدان .

وانه لمن الصعوبة بمكان رصد المعجمات جميعاً لكن لا بد من الاشارة الى بعضها كالمنهل (فرنسي ــ عربي) للدكتورين عبدالنور وادريس ، والمورد (انكليزي ــ عربي) وعربي انكليزي للبعلبكي ، ومعجم عبدالنور (عربي ــ فرنسي) . ويكاد يكون هناك معجم أعجمي عربي أو العكس لكل لغة من اللغات الحية . ومن هذه المعاجم ما هو تجاري رخيص ومنها ما هو علمي رصين . وهنا لا بد من التنويه بالدور الكبير الذي اضطلع به المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي ومركزه الرباط حيث راح ينشر في مجلته المعجم تلو الآخر ومنها على سبيل المثال لا الحصر : معجم الكيمياء ، ومعجم الفيزياء ، ومعجم الرياضيات ، ومعجم النبات ، ومعجم الحيوان ، ومعجم البترول ، ومعجم البناء ، والمعجم المنزلي ، ومعجم الأطعمة ، ومعجم الحرف والمهن ، ومعجم المرأة ، ومعجم الزهور ، ومعجم الاذاعة والتلفزة ، والمصطلحات الاعلامية ، والمصطلحات الرياضية ، ومصطلحات العَنَفات (Turbines) ، ومصطلحات في أمراض الأذن والأنف والحنجرة ، والمصطلحات الفلسفية ، والمصطلحات البريدية وغيرها كثير .وقد صدرت هذه المعجمات بمعظمها باللغات الثلاث العربية والفرنسية والانكليزية .وقد أُتبع أكثرها بملاحق أغنتها ، وتداركت نقص الطبعات الأولى . وكان مجمع اللغة قد أصدر معاجم متخصصة كالمعجم العسكري الموحّد باللغتين الانكليزية والعربية أولاً ثم بالفرنسية والعربية ثانياً وغيره كثير .

ولم يكتف المكتب الدائم لتنسيق التعريب بذلك بل كانت له أعمال جليلة أخرى أطل فيها على العالم المتمدن بعدما حصن البيت من داخل فعرّف بمآثر العرب المعجمية، ووقف على ما عند الآخرين من جديد في هذا الميدان • وأبرز أعماله (الندوة العالمية لصناعة المعجم العربي للناطقين باللغات الأخرى) التي انعقدت بالرباط من ١ الى ٨ نيسان ١٩٨١ • شارك فيها وفود عربية وغربية من فرنسا وبريطانيا والمانيا والولايات المتحدة ؛ ومن أبرز الموضوعات التي ناقشها المؤتمرون(٢٧) :

١ ــ المنهجية في صناعة المعجم •
٢ ــ مشكلات الدلالة في المعجم الثنائي اللغة •
٣ ــ المعجم العربي للناطقين باللغات الأخرى •
٤ ــ ترتيب مداخل المعجم •

والمهم في هذه الندوة التوصيات الصادرة عنها وجاء فيها :

١ ــ التعريف بالرموز المستعملة في المعجم وبيان كيفية استخدام المعجم •

٢ ــ اتباع أحد طريقين في ترتيب المعجم ،اما على حسب الجذور واما على حسب نطق الكلمة • وفي كلتا الحالتين يتبع الترتيب الهجائي العادي بحسب أوائل الكلمات • وفي حالة اتباع نظام الجذور ينصح بترتيب المصطلحات والألفاظ الدخيلة والمعربة على حسب نطقها •

٣ ــ ضرورة تضمن المعجم قدراً معقولا من المصطلحات العلمية وبخاصة ما يتصل منها بالحياة العامة •

٤ ــ استخدام الصور والرسوم والخرائط ووسائل الايضاح الممكنة ، واستخدام نماذج ملونة حين معالجة ألفاظ الألوان •

والمعجم العربي كما رأينا سابقاً قد عمل أو بالأحرى قد سبق الى تنفيذ بعض التوصيات قبل صدورها عن المؤتمر • وفي هذا السبق فخر للعرب في هذا الميدان •

عاشراً : صيحات للتجديد :

على الرغم من هذه الثورة الدائمة التي أحدثها المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي ، ومجامع اللغة العربية في عالم المعجم فان صيحات تدعو للتجديد ما زالت تعلو من هنا وهناك • والذي يبشّر بالخير فيها أنها دعوات من مجمعيين ذوي علم وحس لغوي • هذه الصيحات تشعرنا بأن الجمود موت والتطور واجب ، ولا يجوز الوقوف حيث نحن ولو قبضنا في حين على ناصية العلم والمعرفة •

نذكر من هذه الصيحات تلك التي أطلقها عضو المجمع العلمي العراقي د• محمود الجليلي وطالب فيها بوضع (المعجم اللغوي الحضاري)(٢٨) الذي : « يستوعب تطور اللغة العربية واستيعابها للحضارة في مختلف الأزمنة » وحدد محتويات هذا المعجم المقترح بما يأتي :

أ ـ تطور مدلول الكلمات تاريخياً ٠
ب ـ تدوين الاشتقاقات الجديدة المؤدية الى معان معينة ٠
جـ ـ تسجيل الاستعمالات الحديثة والمعاصرة التي أوجبها التطور الحضاري والتقني ٠
د ـ ادخال المصطلحات العلمية الحديثة ٠
هـ ـ ضرورة الرجوع الى كتب التراث، وكتب العلوم والطب وسائر فروع المعرفة للاستفادة من مفرداتها ٠

وليتم اعداد هذا المعجم على الوجه المقبول لابد من توفر الشروط الآتية في نظره :

- تضافر جهود المتخصصين المتعاونين فيكتابة المادة الواحدة ٠
- وجود جهة منسقة تحفظ التوازن وتقرر المقبول من المواد ٠
- تأريخ المعلومات الجديدة ، وابقاء الباب مفتوحاً أمام الجديد ورفد المعجم بملاحق دائمة ومستمرة ٠

لا شك في أن د٠ الجليلي صادق في ما ذهب اليه ٠ لكن الانصاف يقضي بالاعتراف بالفضل الكبير للجهود التي بذلتها مجامع اللغة والمكتب الدائم لتنسيق التعريب لأنها حققت في معجماتها أكثر ما طالب به الدكتور الجليلي ٠

ويصدح بعد سنوات صوت آخر من المجمع العلمي العراقي نفسه هو صوت د٠ يوسف عز الدين فيكتب في مجلة المجمع مقالا بعنوان (المعجم الذي نريده) يحدد فيه مواصفات هذا المعجم وملخصها :

- ابعاد الألفاظ العامية عنه حتى ولو استعملت في وسائل الاعلام ٠
- أن يكون سهل المأخذ بعيداً عن الحشو ٠
- أن يستغني عن الميت والمهمل من الألفاظ ٠
- أن يبتعد عن التصحيف والتحريف ٠

وربما استقى د٠ عز الدين ملاحظاته هذه من عيوب المعاجم الصادرة عن مجامع اللغة وقد أشرنا الى أكثرها ونحن نعرض الرأي فيها ٠

ثم طالب مجمعي عراقي ثالث بمعجم تراثي في مقال عقده بعنوان(٣٠) (المعجم الذي نطمح اليه) واشترط أن تتوفر فيه الشروط الآتية :

- ترتيب المواد ترتيباً ألفبائياً وفقاً للأحرف الثلاثة الأولى من الكلمة ٠
- وقوف القارىء داخل المادة الواحدةعلى مجموع آراء اللغويين ٠
- رصد التطور اللغوي الذي أصاب لغتنا عبر العصور ٠
- ادخال المصطلحات العلمية التي أقرتها مجامع اللغة ٠

وبعض ما نادى به هؤلاء المجتمعون متوفر في المعاجم العربية الحديثة وبعضها الآخر لا بد من دراسته دراسة علمية رصينة وهادئةمن قبل المجامع للأخذ بالمقترحات التي تخدم معجمنا وتعمل على تحديثه وتفعيل دوره ٠

وفي النهاية لا بد من الاعتراف بأن دورة المعجم كدورة الحياة متجددة غير متوقفة • وكل تطور في حياة الأمة يصيب الاقتصاد أو السياسة أو الدين أو الاجتماع أو العلم لا بد أن يرافقه تطور في المعجم الحي لأن المعجم الجامد يعني موت الأمة واندثار اللغة الناطقة بها •

★ ★ ★

□ الحواشـي :

١ ـ ابن منظور ، لسان العرب (عجم) •
٢ ـ ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، دار الكتاب العربي ـ ط ١٩٦٥ ، ج ٤ ـ ص ١٢١ •
٣ ـ المعجم الوسيط (عجم) •
٤ ـ حجازي ، محمود فهمي ، مجلة مجمع اللغة بالقاهرة العدد ٤٠ ص ٨٦ وما بعدها •
٥ ـ العطار ، أحمد عبد الغفور ، الصحاح ومدارس المعجمات العربية ، مكة المكرمة ١٩٩٠ ص ٥٣ •
٦ ـ آل ياسين ، محمد حسين ، الدراسات اللغوية عند العرب ، دار مكتبة الحياة بيروت سنة ١٩٨٠ ص ٢٢٢ •
٧ ـ ابن منظور ، لسان العرب (قمس) •
٨ ـ الفيروزابادي ، القاموس المحيط ، طبعة مصطفى البابي الحلبي ، ص ٣ •
٩ ـ عمر أحمد مختار ، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة الجزء ٣٠ ص ١٢١ •
١٠ ـ Encyclopedie de l'Islam, NV-IV, p. 994 .
١١ ـ مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، الجزء ٣٠ ص ١٢٢ •
١٢ ـ ضيف ، شوقي ، الفن ومذاهبه في النثر العربي ط ٥ص ١٢٥ •
١٣ ـ مجلة مجمع اللغة بالقاهرة ، الجزء ٣٠ ص ١٢٢ •
١٤ ـ العطار ، أحمد عبد الغفور ، الصحاح ومدارس المعجمات العربية ص ٦٥ •
١٥ ـ من رسائله : خلق الانسان ، ، الابل ، الخيل ، الوحش ، النبات ، الشجر •
١٦ ـ من رسائله : المطر ، النبات ، الشجر •
١٧ ـ ابن سيده ، المخصص ١٠/١ •
١٨ ـ الجرح ، محمد سالم ، مجلة مجمع اللغة بالقاهرة . العدد ٢٨ ص ١٦٥ •
١٩ ـ فاضل ، عبد الحق ، مجلة اللسان العربي ، المجلد السابع ، العدد ٢ يناير ١٩٧٠ ص ١٠ •
٢٠ ـ القفطي ، انباه الرواة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨١ القاهرة ٢٢٤/١ •
٢١ ـ فاضل ، عبد الحق ، مجلة اللسان العربي ، المجلد السابع ، العدد ٢ يناير ١٩٧٠ ص ١١ •
٢٢ ـ أنيس ، ابراهيم ، مجلة مجمع اللغة بالقاهرة ، عدد ٢٥ ص ٧ •
٢٣ ـ الشدياق ، أحمد فارس ، الجاسوس على القاموس مطبعة الجوائب الآستانة سنة ١٢٩٩ هـ ـ ص ٢٣ •
٢٤ ـ المصدر نفسه ص ٣ •
٢٥ ـ مدكور ، ابراهيم ، مجلة مجمع اللغة بالقاهرة عـدد ١٢٨٨ •
٢٦ ـ أبو الفرج ، محمد أحمد ، المعاجم اللغوية ، دار النهضة العربية بيروت ١٩٦٦ ص ٢١ ـ ٢٢ •
٢٧ ـ عمر ، أحمد مختار ، المجلة العربية للعلوم الانسانية (الكويت) المجلد ج الأول العدد الرابع خريف ١٩٨١ ص ٢٩٩ وما بعدها •
٢٨ ـ الجليلي ، محمود ، مجلة المجمع العلمي العـراقي . المجلد الرابع والثلاثون ، الجزء الأول كانون الثاني ١٩٨٣ ص ٨٩ وما بعدها •
٢٩ ـ عز الدين ، يوسف ، مجلة المجمع العلمي العراقي . المجلد الثامن والثلاثون الجزء الرابع كانون الأول سنة ١٩٨٧
٣٠ ـ آل ياسين ، محمد حسن ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد التاسع والثلاثون الجزء الأول ص ٢٩ وما بعدها •

الشرط والقسم وواو الحال عند النحاة وفي كلام البلغاء

صلاح الدين الزعبلاوي

هاتان مسألتان

يشكل بحثهما على الكتاب ويلتبس فيهما الحكم : تحقيق الجواب عند اجتماع الشرط والقسم ، وواو الحال متى تجب أو تجوز أو تمتنع • وقد يعضل الأمر في تبين وجه الصواب في المسألتين عند اعتراضهما كتابة الكاتب • وهذا ما دعاني الى معالجتهما والتلطف لهما والاهتمام بطلبهما لعلّي التمس اليهما مساغا وأبتغي سبيلا ، فأوضح المبهم وأجلو الغامض وأبسط الموجز فأخفف الكلفة في فهم ما تصعب منهما ليتسنى ما تعذر ويستيسر ما تعسر •

ولا شك أنه لا يكفي في تبين وجه الصواب ومعرفة المباح في ذلك والمحظور ، والجائز والممتنع ، أن يُحتكم في الأمر الى أقوال النحاة وعلماء اللغة وحدهم بل لا بد من مراجعة كلام الفصحاء نثراً وشعراً ، والاطلاع على أنماط تعبيرهم وأساليب تاليفهم والاسترشاد بمناهجهم وطرائقهم ، تحرياً للرأي الراجح من آراء أئمة اللغة ودرءاً لما يمكن أن يعترضنا في ذلك من شبهة أو يخامرنا من ريب • وهذا ما يفوت النقاد أن يوطّنوا النفس عليه ويستمسكوا به ، في غالب الأحيان ، فلا ينصرفوا عنه أو ينثنوا عن قصده وطلبه •

الشرط والقسم

الشرط ما يتوقف عليه المشروط ، وما يسميه النحاة شرطا هو في المعنى سبب لوجود الجزاء ، وتدخل على الشرط أداة مخصوصة دالة على سببيته للجزاء ، كما جاء في كليات أبي البقاء الكفوي • ومن ثم كان للشرط جملتان جملة للشرط وأخرى للجزاء أو

الجواب ، وهما بمنزلة الجملة الواحدة وجاء في حاشية الامام حسن العطار على شرح الأزهرية في علم النحو للشيخ خالد الأزهري :« وأما وجه تسميته جواباً فلأنه لما لزم عن الأول صار كالجواب الآتي بعد كلام السائل ، وأما وجه تسميته جزاء فلأنه لما كان مترتباً على ما قبله أشبه الجزاء على الفعل من ثواب أو عقاب ... ص/١٧٧ » .

والقسم هو الحلف أو اليمين ، وهو ضرب من ضروب الانشاء غير الطلبي . وهو يتم بجملة فعلية أو اسمية كما يتم بأدوات القسم الجارة كالباء والواو والتاء واللام.. وللقسم كما للشرط جملتان جملة قسم هي جملة المقسم به ، وجملة جواب هي جملة المقسم عليه .

ومن ثم كان لا بد للشرط من جواب هو جزاؤه ، كما لا بد للقسم من جواب هو المقسم عليه ، ولا يصلح جواب أحدهما جواباً للآخر . ويشكل الأمر اذا اجتمعا في الكلام أيكون الجواب فيه للشرط أم للقسم ؟.

اجتماع الشرط والقسم واتفاق الجمهور على أن الجواب للمتقدم منهما :

اذا اجتمع في الكلام شرط وقسم ، وتقدمهما ما يطلب الخبر كالمبتدأ واسم كان ونحوهما ، جُعل الجواب للشرط كقولك (خالد والله ان يطعني أكرمه) وقولك (ان والدي ان يسيء اليّ ، والله ، أعف عنه) بالجزم في (أكرمه) و (أعفُ) لأنهما جواب الشرط .

أما اذا اجتمعا ولم يتقدمهما ما يطلب الخبر فالجواب للسابق منهما وهو يغني عن جواب الآخر ، تقول : (ان يزرني والله خالد، أكرمه) بالجزم لأن الجواب للشرط فهو المتقدم ، كما تقول : (والله ان يزرني خالد لأكرمنه) بتشديد النون لأن الجواب للقسم وهو السابق . ولعل من المفيد هنا أن نشير الى ما ذكره صاحب الكليات من أن القسم لا يدخل على المضارع الا مع النون المؤكدة ، وأنه اذا اجتمع القسم والشرط على جواب واحد يجعل ذلك الجواب لأحدهما لفظاً ومعنى وللآخر معنى فقط ..

وقد جاء في كتاب (شرح شذور الذهب ـ ص٣٤٧ ـ ٣٥٠) لابن هشام الأنصاري في المواضع التي يجب فيها حذف (جواب الشرط) : « أن يتقدم على الشرط قسم نحو ـ والله ان جاءني لأكرمنه ـ فان قولك لأكرمنه ، جواب القسم ، فهو في نية التقديم الى جانبه ، وحذف جواب الشرط لدلالته عليه . ويدلك على أن المذكور جواب القسم توكيد الفعل في نحو المثال ، ونحو قوله تعالى : ـ ولئن نصروهم لَيُوَلُّنَّ الأدبار ـ الحشر/١٢ ـ ورفعه في قوله تعالى : ـ ثم لا يُنصرون ـ» ذلك أن نص الآية « لئن أُخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولّنّ الأدبار ثم لا يُنصرون » . وأردف ابن هشام يقول : « ثم أشرت الى أنه ـ كما وجب الاستغناء بجواب القسم المتقدم . يجب العكس في نحو : ان تقم والله أقم . وأنه اذا تقدم عليهما شيء يطلب الخبر وجبت مراعاة الشرط تقدم أو تأخر ، نحو : زيد والله ان يقمْ أقمْ » .

وذكر ابن هشام ذلك في كتابه (مغني اللبيب ـ ٢/١٦٧ ـ ١٦٨) أيضاً ، اذ أورد من أمثلة حذف جواب القسم (ان جاءني زيد والله أكرمته) ، اذ أثبت فيه جواب الشرط لتقدمه وحذف جواب القسم ، كما أتى من أمثلة حذف جواب الشرط قوله (والله ان جاءني زيد لأكرمنّه) ، اذ أثبت جواب القسم لتقدمه وحذف جواب الشرط ٠

ما يميز جواب الشرط من جواب القسم :

الذي يميز جواب الشرط من جواب القسم أن جواب الشرط يقترن بالفاء أو بجزم ، وهو يقترن بالفاء اذا لم يكن صالحاً لأن يكون شرطاً ، كأن يكون جملة اسمية أو فعلا جامداً أو طلبياً أو ماضياً لفظاً ومعنى أو اقترن بقد أو ما النافية أو لن أو السين أو سوف ، أو صدر بربّ أو كأنما أو أداة شرط. فاذا كان الجواب صالحاً لأن يكون شرطاً فلا حاجة به الى الفاء ٠

ويجوز الوجهان الربط بالفاء وتركه اذا كان الجواب مضارعاً مثبتاً أو منفياً بلا ٠

أما جزم المضارع اذا كان جواباً فهو واجب اذا كان الشرط مضارعاً ، فاذا كان الجواب وحده مضارعاً ، جاز الوجهان الجزم وتركه ٠

أما القسم فان كان جوابه جملة فعلية مصدرة بمضارع مثبت اقترن باللام ونون التوكيد للاستقبال ، ومن المفيد هنا أن نشير الى أن النون المؤكدة هذه لا يؤكد بها الماضي ولا الحال ، ولا ما ليس فيه معنى الطلب ، وطرح هذه النون ضعيف في القَسَم ٠

قال تعالى : « قال فبعزتك لأغوينّهم أجمعين ـ ص/٨٢ » ٠ ويكتفى هنا باللام اذا دخلت على جارّ ، كقوله تعالى : « ولئن متّم أو قُتلتم لالى الله تُحشرون ـ آل عمران ـ ١٥٨ » ٠ وكذلك يكتفى باللام اذا كان للحال دون الاستقبال ٠

واذا صدرت الجملة الفعلية مضارع منفي اقترن جواب القسم بـ (لا) النافية ، كقوله تعالى : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ـ النحل / ٣٨ » أو بان النافية ٠

واذا كانت الجملة فعلية مصدرة بماض مثبت متصرف اقترنت باللام وقد غالباً كقوله تعالى : « قالوا تالله لقد آثرك الله علينا ـ يوسف / ٩١ » ٠ وقول الفضل بن يحيى لسعيد بن وهب : « لئن قلّ القول ونزر لقد اتسع المعنى وكثر » ٠

واذا كانت الجملة مصدّرة بجامد اقترنت باللام كقولهم (والله لنعم الخلق الصدق) ٠ أما اذا كانت مصدّرة بماض منفي اقترنت بما النافية ، كقوله تعالى : « ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ـ البقرة / ١٤٥ » ٠

واذا كانت الجملة اسمية مثبتة اقترنت ب (ان) مشددة أو مخففة ، أو باللام ، أو بهما ، كقوله تعالى : « يس والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين - يس / ١ - ٣ » ، وقوله تعالى : « حم والكتاب المبين انّا أنزلناه في ليلة مباركة - الدخان / ١ - ٣ » • فاذا كانت الاسمية منفية كان النفي بما الحجازية ، ، العاملة عمل ليس ، أو التميمية ، غير العاملة ، أو لا التبرئة ، أي النافية للجنس • كقولك (والله ما زيد فيها ولا عمرو) ، وقولك (والله لا رجل في الدار) أو بان النافية •

* * *

ومن أمثلة اجتماع القسم والشرط الشائعة مع تقدم القسم (لئن) ، فاللام موطئة للقسم ، أي مؤذنة بأن ما بعدها جواب للقسم ، لتقدمه ، دون الشرط ، والتقدير (والله لئن ٠٠) • و (ان) هذه حرف شرط جازم • وقد جاء في التنزيل : « لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولنّ الأدبار ثم لا ينصرون - الحشر / ١٢ » • فقوله تعالى (لا يخرجون) جواب القسم ، وقد أغنى عن جواب الشرط • ولو كان الجواب للشرط ، لقيل (لئن أخرجوا لا يخرجوا معهم) بحذف النون.

وهكذا قوله تعالى : (لا ينصرونهم) فهو جواب القسم ، ولو كان جواب الشرط ، لقيل (ولئن قوتلوا لا ينصروهم) بحذف النون • وشاهد آخر ، قال الشاعر :

حلفت برب الراكعين لربهم خشوعاً وفوق الراكعين رقيب
لئن كان برد الماء حرّان صادياً اليَّ حبيباً ، انها لحبيب

فجملة (انها لحبيب) في البيت الثاني جواب القسم المذكور في البيت الأول وهو (حلفت) كما جاء في خزانة الأدب للبغدادي • ولو كان الجواب للشرط لقيل (فانها لحبيب) مقترناً بالفاء •

ما جاء من الشعر خلافاً للقياس ، فكان الجواب فيه للشرط مع تقدم القسم :

قد جاء (لئن) في الشعر واتفق الجواب للشرط مع تقدم القسم ، خلافاً للقياس ، قال الشاعر :

لئن منيت بنا عن غب معركة لا تلفنا في دماء القوم ننتفل

فقوله (لا تلفنا) هو جواب الشرط دون القسم بدليل الجزم ، وقد أولوه ، فمنهم

من حمله على ضرورة الشعر ، كما جاء في كتاب (الضرائر) لمحمود شكري الآلوسي (ص/٢١٦) ، ومنهم من لم يجعله من الضرائر فأوله على وجه من الوجوه كابن عصفور الأندلسي في كتاب (الضرائر) • وكذلك فعل ابن هشام في كتابه (مغني اللبيب ـ ١٨٩/١) ، اذ اعتد اللام في (لئن) زائدة في أمثاله ، لكنه خص ذلك بالشعر واستشهد بقول الشاعر :

لئن كان ما حُدّثته اليوم صادقاً أصمْ في نهار القيظ للشمس باديا

والبيت لأمرأة من عقيل •

وقد ذهب ابن هشام الى أن اللام في (لئن) زائدة وأن الشرط أجيب بالفعل المجزوم (أصمْ) ، اذ قال : « ولو كنت اللام للتوطئة لم يُجب الا القسم، هذا هو الصحيح، وخالف في ذلك الفرّاء فزعم أن الشرط قد يجاب مع تقدم القسم عليه » •

واذا عدنا الى الفحول من الشعراء وجدنا أنهم لم يستكرهوا مخالفة القياس أو يستبعدوه في هذا الباب ، فجاء الجواب للشرط في أشعارهم ، مع تقدم القسم عليه • فهذا الامام الشافعي يقول في حديث عن أهل العلوم :

لعمري لئن ضُيّعت في شر بلدة فلست مُضيعاً فيهمُ غرر الكلم

والشافعي حجة فقد استظهر القرآن منذ صباه ، وخرج الى البادية فحفظ كثيراً من أشعار الهُذليين ، وكانوا من أفصح العرب ، وروي عن الامام الأصمعي أنه صحح عليه أشعار هؤلاء • وهذا المتنبي فقد جاء في مرثيته لجدته من أمه •

لئن لذّ يوم الشامتين بيومها فقد ولدت مني لآنافهم رغماً

فكان الجواب للشرط في قوله (فقد ولدت) مع تقدم القسم ، وقد روي أيضاً (فقد ولدت مني لأنفهم رغماً) •

وهذا أبو فراس الحمداني يقول في مفاخر قومه :

لئن كان أصلي من (سعيد) نجاده ففرعي لسيف الدولة القرم ناصر

و (سعيد) هو ابن عم الشاعر ، والقرم هو السيد والعظيم •

وقال أبو تمام يرثي محمد بن حميد الطوسي :

لئن أُبغض الدهر الخؤون لفقده لعهدي به حياً يُحَبُّ به الدهر

لئن غدرت في الروع أيامه به فما زالت الأيام شيمتها الغدر

فجواب (لئن) في البيت الثاني (فما زالت) وهو جواب للشرط مع تقدم القسم ٠
وعلى ذلك قول الشاعر :

لئن بكيت دماً والعـزم من شيمي على الخليـط فقد يبكي الحسام دما

وقد أورده الأستاذ محمد الخضر حسين التونسي في كتابه (الخيال في الشعر العربي) في صدد كلامه على (التفاضل في التخييل/٥٨) ٠

ما جاء من النثر خلافاً للقياس ، فكان الجواب فيه للشرط مع تقدم القسم :

لم يقتصر مجيء الجواب للشرط مع تقدم القسم على الشعر ، بل تناول النثر أيضاً ٠ من ذلك ما حكاه ابن عبد ربه في الجزء الاول من كتابه المعروف (العقد الفريد) من كلام عمر بن الخطاب لمعاوية ، رضي الله عنهما، حين قدم عمر على معاوية بالشام ٠ اذ قال معاويه : « فان أمرتني بذلك اقمت عليه ،وان نهيتني عنه انتهيت » ، ولا شيء في ذلك٠ لكن عمر قد أجابه : « لئن كان الذي تقول حقاً فانه اريب ، وان كان باطلا فانه خدعة أريب » ٠ فقوله (فانه أريب) جواب للشرط مع تقدم القسم ٠

وفي نهج البلاغة (١٨٨/١) قال علي كرم الله وجهه : « لئن أُمهل الظالم فلن يفوت أخذه » ، فجاء الجواب للشرط دون القسم ٠ ذلك أن جواب القسم في جملة فعلية منفية فعلها مضارع ، كما هو الحال في القول السابق ، يتقدم الفعل فيها أحد أحرف النفي (ما و ان و لا) ويندر أن يتقدمه (لن أو لم) ، ولا تدخل الفاء هذه الأحرف في جواب القسم خلافاً للشرط ٠

وجاء في نهج البلاغة أيضاً قول علي كرم الله وجهه (١٠٥/٢) : « ولعمري لئن كانت الامامة لا تنعقد حتى تحضرها عامة الناس ،فما الى ذلك سبيل » ، فجاء الجواب للشرط أيضاً ، ذلك أن جواب القسم في جملة اسمية منفية تتصدره أحرف النفي (ما أو لا النافية للجنس أو إن) ولا تدخل الفاء هذه الأحرف ٠

ما الرأي في جواز كون الجواب للشرط مع تقدم القسم :

أقول الرأي عندي أن اتفـاق الجمهور على أن الأصل في الجواب أن يكون للمتقدم من الشرط أو القسم ، اذا اجتمعا ، لا يمنع اجازة مجيء الجواب للشرط مع تقدم القسم ما دام قد جاء ذلك مجيئاً متعالماً في شعر فحول الشعراء ونثر الأئمة البلغاء ، ممـا أتينـا بشواهده قبل ٠ وهذا ما دعا بعض الأئمـة الى التصريح به كالامام الفراء وابن مالك ٠ وقد أشار الى ذلك الامام السيوطي في كتابه (همـع الهوامـع ـ ٤٣/٢) ، اذ قـال : « فالجواب للسابق في الأصح قَسَماً كـان أو شرطاً وجواب الآخر محذوف ، نحو : والله ان قام زيد لأقومنّ وان يقم والله أقمْ » وأردف:« وجوّز الفراء وابن مالك جعل الجـواب للشرط وان تأخر ، كقوله :

لئن كان ما حُدّثته اليوم صادقاً أصمْ في نهار القيظ للشمس باديا»

قد يجزى الشرط بجواب القسم :

قد يتصدر الكلام شرط فلا يجاب بجزائه وانما يجاب بجواب القسم • ومن ذلك قوله تعالى : « وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسّن الذين كفروا منهم عذاب أليم ــ المائدة /٧٣ » • فجاء الجواب للقسم وليس في الآية قسم فذهب الأئمة الى تقديره ، وحذف جملة القسم كثير • قال العكبري في كتابه (البيان في اعراب القرآن) : « ليمسَّنَّ : جواب قسم محذوف سدّ مسدّ جواب الشرط الذي هو وان لم ينتهوا ــ ١/١٢٥ » • أي أن القسم مقدر في الآية لأن الجواب فيها لا يكون الا للقسم • قال ابن هشام في كتابه (مغني اللبيب): « وكقوله تعالى : وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسّنّ ، فهذا لا يكون الا جواباً للقسم ــ ١/١٨٩ » •

وقال تعالى : « وان أطعتموهم إنكم لمشركون ــ الأنعام/١٢١ » ، فاجيب الشرط بجواب القسم • واختلف الأئمة في تأويله ،فذهب جماعة الى جعل الجواب للشرط على اضمار (الفاء) فقدّر (فانكم لمشركون) • قال العكبري في كتابه (البيان في اعراب القرآن) : حذف الفاء في جواب الشرط وهوحسن اذا كان الشرط بلفظ الماضي ، وهو هنا كذلك ، وهو قوله : وان أطعتموهم ــ ١/١٤٥ » • وكذلك فعل البيضاوي في تفسيره الموسوم بأنوار التنزيل : « وانما حَسُنَ حذف الفاء فيه لأن الشرط بلفظ الماضي » • وعندي أن هذا هو الرأي المرجوح • ذلك أن حذف الفاء من جواب الشرط مقصور على الشعر عند الأكثرين • قال الشاعر :

من يفعل الحسنات الله يشكرها والشر بالشر عند الله مثلان

أي : فالله يشكرها • وذهب أبو العباس المبرّد في كتابه الكامل الى أنه لا يجوز ذلك حتى في الشعر وأن البيت المروي محرّف والأصل فيه (من يفعل الخير فالرحمن يشكره) ، وجمهور النحاة على أن فاء الجزاء لا تسقط الا في الشعر وللضرورة ، كما جاء في كتاب (الضرائر ٦٤) لمحمود شكري الآلوسي. قال ابن هشام في (مغني اللبيب ــ ١/١٨٩) بصدد تأويل الآية السابقة « وان أطعتموهم انكم لمشركون ــ الأنعام ــ ١٢١) : « وقول بعضهم ليس هنا قسم مقدّر وأن الجملة الاسمية جواب الشرط على اضمار الفاء كقوله : من يفعل الحسنات الله يشكرها ،مردود لأن ذلك خاص بالشعر •• » • وقد جاء في (شرح شواهد المغني ــ ١/١٧٨) للامام جلال الدين السيوطي : « من يفعل الحسنات الله يشكرها ــ هو لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، رضي الله عنه ، وقيل لكعب بن مالك وتمامه : والشر بالشر عند الله مثلان •• وقوله : الله يشكرها جملة اسمية وقعت جواب الشرط وحذفت منها الفاء ضرورة ، وزعم المبرّد أن الرواية من يفعل الخير فالرحمن يشكره » •

خلاصة القول في جواب الشرط والقسم :

يمكن ايجاز القول في هذه المسألة بالشرح التالي :

١ - اذا تصدر الكلام ما يطلب الخبر كالمبتدأ واسم كان ونحوه ، واجتمع بعده شرط وقسم كان الجواب للشرط جميعاً ، كقولك (خالدٌ واللهِ يُطعني أكرمْه) بالجزم و (ان ولدي ان يسيء اليّ واللهِ أعفُ عنه) بالجزم أيضاً .

٢ - اذا اجتمع الشرط والقسم ولم يتقدمهما ما يطلب الخبر كان الجواب للسابق منهما ، شرطاً كان أو قسماً ، واستغني عن جواب الآخر ، كقولك (ان يزرني والله خالد أكرمْه) بالجزم لأن الجواب للشرط فهو المتقدم ، وقولك (والله ان يزرني خالد لأكرمنّه) بنون مشددة بعد لام الجواب ، لأن الجواب للقسم ، وهو السابق . وجواب المتأخر محذوف .

٣ - قد يأتي ما يتقدم فيه القسم ويكون الجواب فيه للشرط ، خلافاً للقياس . وقد جاء هذا في النثر نثر البلغاء وفي الشعر شعر الفحول مجيئاً متعالماً يؤذن بجوازه . قال الشاعر :

لئن كان ما حُدِّثته اليوم صادقاً أصمْ في نهار القيظ للشمس باديا

فجاء الجواب (أصمْ) للشرط مع تقدم القسم عليه . وقال عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، « لئن كان الذي تقول حقا فانه اريب » ، فجاء الجواب للشرط أيضاً مع تقدم القسم . واذا كان في هذا ترجيح للشرط على القسم فذلك لأن تعليق المعنى على الشرط في الأصل ، وانما يساق القسم للتأكيد .

٤ - قد يُجزى الشرط بجواب القسم ، ولكن لا بد في هذا من تقدير القسم ، لأن جواب القسم لا يُجاب به الا عن القسم . قال تعالى: «وان لم ينتهوا عما يقولون ليَمَسَّنَّ الذين كفروا منهم عذاب أليم - المائدة/٧٣» . فجاء الجواب للقسم فقدّر وخُرّجت الآية على حذف جملة القسم ، وكان الأصل (واللهِ ان لم ينتهوا .. » فيكون الجواب للقسم لتقدمه على الشرط جرياً على الأصل .

* * *

الحـــال

تعريفه : **الحال في تعريف النحاة وصف (فضلة) وقد عنوا بفضلة أنها ليست مسنداً أو مسنداً اليه ، وهما ركنا الجملة من الوجهة النحوية . كالفعل والفاعل في الجملة الفعلية، والخبر والمبتدأ في الجملة الاسمية ، فالحال تأتي في الأصل بعد استيفاء هذين الركنين في الجملة** ، تقول (جاء خالد راكباً) فتأتي بالفعل والفاعل ثم تذكر بعدهما (الحال - راكباً) لبيان هيئة صاحب الحال وهو الفاعل (خالد) . ويقول الشاعر (أنا ابن دارة معروفاً بها نسبي) فيأتي بالمبتدأ والخبر ثم يأتي بـ (الحال - معروفاً) تأكيداً لمضمون الجملة .

واذا قلنا (الحال فضلة) فليس يعني ذلك أنه يمكن الاستغناء عنها لتمام المعنى المقصود دونها ، ذلك أنها تأتي لأداء دلالة خاصة . والا فهل يمكن الاستغناء عن (الحال)

نحو (خرج زيد يركض) ، وقوله تعالى :«وجاءوا أباهم عشاءً يبكون ـ يوسف / ١٦»، واما الواو والضمير معاً كقولك (لِمَ ضربته وهو يأكل) ، وقوله تعالى : « ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف ـ ـ البقرة / ٢٤٣ » ٠

واو الحال متى تجب :

يشكل على الكتاب متى تجب واو الحال ومتى تمتنع ، وهي تجب في مواضع ثلاثة :

ـ الأول : أن تكون جملة الحال اسمية خالية من ضمير يربطها بصاحب الحال ، كقولك : (جئت والناس نيام) وكقوله تعالى:« ولئن أكله الذئب ونحن عصبة » ٠

ـ الثاني أن يتصدر الجملة الاسمية الضمير العائد الى صاحبها ، كقولك (لا تتكلم وأنت تأكل) ، وقوله تعالى : « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ـ النساء / ٤٣ » ٠

فقد جاء ربط الجملة الاسمية بصاحب الحال في غاية القوة باجتماع الواو والضمير معاً ٠ وقد ناسب ذلك الجملة الاسمية لقوتها في الاستقلال ٠ وهذا الربط بالواو وحدها أو بها مع الضمير انما يكون في الحال المبينة التي تُذكر للتوضيح والتبيين ، وأما في الحال المؤكدة فلا يجوز الواو تقول ـ هو الحق لا شك فيه ـ وذلك لأن الواو لا تدخل بين المؤكد والمؤكد لشدة الاتصال بينهما ، كما جاء في شرح كافية ابن الحاجب للامام عبد الرحمن الجامي ٠ وسيأتي الكلام على امتناع الواو في الحال المؤكدة ٠

ـ والثالث أن تتصدر الجملة الفعلية الحالية ، المثبتة أو المنفية ، فعل ماض ، وهي تخلو من ضمير يعود الى صاحبها ٠فاذا كانت مثبتة وجبت معها قد ، وجيء بـ (قد) بعد الواو ها هنا ، لأنها تقرب الماضي من الحال فيصح أن يقع حالاً ، كقولك : (جئت وقد انصرف الناس) ٠ وان كانت منفية انفردت الواو كقولك : (جئت وما طلعت الشمس)٠

واو الحال متى تمتنع :

تمتنع الواو في حالات ست :

الأولى : أن يتصدر الجملة عاطف كقوله تعالى : « فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون ـ الأعراف/٣ » أي ليلا أو نهاراً ٠

الثانية : أن تقع مؤكدة لمضمون جملة نحو (هو الحق لا شك فيه) ، وقوله تعالى : « ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ـ البقرة / ٢ و ٣ » ٠ وتمتنع الواو هنا لأن المؤكِد نفس المؤكد فتكون معها في صورة المعطوف على نفسه ٠

الثالثة : أن تكون ماضية بعد (الا) فتمتنع الواو وقد منفردين ومجتمعين ، ويكتفى بالضمير ، نحو قوله تعالى : « يا حسرة على العبادة ما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزئون ـ يس / ٣٠ » وقوله تعالى :« وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين ـ يوسف / ٤٦ » ٠ ونحو قولك (ما تكلم الا ضحك) ٠

وما جاء بالواو أو قد مخالف للمشهور ٠

الرابعة : أن تكون الجملة ماضية قبل (أو) نحو قولك (لأضربنّه عاش أو مات) وقول الشاعر (كن للخليل نصيراً جار أو عدلا) • وتمنع الواو هنا لأنها في تقدير الشرط أي (ان عاش أو مات) و (ان جار أو عدل).

الخامسة : أن يتصدر الجملة الحالية مضارع مثبت دون قد ، فترتبط بالضمير وحده ، كقولك (ومضى زيد يكتب رسالته)، فقد جاءت الجملة الحالية كالوصف فعوملت كذلك • فاذا وجدت (قد) اقترنت الجملة بالواو ، تقول (قدمت المدرسة وقد يزورني فيها زائر) وعليه قوله تعالى : « واذ قال موسى لقومه يا قوم لِمَ تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله اليكم ـ الصف / ٥ » فوجب اقتران الواو هنا لأن دخول (قد) نقض شبه الجملة بالوصف ،لامتناع دخولها على الوصف •

السادسة : أن يتصدر الجملة الحالية مضارع منفي بلا، فتمتنع الواو وقد منفردين ومجتمعين ، ويكتفى بالضمير وحده ، كقوله تعالى : « ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ـ المائدة / ٨٤ » • وتقول على هذا (جاء زيد لا يركب) ، وهو في تأويل : جاء زيد غير راكب • **وهكذا اذا كان النفي بما على ما هو المشهور** • أما اذا كان بلم فانه يجوز اثبات الواو وحذفها • ودليل اثباتها مع الضمير قوله تعالى : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي اليّ ولم يوح اليه شيء ـ الأنعام/٩٣ » • ودليل حذفها قوله تعالى : « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ـ آل عمران /١٧٤ » • واذا كان النفي بلمّا كان الأكثر اثبات الواو كقوله تعالى : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يعلم الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ـ آل عمران/١٤٢ » •

واو الحال : متى يجوز اثباتها وحذفها :

يجوز اثبات الواو وحذفها في مواقع ثلاثة ، فقد مر بنا :

أولا : أن الأصل في الجملة الحالية الفعلية المرتبطة بالضمير ، أن تمتنع فيها واو الحال ، اذا تصدرها منفي بما الحالية ، هذا هو المشهور ، لكن من الأئمة من أجاز اثباتها في هذا الموضع وحكم بصحة قول القائل (جاءني زيد وما يتكلم غلامه) • جاء هذا المثال في شرح الامام الجامي لكافية ابن الحاجب • وقد ساوى بينه وبين حذف الواو في قولك (جاءني زيد ما يتكلم غلامه) • وهكذا فعل الامام جلال الدين السيوطي في (همع الهوامع) اذ قال : « والمنفي بما فيه الوجهان أيضاً نحو: جاء زيد وما يضحك ، أو جاء زيد ما يضحك » •

ثانياً : وقد تقدم أن الأصل في الجملة الفعلية المثبتة اذا تصدرها فعل ماض ، وخلت من ضمير رابط ، وجوب اثبات الواو الحالية وقد ، كقولك (جاء زيد وقد طلعت الشمس) ويعني هذا أنه اذا وجد الضمير الرابط لم تجب الواو • تقول (جاءني زيد وقد خرج

غلامه) و (جاءني زيد قد خرج غلامه) ،وقد ساوى الجامي في شرح الكافية بين المثالين. وأورد النحاة على ربط الجملة بالضمير وقدفقط دون الواو ، قول الشاعر :

وقفت بربع الدار قد غيّر البلى معارفها والساريات الهواطل

والساريات هي السحب تأتي ليلا .

ثالثا : ذكرنا أن الأصل في الجملة الحالية الفعلية المنفية اذا تصدرها فعل ماض ، وقد خلت من ضمير رابط وجوب اثبات الواوِمنفردة ، كقولك (جئت وما طلعت الشمس). أما اذا وجد الضمير الرابط فلا تجب الواو ،وعلى ذلك تقول (جاءني زيد وما خرج غلامه) و (جاءني زيد ما خرج غلامه) ،وقد ربط الأول بالواو والضمير . وربط الثاني بالضمير وحده وهكذا قولك (رجع خالد وما صنع شيئاً) و (رجع خالد ما صنع شيئاً) ، كما أورده الشيخ مصطفى الغلاييني في كتابه (جامع الدروس العربية) .

رابعاً : كما ذكرنا أن الأصل في الجملة الحالية الاسمية ، المثبتة والمنفية ، أن تربط بالواو والضمير معاً اذا تصدر الجملة الضمير العائد الى صاحبها . ومثال الجملة الحالية الاسمية المثبتة ، قوله تعالى ، « فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ـ البقرة /٢٢ »، ومثال المنفية نحو قولك « رجعت وما في يدي شيء ».أما اذا لم يتصدر الجملة الضمير العائد الى صاحبها فقد أجاز النحاة الوجهين اثبات الواووحذفها ، والمشهور الحذف كقوله تعالى في الجملة الحالية المثبتة : « اهبطوا بعضكم لبعض عدو ـ البقرة /٣٦ » ومثال المنفية قوله تعالى : « والله يحكم لا معقب لحكمه ـ الرعد /٤٣ » .

امتناع واو الحال بعد الا عند النحاة اذا تلاها فعل ماض :

الأصل أن تمتنع الواو بعد الا ، اذا تصدر الجملة الحالية فعل ماض ، كقوله تعالى : « وما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزئون ـ الحجر /١٣ » ، وقوله تعالى : « ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون ـ الأنبياء /٢ » . وقد تقدم بحث ذلك فتقول على هذا مثلا (ما من أحد الا جزع) فتمتنع الواو بعد الا . وجاء في شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ان هناك سبع مسائل تمتنع فيها الواو ومنها الماضي التالي لـ (الا) نحو (ما تكلم الا قال خيراً) .

ولكن هل ثمة من يجيز دخول (الواو) بعد (الا) في مثل هذا الموضع ؟

أقول : قال الصبان في تعليقه على الأشموني وتعليله سبب امتناع الواو ها هنا : « أي لأن ما بعد الا مفرد حكماً » ، أي هو مفرد في الأصل لا جملة . لكنه استدرك فقال: « وذهب بعضهم الى جواز اقترانه بالواو تمسكاً بقوله :

نعم امرأ هرم لم تعر نائبة الا وكان لمرتاع بها وزرا

وحكم الأول بشذوذه » . وهذا يعني ذهاب بعضهم الى جواز اقتران الواو أخذاً بقول الشاعر، أما الأكثرون فقد حملوا بيت الشاعر على الشذوذ .

مجيء واو الحال بعد الا في كلام البلغاء اذاتلاها فعل ماض :

الذي عندي أن الحكم بامتناع الواو أوجوازها بعد الا اذا تلاها فعل ماض ، مرهون باستعمال الفصحاء ، فهل جاء في كلامهم اقتران الواو بالفعل الماضي بعد الا ٠

أقول قد ورد ذلك فيما أُثر عن الفصحاء مورداً متعالماً، ومن ذلك ما جاء في نهج البلاغة، اذ قال :

ووأى، على نفسه ألا يضطرب شبح مما أولج فيه الروح الا وجعل الحمام موعده والفناء غايته (٢/٩٢ و ٩٣) ٠ والوأي هوالوعد والحمام هو الموت ٠ وقال :

ولم يترك شيئاً رضيه أو كرهه الا وجعل له عَلَماً بادياً وآية محكمة (٢/١٣٣) ، وقال :

ما من أحد أودع قلباً سروراً الا وخلق الله له من ذلك السرور لطفاً (٣/٢١٠) ونحو ذلك كثير في نهج البلاغة ٠

ومما جاء من ذلك في كتاب (أخلاق الوزيرين) لأبي حيان التوحيدي ، قال :

وما رأس الله أحداً الا وفرض عليه الافضال والاحسان (ص/٢٦٥) وقال :

وما رأيت أحداً سكت عن أحد من سفائهم تغافلا عنه ٠٠ الا ورأيته يقول ويطنب في ابن عباد غير خاش ولا متحاش (ص/٤٧٤) ٠

فصح بذلك قولك في المثال السابق : (ما من أحد الا وجزع) باقتران (الواو) بالفعل الماضي ٠

اقتران واو الحال بقد بعد الا اذا تلاها فعلماض :

قد جاء مما تمتنع فيه الواو وقد منفردين ومجتمعين ويكتفي بالضمير أن تقع الجملة الحالية الفعلية بعد الا ويتصدرها فعل ماض، كقوله تعالى : « ما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزئون ـ يس/٣٠ » ٠ وجاء في شرح الأشموني (٣/٢٢) أن (قد) تمنع مع الماضي المتنع ربطه بالواو وهو تالي الا ،وندر قوله :

متى يات هذا الموت لم يُلف حاجة   لنفسي الا قد قضيت قضاءها

لكنه جاء في حاشية الصبان : « في شرح الرضي أنهما يجتمعان بعد الا نحو : ما لقيته الا وقد أكرمني ـ ٣/٢٢ » ٠ فما الرأي في ذلك ؟

أقول جاء في كلام الفصحاء اقتران الواو بقد بعد (الا) قبل الفعل الماضي ، كما جاء انفرادها بالفعل الماضي ، على ما تقدم ٠ ومن شواهد اقتران الواو بقد قبل الفعل الماضي التالي لـ (الا) ، ما جاء في نهج البلاغة ، قال:

ولا جُعلت لهم الأفئدة في ذلك الأوان الا وقد أُعطيتم مثلها في هذا الزمان (١/١٥٦) ، وقال :

ما منهم رجل الا وقد أعطاني الطاعة وسمح لي بالبيعة طائعاً غير مكره (١٠٤/٢).
وقال ابن جني في الخصائص :

لسنا نراك الا وقد أغلقت العينين جميعاً (٦٥/٢) . وجاء في شرح الحماسة لأبي علي المرزوقي :

فلا يمكنهم تجاوزه الا وقد فرغوا منه (ص/١٩٢) وقال :

لا تكون راشداً الا وقد رشد جارك معك (ص/٤٣٨) .

فساغ بذلك قولك في المثال السابق (مامن أحد الا وقد جزع) ،وقولك (ما حدثني أحد الا وقد استمعت اليه) ، استناداً الى ماذهب اليه الامام الرضي وجاء في كلام الفصحاء.

مجيء واو الحال بعد الا اذا تلاها فعل مضارع :

الأصل أن تمتنع الواو اذا تصدر الجملة الحالية مضارع مثبت دون (قد) ، فتربط بالضمير وحده ، كقولك (جئت أحمل ثيابي)وقوله تعالى « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ـ يس/٣١ » . فاذا اقترن بقد جازذلك كقوله تعالى « لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله اليكم ـ الصف/٥ » . والحكم في هذا جاء بعد الا ودونها .

وقد أخذ الدكتور مصطفى جواد عضو المجمع العراقي في كتابه (المباحث اللغوية) على زميله الأب ماري أنستاس الكرملي قوله (لا ندع ديواناً ... الا ونورد فيه شيئاً من المصطلحات)، قال الدكتور جواد : «والصواب نورد بحذف الواو » مستشهداً بقوله تعالى : « وان من شيء الا يُسبح بحمده ـ الاسراء/٤٤ » .

كما أخذ الأستاذ علي نجدي ناصف على الدكتور شوقي ضيف في كتابه (المدارس النحوية) مثل ذلك . قال الأستاذ ناصف في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة (١٩٠/٢٥):
«ويدخلها ـ أي واو الحال ـ الأستاذ الدكتور شوقي ضيف في كتابه ، المدارس النحوية ـ على المضارع المثبت غير المقرون بقد حين تقع جملته حالا ، كقوله : لا يسجل قاعدة الا ويرى ـ ص/١٠٠ . ويوجب النحويون أن تربط هذه الجملة بالضمير لا بالواو ، ويؤولون ما ورد مقروناً بها » .

وقد بحث هذا أبو البقاء الكفوي في (الكليات) فقال : « ودخول الواو في المضارع المثبت كالممتنع أعني الحرام اذا أجري على ظاهره . وأما اذا قدر معه مبتدأ فدخول الواو جائز ومسموح كثيراً ـ ١٦٥/٥ » . وهذا يعني أنك اذا قلت (وليس شيء مما يضطرون اليه الا ويحاولون به وجهاً) باثبات الواو وقبل المضارع كان كالممتنع في الأصل ، فاذا قدرت فيه المبتدأ على أن المراد (الا وهم يحاولون به وجهاً) كما أثبته ابن جني في الخصائص (٥٢/١) جاز ذلك .

على أننا اذا عدنا الى كلام الفصحاء ، كما فعلنا قبل ، رأينا أن اقتران الواو بالمضارع المثبت هنا جائز ، ولو امتنع تقدير المبتدأ . وشاهد ذلك ما جاء في نهج البلاغة ، قال : « واعلموا أن ليس من شيء الا ويكاد صاحبه أن يشبع منه ويمله الا الحياة ٢٣/٢ »، فقد دخلت الواو على المضارع المثبت مع تعذر تقدير المبتدأ ، فتأمل .

موجز القول في الجملة الحالية ، المثبتة ، اذا تلت الا :

ويحسن أن نوجز الحكم في الجملة الحالية ، الفعلية المثبتة ، بعد الا ، من حيث اقترانها بالواو وقد أو امتناعها عنهما ، بما يلي :

الأول : **الأصل في الجملة الحالية بعد الااذا تصدرها الماضي المثبت أن تكتفي بالضمير وحده ، ولكن جاء في كلام الفصحاء اقترانهابالواو وقد مجتمعين ، كما اتفق ذلك في كلام علي،كرم الله وجهه ، وقد قال به بعض الأئمة. وجاء الى ذلك في كلامهم اقترانها بالواو وحدها .**

الثاني :**الأصل في الجملة الحالية اذا تصدرها المضارع المثبت أن تكتفي بالضمير وحده، فاذا اقترنت بالواو فلا بد أن تضم اليها قد ،سواء تلت الجملة (الا) . أو جاءت دونها . لكنه جاء في كلام الفصحاء اقترانها بالواو وحدها ، كما اتفق ذلك في كلام علي كرم الله وجهه.**

* * *

وبعد فهذا ما رأيت أن أبسط القول فيه للكشف عن السبل المسلوكة الى تبين جواب الشرط من جواب القسم وتحري الواجب منهما اذا اجتمعا ، وتعرّف مواضع ربط الجملة الحالية بواو الحال وجوباً وجوازاً وامتناعاً . وقد اعتمدت في ذلك آراء النحاة وأقلام أرباب البيان شعراً ونثراً فهولاء وأولئك أصحاب الصناعة . وأرجو أن أكون قد أوضحت البحث فأفصحت عن مضمونه وجلوت غامضه في المسألتين . التماساً لوجه الرأي فيهما وابتغاء للصواب ، ومن الله العون .

☐ ثبت بمصادر البحث :

١ ـ الكليات لأبي البقاء الحسيني الكفوي .
٢ ـ حاشية الشيخ حسن العطار على شرح الأزهرية للشيخ خالد الأزهري .
٣ ـ شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب لابن هشام الأنصاري .
٤ ـ مغني اللبيب لابن هشام الأنصاري .
٥ ـ الضرائر لمحمود شكري الألوسي .
٦ ـ خزانة الأدب لعبد القادر البغدادي .
٧ ـ الضرائر لعلي بن عصفور الاشبيلي .
٨ ـ ديوان الامام الشافعي .
٩ ـ ديوان المتنبي ، وأبي تمام ، وأبي فراس الحمداني .
١٠ ـ العقد الفريد لابن عبد ربه .
١١ ـ الخيال في الشعر العربي لمحمد الخضر حسين التونسي .
١٢ ـ نهج البلاغة .
١٣ ـ همع الهوامع للامام جلال الدين السيوطي .
١٤ ـ البيان في اعراب القرآن لمحب الدين أبي البقاء العكبري.
١٥ ـ الكامل لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد .
١٦ ـ شرح شواهد المغني للامام جلال الدين السيوطي .
١٧ ـ شرح كافية ابن الحاجب لعبد الرحمن الجامي .
١٨ ـ جامع دروس اللغة العربية للشيخ مصطفى الغلاييني .
١٩ ـ شرح علي بن محمد الأشموني لألفية ابن مالك .
٢٠ ـ حاشية محمد بن علي الصبان على شرح الأشموني .
٢١ ـ أخلاق الوزيرين لأبي حيان التوحيدي .
٢٢ ـ الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني .
٢٣ ـ المباحث اللغوية للدكتور مصطفى جواد .
٢٤ ـ شرح ديوان الحماسة لأبي علي المرزوقي .
٢٥ ـ مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة (١٩٠/٢٥) .